روايات الهلال

وولى سوينكا

المفسرون



روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

تصدر عن مؤسسة

دار الهلال

العدد ٤٥٧ - يناير ١٩٨٧

جمادى الأولى - ١٤٠٧ هـ

NO . 457 JAn . 1987

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم عشرون دولار بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٠٠ قرش :

سوريا ٣٥٠٠ ق س . لبنان ٣٥٠٠ ق . ل ، الأردن ٦٠٠ فلس ، الكويت ٦٠٠ فلس ، العراق ١٦٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات . السودان ٢٥٠ ق . سودانى . الخليج ١٥٠٠ فلس . تونس ٢٠٠٠ مليم ، المغرب ٢٠٠٠ فرنك ، غزة والضفة ١٢٥ سنتا ، البرازيل ٦٠٠ سنت ، داكار ١٥٠٠ فرنك ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، جيبوتى ١٥٠ بنيا ، عدن ٢ دولار .

الادارة . دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

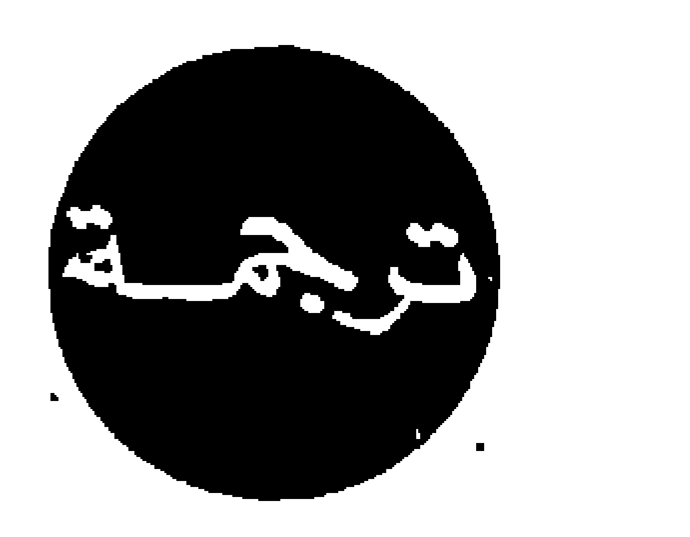
روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

المفسرون



وولي سوينكا



محمد جلال عباس

دار الهلال

القسم الأول

(١)

ـ «احتكاك المعدن بالاسمنت يكاد يصم اذنى» ذلك ما صاح به ساجو وهو يسد اذنيه بأصابعه ليتجنب ذلك الصرير الذى أحدثه تحريك المناضد الحديدية ، وقفزت دايهنوا فارتفعت رأس ساجو فى الفضاء حيث انكشفت فيه ساقاها ، ولم يتوقف باندلى عن هز ذراعيه طربا ، ففى اقل من لحظة كان الجميع يحتضنون مناضدهم وكراسيهم ويدفعونها الى جوار الحائط تحت الممر الطويل المسقوف واخذت الراقصات تجمعن أذيال أثوابهن التى بدأت تتطاير إلى أعلى من تفجر السحب والريح الشديدة تحمل تلك الأذيال بقوة . وفى لحظة أيضا اختفت فرقة الموسيقى .

وظل ايجبو فترة حتى ادرك ما حوله وأخذ ينظر الى الماء المنساب من طرف السقف المنحدر بشىء من الغضب ، ثم القى ما فى قدحه من بقايا الجعة التى اختلطت بماء المطر المنهمر وهو يقول :

ـ لا أريد عطف السماء ، قولوا للسماء أن تتوقف عن البكاء بدموعها فى قدحى .

وواصل ساجو حديثه وهو يدلك جانب رقبته ويتحدث الى دايهنوا قائلا :

ـ أنت امرأة ولدت معلقة فى الهواء . قفزتك هذه كفيلة بأن تدق عنق أى غوريللا ، ردت قائلة :

ـ كنت افكر فى شعرى حينما قفزت .

ـ شعرها ! آه من شعرها ورقبتى ، لماذا لاتضعين شعرا مستعارا مثل كل السيدات العصريات .

ـ لا أحب الشعر المستعار .

ـ لو أنك سرت هكذا بشعرك الطبيعى لظن الناس أنك صلعاء . وظل ايجبو فى المربع الذى يجلس فيه منعزلا عن الاماكن الأخرى بحائط مصنوع من أعواد (الخيزران) التى تضفى على المكان شيئا من الخصوصية فى هذا النادى الليلى الذى كتبت فى لوحة اعلانه : جرب

شاليهات نادى كامبانا .. الخ ، وأخذ يرقب المستنقع الذى تكون من ماء المطر المنهمر والقى فيه ببقايا البيرة التى كانت فى قدحه ، يتجمع الماء فيه فيرتفع شيئا فشيئا ، وبينما هو غارق فى تأملاته مع أعواد البامبو البيضاء التى تطفو فوق الماء وترتفع معه بينما سياط الماء تنساب من فوق السقف وتسقط رفيعة كالسياط الضاربة .

- اخترت بنفسى وليس لى أن أشكو .

نظر اليه بانديلى باستغراب فرد على نظرته قائلا :

- آه ، إنه حديث مع نفسى ومع هذا المستنقع الثرثار .

وراح ايجبو فى تداعيات : .....

مجدافان يضربان فى الماء الساكن فى الشق المائى ، والقارب يشق عباب الماء عبر النباتات الطافية وبين أوراق نباتات المنجروف المتدلية نحو الماء كالدموع المتساقطة ، والهواء ساكن ، ويدنو القارب من مكان به مدفع قديم ملقى على الشاطىء وقد علاه الصدأ : أنها صورة للماضى ، ولكنها صورة مزيفة .. وتبطىء المجاديف ويمر القارب بطيئا أمام ذلك المدفع القديم ، ومد ايجبو يده يبللها ومد عينيه الى الاعماق فى ذلك الماء الآسن الساكن وحدق فى ظلمتها حتى وصل الى القاع حيث الطين الراكد وبنظرة هادئة وهو منغمس فيها بكليته وقال :

- ربما تبادر الى ذهنك ان أبوىّ قد غرقا فى هذه البقعة .

وبدأ القارب فى السير مبتعدا واردف قائلا :

- قد يقول حكماؤك الصينيون ان ذلك كذب طبعا ، كيف اقول ان أبوىّ قد غرقا هنا بينما الماء اليوم ليس هو نفس الماء الذى كان من قبل فى العام الماضى بل بالامس ، وحتى منذ لحظة حينما كنت أتكلم ، على أى الاحوال ان المدفع القديم هنا علامة على المكان ، ولذا فانه الموقع الذى مات فيه أبوىّ .

وأشاحوا بوجوههم عنه لايدرون ماذا يقولون . وظهر خلف المدفع الذى يبتعدون عنه حفار مائى بدا كأنه يمد مخالبه إلى الشمس ثم ينحدر نحو أطراف الماء يحفر فى الطين حفرة لينة فيتجه تيار الماء نحوها ليملأ فراغها فيعكر وجه الماء بالطين ، ومازال القارب يشق وسطه ، وقد بدت أقواس نباتات المنجروف بلا نهاية ، ويقطع كولا الصمت قائلا :

- يجعلنى المنجروف أشعر بالكآبة والحزن .

رد عليه ايجبو :

ـ وأنا أيضا ، وان كنت لا استطيع أن ابتعد عن الماء تماما إلا أننى لا أحب الاشياء التى تذكرنى بالموت . اذكر أننى حينما عشت فى مدينة أوشوجبو احببت ادغال أوشون ، وكنت استلقى هناك ساعات طويلة استمع إلى خرير الماء على الشط ، كان هناك نوع جيد من الشقوق المائية يغمرنى بمشاعر السكينة والراحة والطمأنينة ، كنت استلقى هناك معتقدا أن ابوىّ سوف يخرجان من الماء ليتحدثا الىّ ، كنت اعتقد أنهما قد استحالا الى رجل مائى وزوجته ، وكنت لا اشك فى ذلك ابدا فتوقعت انهما سوف يظهران حينما تكون الظروف مواتية وكان الشق المائى فى أوشون يمتاز بنفس اللون الرمادى ، وكنت اذهب الى هناك ليلة بعد اخرى اناديهما ، وأضع اذنى قرب الماء عند الشاطىء .

ضحك وقال :

ـ كنت اتعرض بسبب ذلك للضرب ، فقد كان ولاة امرى يعتقدون ان مس الأرواح اصابني واصبحت من اتباع اوشون . وأتساءل ما الفائدة التى تعود على من اوشون .

وغمس يده فى الماء بينما نحن نسير واقتلع أحد النباتات اللينة وأخذ يضفر جذورها البيضاء .

ـ كانت مرحلة بالطبع ، ولكنى اتوق دوما الى الظلام ، أحب أن تكون الحياة صامتة مليئة بالغموض . كنت آخذ كتبى معى لاقرأها فى أيام الاجازات ، بدأت فيما بعد اذهب الى ابعد من ذلك نحو الموقع الى الجسر الهزاز حيث ينساب الماء بحرية فوق الصخور والرمال البيضاء والشمس الساطعة ، هناك ايضا عمق فى ذلك الماء المضطرب ، أو على الأقل كنت أشعر اننى أغوص فى ظلمات تأتى من سماء لا حدود لها . كانت الأمور تختلف تماما عما هى عليه فى الأحراش فجرفتنى معها الى الاعماق وكان الجسر الهزاز هو المهرب الذى نلجأ اليه ونزوغ كالطائر الذى يأوى الى عشه .

شعر آنذاك بغثيان مفاجىء سببه له الاحباط واراد أن يلقى بما لديه واضحا فى غير غموض وقال :

ـ احاول أن اشرح لماذا لاتكف عنى الذكريات ؛ لم احج الى هذا المكان منذ أن مات والداى . كانت عمتى تأتى هنا من وقت لآخر لتقول للرجل أننى مازلت حيا ، وكانت آخر مرة حينما كنت فى الرابعة عشرة من عمرى وددت

وقتها أن تكون المرة الأخيرة .
بدا بانديلى عابسا بينما ألقى ايجبو سؤالا :
ـ لماذا انت عابس هكذا ؟
هز بانديلى رأسه وقال :
ـ انك لا توافقنى أليس كذلك ؟ وانت ياسيكونى مارأيك ؟ اذا لم يكن الموتى أقوياء بما فيه الكفاية فلماذا يتواجدون بصفة دائمة فى كياننا ألا يعنى هذا إنهم موتى ؟
رد سيكونى بكلامه الملىء بالتأتأة :
ـ هذا التمييز يسبب خللا فى قبة الاستمرارية التى هى الحياة ذاتها
أكمل ايجبو الكلام قائلا :
ـ ولكن هل علينا ان نستمر فى التقرب من الموتى ؟ لماذا يخشى الموتى أن يتحدثوا فى النور ؟
وعاود سيكونى حديثه متهتها :
ـ ذلك هو السبب في انه يجب علينا أن نقبل قبة العالم ، لانه لايوجد بها اتجاهات ، ان الجسر هو القبة .. قبة الدين لانذهب فيه من هنا الى هناك فقط فان الجسر له وجه او جانب يمكن أن تعود منه .
فقال ايجبو .
ـ لابد ان هناك كثيرا من الحجاج مثلك ايها الشيخ ، وكلكم تنتهكون حرمة الصمت ، ولكن فى انفسكم اغراضا تصرون عليها .
وكان اثر الحبوب التى ابتلعها قد اخذ يظهر عليه وبدأ يسرى فى كيانه دون أن يشعره فتردد صدى نداءات المؤذن فى الشفق وفجأة يجدون انفسهم وسط المدينة المحفوفة بالشقوق المائية وضباب الظهيرة يغطيها منتهكا حرمة الصمت دون سابق انذار فيسلب منهم اللحظات التى لا يرغمون فيها على التفوه بكلمة واحدة ولو ببطء ، وكان ذلك حدثا مفاجئا أخل بالتوازن ، فيخرج كولا القلم ليرسم ويسند ذراعه على المجداف القريب منه ، ويبطىء القارب ثم يتوقف .
ويتمتم ايجبو بكلمات قائلا :
ـ انها على ما أذكر تسلل من الواقع .
على الجانبين وسط الماء دعامات تلونت بلون الطين وفوقها مئات من الاعشاش ذات سقوف من القش ، وإلى اسفل الأرضيات المصنوعة من ألواح الخشب الممتدة بين الدعامات توجد قوارب راسية ذات الوان زاهية

تمثل آثارا من بقايا الأزمان الماضية حينما كانت الاسماك تتغذى على جثث الصيادين الذين كانوا يتصارعون على حق الصيد ، وهى الآن تنتظر السباق السنوى الذى يعاد فيه تمثيل حرب القوارب المستطيلة . هنا تقبع قرية أوسا محاطة بالظلال الشديدة وبخار الماء الذى ينبعث مع أشعة الشمس فى بياض ناصع يعكس العماء هكذا فى سكون ، حتى ظهر لهم من مخرج خفى قارب مسطح اندفع من وسط صف القوارب الراسية ، وخرج منه رجل بدين يشبه البرميل نصف عار ينساب على جسمه لمعان ، كما لو أنه الزيت الذى تبقى من وجبته الأخيرة ، وحتى من ذلك المكان القريب لم يستطيعوا أن يتبينوا وجه هذا البدين ، ولكنه رسا بقاربه بسهولة وحمل على كتفه زكيبة وتحرك فاختفى فى الظلال الغائمة .

بدأ المجدفون يحركون القارب ولكن ايجبو اوقفهم مرة ثانية قائلا :

ـ انتظروا

لقد قطع ذلك الرجل المجهول حاجز الزمن ، وتراءى لايجبو بعض الاقزام يجثون تحت اقدام اله الحرب الذى تبعث ضحكاته الرعب فى كل من سمح لهم برؤيته . وفى وسط هذا المنظر تدفعه عمته بصرامتها التى أخذتها من ابيها تصيح فى اذنه «لقد اتيت لك بولدك» ، واستطاع ايجبو ان يتذكر التحول المفاجىء الذى حدث للرجل القديم القوى وقهقهته الغاضبة التى تغيرت الى سرور وقوة مفاجئة يصعب ادراكها وقد رفعته عاليا فوق رءوس الأقزام فظهر الى ركبتيه . وشعر ايجبو مرة ثانية بسريان حيوية الخوف من يدين تتحسان وجهه ورأسه وأصابع تضغط عليها تحت شعره وتنفذ الى دماغه كما لو كانت تنفذ الى تجاعيد مخه ، وتفحص عضلاته وصدره ، ثم يسمع صوتا كالرعد هو مرة اخرى صوت جده الذى تفجر ضاحكا مقهقها . كان ذلك هو اللقاء الأخير ، والآن هنا شىء ، شىء مرئى : صورة اله الحرب يتراجع وسط مشاهديه ، رغم خطواته الثابتة حتى وهو خارج من وسطهم وبصحبته الأزلية الابدية كان ايجبو يشعر انهما دليلاه لأنه كان يمس رأسيهما بكفيه ليتلمس الاتجاه الصحيح . بتصفية دقيقة اخذ ايجبو يعيد قراءة ذكرياته ...

هنا ينطلق كولا دون أن يصرف انتباهه عن كراسة الرسم قائلا :

ـ فى مثل هذا الوضع مع التحكم فى كل حركات المكان بنظرة فاحصة دقيقة ولكل الأغراض ؛ هناك اله بين الناس ..هكذا اتصور رجلك العجوز

وقد اصاب الشيب كل شعره .

هنا وجه ايجبو سؤالا الى البحارة الذين يقومون بالتجديف :

ـ هل هو اعمى كما أتصور ؟

أخذوا يهمسون وقد غمرهم القلق ، فأدرك ايجبو ان فى الأمر جانبا من حرج المحرمات فعاوده الشعور بالهوة الشاسعة وقال :

ـ لكننى ابنه ، لن تتحدثوا مع شخص غريب .

بيد أن البحارة ظلوا صامتين ، فتابع ايجبو حديثه باصرار على انتزاع الرد .

ـ كنت طفلا حينما رأيته آخر مرة ، وكأن نظره قد بدأ يضعف آنذاك فهل يستطيع الرؤية الآن .

ووجد كبير البحارة مخرجا فى حكمة قالها :ـ

ـ حينما يسألون لماذا يلبسون دروعا من الجلد على افكارهم اجاب المستشار «ان الملك اعمى» .

حينئذ غمره طيف الأجيال السابقة وادرك ايجبو أنه قد يتضاءل دائما ، وأن لم يكن بالضرورة تلاشيا نحو نمط الموت ، وهذا الذى كان ينتظره قرب نهاية الرحلة جعله يتردد على الحافة ويحجم عن الاعتراف به ، ألم يكن ذلك نبش لماض كان من الافضل نسيانه ؟ وأخذ يفكر اخيرا فيما كانت له أهمية : من انا حتى اتطفل هكذا ؟ من أنا ؟ ـ الا انه عرف العصر الذى شوه بداياته وانكر ذلك العصر .

كان يحيطه تهديد جده ، ولكنه لم يشك فيما بعد أن الرجل العجوز قد فهم المخاطرات السياسية وأنه قد يقبل الردة ، وتمنى ايجبو لو أن ذلك هو كل شىء ، وان القتال لايتعدى أن يكون سياسيا ، ولكنه شعر بجوهر الرجولة فى داخله ؛ نعمة الكفاءه فى الرجل العجوز وفى ذلك التواجد ، وعرف أن ذلك كله سوف يتحطم ، وأن شبه الرجل الذى اتى يترنح مع الرياح الخاوية مجرد خداع ، وقال ايجبو لنفسه : ان ذلك هو مجدى العرقى ، مجد اجدادى ، فانا اولا وقبل كل شىء من شعب الايبو .

نعم سوف يحققون البقاء ، فقد أرسل له اتحاد ابناء اوسا ممثلهم ليزعجه كل يوم وكلهم قد شعروا بوطأة الحاكم المستنير ، وتدريجيا اخذت الحيرة تملأ ايجبو ووضع اله حرب منطقة الشقوق المائية وجها لوجه امام دولاب ملفات الأوراق فى مكتب الشئون الخارجية ، وأخذ الغضب الذى

يسرى فى عروقه تدريجيا يملأه بالفزع والرغبة فى التراجع عن هذا الموقف الحرج الذى وجد نفسه فيه : ماذا يريدون منه ؟ كيف يقترحون عليه الالتزام بأشياء معينة ؟ وذلك الغريب الذى تسمع أنفاسه حينما تتوقف مع كل زفرة لقد كان قريبا منفصلا عنه بجيل كامل على الأقل ـ انه أب حينما يخرج من قبره ويتحرك وسط المستوطنة ينشر الكلمة التى ، على الرغم من انها مقبولة شعائريا فانها لم تتغير الا قليلا .. اب ادى اهمال موته الى شك اكبر من عمره الطويل الذى قضاه فى المسيحية . وكانت أمه اميرة من أميرات الايبو ، وهو الآن يتحمل نفس المسئولية التى كانت على عاتقها ، كانت تلك المسئولية هى خط الوراثة الذى انتهى عند نفس النقطة ولم يبق من آثارها سوى المدفع الذى علاه الصدأ علامة على تلك النقطة .. وبفكره تخلى عن تلك الجهود التى تفكك خيوط النسيج الدموى التى بقيت له منها فقط قوى الطغيان .

ومن وقت لآخر كان البحارة يضربون بالمجاديف ليوقفوا اندفاع القارب مع أمواج المد وليبقوه على مسافة ثابتة من الشاطىء . أما سيكونى فقد سقطت رأسه فوق صدره وراح فى نعاس عميق ، ولكن الآخرين تنبهوا جميعا الى الأمر وقد ملأهم الشك والريبة فى الغرض من حضورهم وتدخلهم ، وقال أحدهم :

ـ هل سنقابل سلفك الأكبر أم لا ؟

فاجاب ايجبو :

ـ فى الحقيقة لا اعلم .

ولان الأمور أصبحت مختلفة عند هذه النقطة وهو ينتظر الخروج الى الشاطىء فيصدمه فشله فى ذلك ، لقد اصبحت الأمور مختلفة عن مجرد التحرر من الاوهام البعيدة ، انما هى مخاوفه على كرامة جذوره ومصير من أحرق آكل النار ، ثم اعترف اخيرا بأن هذا هو المكان الذى سيموت فيه ، وسلم ايضا بأن قوة خفية شدته اليه بلا وعى ، وانجرّ اليه كما لو كان فى حلم من أحلام العزلة ، وأنه قد شم ريحه القديم يهدده وأحس بتيار سرى فى اعماقه ولم يستطع أن ينكر حيوية الظلام الذى ينتظره . وقال أحدهم :

ـ ما معنى إنك لاتعلم ؟ لاتقل انك أتيت بنا جميعا كل هذه المسافة الطويلة لتقول انك لاتعلم .

- هنا لك من بعيد يظهر رجل اعمى وبعض الناس ينتظرون قدوم واحد من ابناء جيلى يكون اسطوريا عليما ، ولكن ماذا يعنى وجود قتل هؤلاء بالنسبة لى ؟

فقال بانديلى :

- اكبر عدد ممكن من الزوجات للواحد .

- نعم انى اعترف بأنها نقطة قوية .

فقال كولا :

- وفيها ايضا معنى السلطة والنفوذ .

- ربما كانت السلطة مجرد هواية ، والكثير منهن موجودات ، والكثير منهن يحاولن ، وانا اعجب كثيرا ببنات وطنى ، نعم فى ذلك السلطة بأى صورة من الصور . أن تتحالف مع الآلهة الجدد أو تقبض عليهم لتأخذ اتاوة . قرية أوسا تتحكم فى الكثير من خطوط القرصنة ولتذهب طائراتكم العمودية وقواربكم التجارية السريعة ادراج الرياح . أن الحكومة تأخذ فقط ما يسمح للرجال الكبار بأن يعطوا ، أنه مكان صغير ولكنه اغنى مدن منطقة الشقوق المائية ، وتعرف كل الاماكن المجاورة من أين يحصلون على زبدهم لخبزهم السرى . لقد ساروا على نهج اوسا منذ تلك الايام التى كانوا فيها اتباعا لها .

- ولكنهم جميعا ينشقون أو يتفككون أليس كذلك ؟ سيتفككون ان آجلا أو عاجلا .

- لا اود أن ارى ذلك يحدث .

- ومن الذى يمنع وقوعه ؟ هل يمنعه جدك المتهالك الفانى .

- لايستطيع ولكننا نستطيع .

- وهل نريد نحن ذلك ؟ او هل نحاول ؟

- لاننا مشغولون للغاية ، رغم أننى لم اكتشف ماذا سنفعل ، وذلك هو السؤال الذى اطرحه على نفسى دائما .. ماذا سنفعل ؟ خلاف ان ندعم الرواد من رجال المستقبل ، ماذا يفعل رجال هم فى الواقع نواحون ؟ ألم تشعروا ابدا بأن كل حياتكم ربما كانت مجرد شق سطحى واسع تمر به كل مساوىء المغفلين ؟ ، أو انها مجرد ممر ، أو ربما وسيلة توصيل أو انه جسم متضخم تتحكم فيه ضمائر من وراءكم ؟

هز بنديلى كتفه استهزاء بما قيل وقال :

- لست موظفا مدنيا .

ـ ولكنك داخل ضمن النظام وتتواجد فيه وتعطى لجماعة الهتافين دفعات من عندك .

فسأل بانديلى :

ـ ألهذا السبب تجتذبك السلطة .

ـ ما أريده فقط هو أن اتحرر من مسطحات منطقة الشقوق المائية .

فقال كولا :

ـ تتحرر من ردتك الى عقيدتك .

ـ ماهذا ؟

ـ آه ، أتقصد الردة ؟ أن المرتد هو الوجه الذى لا أستطيع ان ارسمه حتى بصورة سيئة ، انت تعرف الحياد المطلق .

فى ذلك الوقت أحس احد البحارة بحركة فى المياه ، وقال بانزعاج شديد .

ـ المد يغير اتجاهه فى هذه الساعات المتأخرة من النهار .

ـ كيف يتغير ؟ اينحسر عن الشاطىء ؟

فأومأ الرجل برأسه قائلا : اجل .

وانبرى كولا يسأله سؤالا خبيثا :

ـ كم زوجة لديك ايها الرجل العجوز ؟

ولم ينتبه ايجبو الا بعد لحظات وانتبه بعدها ضاحكا وقال :

ـ اعترفت لكم انها مسألة سلطة ، وفكرت فى ذلك طويلا وبجدية شديدة ، فكرت : ليس فقط فى أن أملأ بيتى بالنساء بل فى أن يصبح منزلى مناسبا وقويا مدعما ، ولا أعرف كم يوجد فيه ولا اخجل ان اقول هذا .

ـ الأمر لا يستدعى خجلا .

ـ راودنى فى الاحلام ان اكون مالكا لمنزل اكبر منه عشرات المرات ، ورأيت تقاليد بلدى فى المستقبل ، رأيتها تحدث فى العالم كله تغييرا وتسوده .

ـ انت اول عبقرى فى هذا الجيل يعود بالعالم الى الوراء .

ـ على العكس ان تعدد الزوجات مفهوم عصرى للغاية ، لا انكر انه نظام مارسه الانسان قديما ولكن من الذى يفكر آنذاك فى أنه نظام تعدد الزوجات .

ـ أجل اجل ـ هل تنزل الى الشاطى ام لا ؟

وكأنه لم يسمع السؤال تابع كلامه قائلا :

ـ عندى زوجات حتى اننى احيانا حينما تغلبنى الموضوعية أشك فى أن لهذا حدودا سلبية ، فما هو الخيار ؟ اسأل نفسى هل هناك خيار بين برك الطين القبيحة التى توجد هنا فى منطقة الشقوق المائية وبين عش الغراب الذى ينبت فى مياه الصرف التى تلقى فى موانينا ؟ ما الفرق بينهما ؟ لايوجد فرق طبعا .

وتابع كلامه قائلا .

ـ ذلك هو الجواب ، خشيت أن أجد نفسى مستسلما لدوافع معينة ، وابدأ فى استصلاح مكان لى هنا ، لاننى اذهب احيانا الى ماهو ابعد من ذلك فاسأل من هو ابى ؟ ليس اكثر من افاق عظيم . وهذا لايفيد ايضا وحده ، فإن الافاق العظيم لايخرج عن كونه عبدا ذا صوت عال .

اشار بحار القارب الى الماء فان التيارات قد اصبحت واضحة والماء العكر يجرى فى خطوط مختلفة ويشهد جريان الماء محتكا بالاغصان المتدلية فى الماء . ونظر اليهم وهو يكاد يقول ان جنيات الماء سوف تحملكم بين أذرعها الى الاعماق البعيدة .

ونظر ايجبو الى الماء وقال :

ـ لم يحن الوقت بعد ، لن يبتلع الماء ايجبو آخر بهذه السرعة ، ياحوريات الأعماق ولكن بقى سؤال الاختيار دون اجابة ، ولم يفعل ايجبو شيئا على الأقل مما كان يريد ان يثبته .

ونظر ايجبو الى البحار وقال .

ـ وهو كذلك لنمضى فى طريقنا .

تبعه بانديلى :

ـ لم تخبرهم فى اى اتجاه يسيرون ؟

كان ايجبو يأمل ان يحمل عنه احد رفاقه مسئولية الاختيار ولكن يبدو ان بانديلى حينما قال ذلك كان مصراً أن يترك الأمر لصاحبه ، وبتركه الأمر هكذا قال ايجبو :

ـ مع التيار طبعا .

فانبرى كولا قائلا بتهكم :

ـ مثل المرتدين ، أليس كذلك ؟

أفاق ايجبو وعلى وجهه مسحه من غضب ، والاستياء من أن يدفن طلبه الذى اجهض أخيرا خاصة وأن الأمل مازال يداعبه ويعتبر بالنسبة له كالخلاص ، ونظر حوله فى أرجاء ذلك النادى الليلى يبحث عن شىء يشيع فيه الدفء بالطاقة التى استثارها ، ولم يجد سوى لاشونون المحامى

السياسى الذى كان دائما يقحم نفسه فى جلساتهم دون ان يتدخل او يشكو ، مما يلقون من حولهم من تفاخر ومبالغات . وكان يرقب ايجبو وهو يشد رباط عنقه الى رقبته ، وقد لعبت الجعة برأسه فتراءت له فتحتا الانف كأنهما فتحتا صنبور الحريق ، وحينما فتح ايجبو عينيه دهش حينما رأى لاشونون يلوح الى أحد معارفه عبر الساحة .

تجمعوا كما تجمع المطر ثم تفرقوا حينما نزلت رخة شديدة اغرقت منضدة ساجو برشة ماء غزيرة . فأمسك بانديلى باحدى أرجل المنضدة وقلبها على جانبها كى يجعل منها ستارا يقيه من الماء الذى تتصاعد قطراته الغزيرة اليهم ، اصابت ساجو رعشة برد مفاجئة وتغيرت نغمة صوت ديهينوا وهى تلتفت اليه بلهفة وتقول :

ـ انك ترتعد من البرد .

ووضعت يدها على جبهته لتتحسس حرارة الحمى ولكنه قال وهو ينظر اليها :

ـ انها مجرد رطوبة ، وأنا غير معتاد هذه الرطوبة .

ـ كاذب ، انها نزلة برد لانك كنت تسعل بالامس .

ونظرت للآخرين وقالت :

ـ لقد ذهب مرة اخرى الى شارع أبابا ، وانتم تعرفون لماذا فعل ذلك ؟ انه ذهب ليفحص السيارات القديمة

ـ غير صحيح ، انما اذهب هناك لابحث عن الزيت فى الحفر .

ـ ياله من أمر مضحك .

ـ انت تبحث عن الزيت المتسرب وسط الطريق ، هذا هو كل مايدفعك الى هناك

ـ ان ركوبك الدراجة فى ذلك الجو هو السبب فى انهم يعتبرونك شيوعيا وانت تعلم انك فى رأس القائمة السوداء .

ـ على الأقل انتظر أمرا يصدر بشىء

التفتت ديهينوا وهى غاضبة الى بانديلى وقالت :

ـ لقد عاد الى المنزل بصداع فى رأسه وانف منساب ، أليس كذلك

فغضب ساجو وقطب جبينه وسد اذنيه بكفيه ، وساد الصمت لفترة .

يسمع صوت الطبول خافتا تصدر انغام الساكس نشازا وهى تلمع فى الاضواء ، وتتضاءل الاصوات وتختفى تدريجيا لتترك الضجيج الخافت

المتصل ، وقد استهلك كولا كل المناشف الورقية التى انتزعها من خدم البار وانضم اليه سيكونى الآن فى البحث عن مكان آخر يكون رواد النادى الليلى قد نسوه فى الشاليهات التى تحيط بالساحة ، ثم أشار الى ركن بعيد ، فهز كولا رأسه قائلا :

ـ لن تجد مكانا لحبة فول هناك .

ثم أخذ يلوح بالمنشفة أملا فى أن يجتذب أحد خدم البار ، واخذ سيكونى منه القلم ورسم على ركن الورقة التى بيده شيئا يشبه البصلة .

ويئس كولا من استدعاء أحد الخدم فقد تجمعوا كلهم بجوار البار وعلت وجوههم جميعا مسحة من الضيق ، وكان اثنان منهم ملتصقين بالحائط لا يستطيعان الحركة لان المياه تنساب امام اقدامهم من فتحات السقف فنظر الى البصلة التى رسمها سيكونى ثم التفت الى ايجبو وقال :

ـ ماذا ستقول ؟

وفى هذا الجو الغائم سمعوا صوت أحد الدعامات تنكسر وانتظروا سقوط لوحة الزنك من السقف ، وكان الصوت قريبا وهم ينظرون بتوتر شديد الى سقوط السقف ، ولكن عينى سيكونى استطاعتا أن تلمح الشىء وقال بتهتهته المعهودة :

ـ انتهى الأمر .

وسمعوا فى نفس اللحظة صوت سقوط طوبة كبيرة وسط الماء المجتمع وتبعها صوت انهيار حائط بأكمله ، وهنا صاح ايجبوا قائلا :

ـ لقد ألقت السماء باحد اسنانها التى سقطت من فكها المتهالك وزادت لعثمة سيكونى وهو يقول بحروف مترددة متكررة :

ـ سوف يصبح سكان المنزل بلا مأوى الليلة ، عليهم أن ينتظرونا فقد نستطيع مساعدتهم .

وبدأ ساجو يصدر أصوات شخير رفيعة ، اما ايجبو فقد انفعل بالعاصفة ولاحت فى وجهه حركات غير طبيعية ، فهو الليلة مشدوه يتمتم لاعنا السماء ويقول رافعا كفه اليسرى متوسلا اليها :

ـ لم أطلب منك أن تشاركينى الليلة أحزانى .

ويتابع كولا رسومه ، ويقبع بانديلى فى الركن مسندا ظهره جيدا .

وبشىء كالسلاح السرى اخذ يتسلل الى رأس ايجبو التى يسمونها رأسا جامدة . وتذكر ذلك الوصف الذى كان يوصف به : طفل عنيد وذلك

حينما يغضب ويعاند فلا يجد حيلة . سمعهم يقولون انه عنيد . حينما انقذوه من الغرق وهو بكامل وعيه ، سمعها من كل الناس من الكبار ومن الشباب ومن الأجانب ومن حكماء القوم ، قالوها عنه "ذو دماغ ناشفة" وقالوا عنه أيضا ولد عنيد ، ولكنهم لم يصفوه بالاثنين معا ، وانتشلوا جثة ابيه المبشر وزوجته ابنة الملك بعد ساعات من ذلك ، ومنذ ذلك اليوم وهو ينتقل بين اسرة واخرى من أقاربه لان عمته التى كفلته لم تكن مستقرة فى مكان ، وكان وجهها لا يروقه ، وكان أول كفيل له من اقاربه مدرس ثم عادت عمته فجأة من داهومى وشب بينها وبين هذا المدرس شجار وألقت بزجاجة الحبر على رأسه ، ثم ذهبت به الى أوشوجبو الى زوجها التاجر هناك وسأل أيجبو الرجل حينما أخذه معه الى الدكان ليعمل :

ـ ان عمتى شريكتك فى التجارة ، فكيف تجعلنى عاملا فى دكانك ؟

وكان فى حياته ماهو اسوأ من ذلك ، حينما قال له ذلك التاجر : حينما يتحدث اليك الكبار فعليك ان تركع أمامهم . ورد ايجبو : اتقصد أن استلقى على بطنى . فقال غاضبا : نعم على بطنك ايها الشيطان الصغير ، وعاود ايجبو الرد على الرجل قائلا "لقد كان ابى قسيسا ولم يعلمنى أن اركع" فاستل الرجل سوطه وأخذ يضربه به وهو يقول "انك طفل صغير ويجب ان تتعلم بلسع السياط" . وبعد سنوات ذهبوا به الى مدرسة داخلية ولم يكن يعود الى منزل التاجر زوج عمته الا فى الاجازات ، وعاد فى احدى الاجازات فوجد الرجل جالسا على مقعده الوثير العريض فحياه وهو واقف واذا بالرجل يستل السوط من تحت المقعد ويوسع ايجبو جلدا ولسعا ، ولكن ايجبوا يرد عليه ردا عقلانيا ويقول "اذا كنت لا أسجد الا لله فلماذا اركع لك " اصيب الرجل بالخوف وتوقف من فوره عن الضرب وقال فى نفسه ربما كان الاله حاضرا الآن ووقف الى جانب ايجبوا ، فلابد أنه سينتقم . انتظر الرجل اياما طويلة : اسبوعا ثم اسبوعين واكملهم ثلاثة ولكن لم يحدث شىء ، فاعتبر الامر مجرد حديث طفل وعاود معاملته بالقسوة . وفى احدى الليالى اكتشف أن ايجبو غائب عن المنزل وعثروا عليه فى ادغال أوشون مستلقيا على الأرض واضعا اذنه قرب الماء وسألوه : "ماذا تفعل هنا ؟" فرد قائلا لقد كنت اصلى ، واوسعوه ضربا لانه يفعل مايفعله الوثنيون ، وقالوا له : "ان كل الاطفال المتعلمين يصلون فى الكنيسة" واضافت عمته قولها : "الصلاة فى دغل من ادغال الشيطان لا تكون الا للوثنيين" .

انتظر الرفاق أن يطلق المطر سراحهم ، وكل منهم فى واديه .

استدار ساجو وأخذ رأس دايهينوا بين يديه وأخذ يهمس فى اذنها قائلا :

- قولى لى بشرفك الا أبدو نقيا كالآخرين ؟

ولكن همسه كان مسموعا للجميع ، فسمع باندليى من خلفه يقول : "بالتأكيد" وايجبو يقول :

- "نقى كالسياسى فى مؤتمر صحفى "°

ونظرت . . يهينوا الى الآخرين وقالت : هذان الاثنان مازالا صاحبين . تقصد بهما كولا الذى كانت اصابعه قد اتسخت بأحبار الاقلام التى يرسم بها ، وسيكونى الذى كان يخرج الكلمات من حلقه كالحصى يرجم بها السماء ، وكانت تهتهة سيكونى هى الميزة التى تجعله خفيف الظل ، وتسبب الألم حينما يتكلم مخلصا ، ونظر سيكونى اليها وقال فى ثأثأته المعهودة :

- وووفى أأيام طفولتى .. كنت مولعا بابتلاع الزلط وهى الأأن تعود الى حلقى كلما تكلمت فتكتم الكلمات وأوأتلعلثم .

وكانت اللعثمة الحلقية هذه تصل الى اقصى مداها حينما يكون سيكونى منفعلا وتكون انفعالاته اقوى حينما يحكى قصتها للمستمعين لانها كانت تؤخذ منه ببساطة وكان الجهد الذى يبذله يتركه كطفل فيعتبر كل شذوذ أو غموض منه امرا عاديا ويقبل على علاته ، فإذا وصله خبر ذلك فإنه يواجهه بغضب شديد .

وظل ساجو غامزا عينه ثم فتحها وهو يتحرك برأسه حركه فاحصة ناظرا الى ديهينوا غير عابىء بعبوسها وقال :

- بالله عليك ابقى ساكنة لاتتحركى .

فإن شيئا ما قد دفع رقبته الى التحرك واخيرا توقف عند وجه ايجبو وظل يحدق فيه عن قرب وايجبو يرقبه بشغف ثم شجعه بعبارة ساذجة :

- هل وجدت ما تريد ؟

فهز ساجو رأسه قائلا : ما اشد الضياع »

ولم يلتفت أحد إلى تصرفات ساجو المنبعثة من سكره الا ديهينوا التى قالت له :

- ما هو الضياع ؟

وبصعوبة شديدة ادركوا ما يريده ساجو حينما قال :

- أترون وجه ايجبو فى لونه اللازوردى ؟

وكان مصباح حوض السمك قد عكس ضوءه على وجه ايجبو وانعكس

على وجه لاسونون ايضا ، وبدا كأنه ضوء صادر من لحم شهى ، وكان قد شد اعصابه وبدا ذلك على وجهه وخديه وهو يحاول ان يقاوم المجهودات التى يبذلها كولا لينتزع الضحكة منه ، وعاودت ديهينوا سؤالها بإصرار :

ـ ولكن ماذا يكون الضياع ؟

ـ انك داخلى ياديهينوا ، يجب ان يكون كلانا زوجا من العشاق ، رغم انف المتآمرين والحاقدين ، هل يستطيعون ان يفعلوا مثلما يفعل ؟ هؤلاء السكارى الخمسة الغارقون فى سكرهم .

ولم تستطع ديهينوا ان ترد على هذه المعاكسة اذ داهمها ساجو ولفها فى الشال وأخذها بين ذراعيه فلم تستطع التحرك . وحرك بانديلى رأسه لينظر من وراء احد الاعمدة ويرقب المنظر .

ـ لم يتوقف بعد

ـ تقصد المطر ... لا لم يتوقف .

ضحك سيكونى ضحكة قصيرة وعاوده تراجعه المعتاد ، وتوقف كولا لينظر الى اعلى ولم يبد أية ملاحظة كما لو لم يكن هناك شىء يستدعى الضحك وعاد الى عمله . وليس من شك فى ان هناك حادثة مفقودة فإن سيكونى قد لايضحك فى نفس لحظة الحدث مغالبا مايظهر رد فعله على الحدث بعد تنبيه ، فاذا كان فى صحبة اغراب فانهم قد يتعجبون بسبب بروده وجموده ، ولكنه اعتاد ان يستعيد ذكرى الحدث او الموقف ثم يضحك ضحكة قصيرة بينه وبين نفسه .

ولكن السمكة بدأت تلعب لعبتها خارج الماء حيث لمحت فجأة من بين الصخور شيئا غير مرئى يتابعها او يداعبها ، ولوسونون يراقبها ويتحول الى انسان عاطفى ويشير باصبعه محذرا ويقول :

ـ نحن البشر مثل هذا تماما نعيش دوما فى مصيدة محبوسين فى طرقات مكتوب عليها اين المفر .

وحاول سيكونى ان يقذف بحصوات من حلقه ليقول شيئا ولكنه لم يستطع فهز رأسه مشفقا رافضا ، وامسك ايجبو ببساطة برباط عنق لاسونون واحنى رأسه الى الامام وقال له فى وجهه :

ـ الله يجازيك .

وجلس ساجو اخيرا وحينما وجد خادم البار قال له :

ـ واحد براندى ليزيل عنى رعشة الملاريا .

ـ لايمكن ذلك فانك ثمل بالفعل .

ـ انت امرأة وحيدة وسط الجمع عليك أن تسكتى ، يجب الا يسمع صوتك ابدا وسط مجموعة الرجال .
ـ الا ترى انك سكران بالفعل ؟
ـ لا ، أنا مازلت اشعر بالاحباط ، لم اشعشع بعد ، وتلك الفرقة الموسيقية الحقيرة هى السبب ، قد اصابونى بالاحباط فى اللحظة التى بدأوا فيها العزف ، وكذلك التحول من الحياة النشطة الى هذا المطر الذى أفسد كل شىء وطال أمده ، ونغمة المطر معقدة ولااستطيع ان اسايرها ، وانتم ايضا تبعثون على الملل .
ـ انك تتحدث كثيرا .
ـ انت بالذات لاتتكلمى كما قلت لك ، وعلى أية حال انا لااريد ان اهبط مثلما هبط الاخرون ، انظرى اليهم ، واذا لم يكن الشيخ مكتوما بحصوات حلقه لتكلم هو الاخر .
ـ الان انت مشعشع جدا قرّب كتفك منى .
ومالت ديهينوا عليه واسندت رأسها على كتفه ، وبدأت تغفو ، فنظر ساجو حوله وكان يخشى ان يتركه الجمع وحيدا مع سيكونى ، ودفع ايجبو من تحت المائدة كما لو ان الامر صدفة ، ولكن ايجبو ابعد رجليه واختلس نظرة الى بانديلى فوجده يتفحصه من تحت منظاره بعينين نصف مغلقتين ، فقال له بانديلى :
ـ لايهمك ، فاننى لست بنائم .
ومال ساجو على المنضدة وقال بصوت منخفض :
ـ لقد زاد من احباطى وانا حزين بما فيه الكفاية .
ـ ماذا بك ياساجو .
ابتسم ساجو وقال :
ـ لن تصدق ، انه رئيسنا الميت السير درينولا ، لم افكر ابدا فى اننى ساذرف دمعة واحدة عليه .
ـ تقصد القاضى السابق ؟
ـ نعم هو ، كان المحامون يسمونه مورجو ، كان شخصا سوياحتى سمح للسياسيين بأن يشتروه ، انه شىء مضحك ولكننى كنت احتقره اثناء حياته .
ـ حقا

ثم تابع حديثه بصوت منخفض :

ـ ان حال الشيخ تحزننى ، انها رقته التى تستثيرنى ، ولااعرف ماذا افعل .. انه مثل الشخص المعوق الذى يخرج من سيارة ولاتعرف كيف تساعده ، هل تسنده بيديك او تتركه لشأنه وتقتصر على فتح باب السيارة فقط ؟ او تخرج عكازيه وتنتظره بهما ؟ .. انك تعرف طبعا ماذا اقصد ، لماذا هو صلب الرأس عنيد هكذا ؟ انا لااستطيع ان احتمل ذلك على طول الخط .

ـ لاعليك ، لتصرف انتباهك عنه ولاتهتم .

ـ ربما سهل عليك ان تقول ذلك ، ولكن الامر مختلف بالنسبة لى ، فأحيانا حينما اقاطعه وهو يتحدث وأجد انه يجاهد من اعماقه اشعر بأننى ضربته ضربة قاضية ، وأنت تفهم مااقصد ضربته فقط ولكنى لم أقض عليه تماما . كيف يتعامل معه صديقنا كولا .

ـ يحافظ كولا على ان يبعده عما يثيره ويسبب له الانفعال .

سمع كولا ذلك الحديث ولاول مرة فكر فى موقفه من سيكونى (الشيخ) ورأى أن ماقالوه ليس صحيحا ، وواصل حديثه قائلا :

ـ ولكن قل لى ما الذى بين سيكونى والقبة ؟

نظر بانديلى الى حيث يجلس سيكونى ووجد ان سيكونى لم يكن منصتا الى حديثهم ، وقال :

ـ دعك من هذا الان ، سيشرح لك كولا الامر فيما بعد .

لم يستطع الا القليلون ان يتخذوا موقفا سلبيا من سيكونى خاصة ان حالته كانت تحتاج الى وقت طويل ليفهمها الاصدقاء .

جاءت فرقة موسيقية اخرى واخذت مكانها على المنصة ، انها فرقة ابالا التى اخذ افرادها يضبطون اوتارهم ، لم تكن فرقة رسمية ، ولكن افرادها اعتادوا ان يتسولوا فى مطاعم اوربا يلتمسون التبرعات ، لقد كانت مجموعة طوافة تعيش على الصدقات ، وكان مجال نشاطها الشوارع والاسواق بل وبعض المكاتب الخاصة حيث استطاعت ان تحقق ارباحا من الاحتفالات الخاصة بسبوع المواليد ، وكان افرادها من الصفاقة بحيث اعتادوا فرض انفسهم على الحفلات وفى بعض النوادى الليلية ، بدأت باقحام انغام الاتها وطبولها فى حفلات الكوكتيل وفى النوادى الليلية ثم صنعوا من

مجموعتهم فرقة حافظت على سيرتها فى اقحام نفسها دون ان يطلبها احد ، واخذوا يستعدون للعزف فيضبطون اوتارهم ويجربون طبولهم ، ولايخجلون من اقحام انفسهم فى هذا المكان .

عندئذ خرج مدير النادى الليلى وصاح فيهم وقال :

ـ من الذى سمح لهؤلاء الناس بالدخول ؟

ولكن كان ذلك الصياح والاحتجاج ليختبر رد فعل الحاضرين وبالأخص من عملائه ورواد ناديه الاغنياء الذين صاحوا فيه ان يسكت ويتركهم يعزفون . وافاق ايجبو تماما وبدأ ينتبه الى ماحوله وقال :

ـ سعاة مابعد المطر .

ونظر اليه كولا وقال :

ـ ماهذا الذى تقوله ؟

وعاد خدم البار الى نشاطهم واستطاع كولا ان يحصل منهم على بعض المناديل الورقية ، وسمع صوت ساجو يتأوه ويقول :

ـ يجب ان استلقى على بطنى ، قد لاتصدقونى ، ان هذه الطبول تسبب لى المغص .

بادرته ديهينوا قائلة :

ـ آه منك ياساجو .

ـ ولكن هذا حقيقى ، الاهتزازات تؤثر فىّ ، ولن استلقى فعلا كما قلت ، الموسيقى جيدة ولكن معدتى لاتهضمها .

ـ انك تبالغ كثيرا فى كل الامور ، وانا اعجب كيف قضيت طفولتك .

وصاح ايجبو فيهما :

ـ اسكتا تماما .

وعاودته ذكريات الماضى البعيد يستخرج من وسط غرائبها حينما كان الناس يعزفون الموسيقى استدرارا للمطر ، لم تكن كالموسيقى التى تسمع حاليا بطيئة تحاصر الانسان فى مثل ذلك الجو الكئيب ويستمع اليها الناس رغما عنهم ولكنهم يستسلمون لها ، وفجأة ضاعت منه تلك الذكريات حينما بدأ سيكونى يكافح بحلقه ليتكلم ، وقد بدأ عليه الاسى رغم انه لم ينطق بكلمة واحدة وانتظر ايجبو صابرا ليسمع ماسوف يقول .. واخيرا نطق سيكونى :

- خ خ خ خراب

· وخرجت منه الكلمة كالقذيفة او كانفجار اطار سيارة وتابع الكلام قائلا :

- أأأن تكون خ خ خ خائفا من الـ خ خ خير ، اذا خ خ خاف الانسان الذكى م م من الـ خ خ خير أو الـ ج ج جمال فهو ج ج جبن .

- الا تتركنا نستمع الى هذه الاعاجيب قبل ان نتشاجر ؟

وأخذ ايجبو من يد كولا الورقة وبها رسم بشع واخذ ينظر اليه نظرة فاحصة فقال له كولا ببساطة :

- لقد كنت ضائقا بها حينما رسمته .

قال ذلك وكأن هذا القول كان يكفى لتفسير شكل رقبتها المتورم وحبس قدميها فى فردة حذاء واحدة كبيرة تشبه منقار البطة . وفى نفس الوقت ظهرت الراقصة وحيدة فى ساحة الرقص ، ولم يلاحظ احد منهم سوى كولا وسيكونى انها قد نزلت الى المرقص الخالى . لم يكن معها رفيق يراقصها ، بل كانت مكتفية بنفسها تقف فى أى مكان وتتحرك فى اى مكان فالساحة ملك لها وحدها وكأنها قد طردت جميع من حولها ، فأخذت تفيض بحركاتها البطيئة مع الاغنية والايقاع الصادر من رخات المطر ، وغيرت الفرقة النغم كى تشدها مع ايقاع سحرى جديد .

الجميع يرقبونها وقد اندمجت فى الرقص والقت برأسها الى الخلف واختلطت خطواتها بكل ما القت به الريح من اوراق الاشجار وقشور نبات الموز وغيره من قشور واوراق النباتات المدارية التى تغطى ارضية ساحة الرقص المستديرة ، والمطر يسقط من حولها يعكس الاضواء الملونة التى تتلألأ فى قطراته اللامعة التى تنساب من جميع جوانب المظلة الكبيرة التى تغطى ساحة الرقص ، والرياح تغير اتجاهها من وقت لآخر فتظهر معها لألأة الاضواء المنعكسة وترشها ببعض المياه ، ونزل الطبال الى الساحة يدق لها دقات مباشرة تتراقص معها اجزاء جسمها ، ويتابعها حينما تتحرك فى ارجاء المرقص ، ولكن وجه طبلته ابتل بالماء فاسرع خارجا ليجففه حرصا على قوامه ، ولكن دقاته لم تنقطع عن متابعة حركاتها .

وامتدت يد نحيلة وطويلة من خلال الظلام ، كانت يد بانديلى وسحبت الورقة التى فى يد لاسونون الذى كان يهم بالقائها على الارض المبللة ، لكن ايجبو بادره قائلا :

- كنت اود ان تتركه يلقيها .

واتبعه لاسونون قائلا :
ـ ان مكانها هو بركة الطين .
ـ ذلك هو مكانك انت لامكان الورقة .
هنا اشترك ساجو فى الحديث :
ـ مهلا اتركوا المحامى يعبر عن رأيه بحرية .
ـ فرد عليه ايجبو :
ـ لايهمنى ذلك ، ولكنه كانّ ابعد عن ذلك ، كان يعبر عن مشاعر لا عن رأيه وضحك بانديلى وقال :
ـ ابتعدوا عن لوسونون .
واضاف ساجو قوله :
ـ اتركوه وشأنه ، فالرجل لايقوى عليكم .
واعطى بانديلى الورقة لايجبو الذى قال :
ـ تماما مثل ماقال الشيخ ، الامر كما قلت تماما ، والآن دعونا نستمع الى هذه الفرقة .
ـ ولكن ما الخطأ فى الرسم ؟
ـ لو تغاضينا عن تضخم الرقبة نجد انك قد البستها فى قدمها قاربا غير مناسب .
ـ لماذا هو غير مناسب ؟ انظر الى ساحة الرقص ، ألا تراها ترقص فى مستنقع الماء .
والقى ايجبو الرسم فى اشمئزاز وقال :
ـ يجب ان تعالج رأسك .
واعادته الاغنية ، وصيحة صاحبتها ، والاسطورة الى تداعياته . وعاود النظر إلى الراقصة وهو مسندا ظهره الى الحائط غارقا مع نفسه وفى غمرته مع نفسه تداخلت امام ناظريه الصورة الأولى التى رسمها كولا كاللوحة الشفافة وضعها فوق الراقصة وقال :
ـ انها صورة شديدة الزحام فالمرأة تهتز كلها وليس ردفا ردفا .
وظلت وحدها فى الساحة وقدميها فى الماء وبإزارها المخطط بخطوط لامعة تشبه زخارف الرياش العتيقة التى تعرف فى لغة الايبوباسم « اوليبى » وتتطاير اطراف الازار من حولها ، واطلق عليها ايجبو اسم اوليبى وترددت كلمة اوليبى مرات حتى سمعتها ديهينوا فصاحت قائلة :

ـ هى كذلك ، كنت احاول ان اتذكر اسم هذا التصميم .

ولكن ايجبو لم يسمع صياحها لانه كان مشغولا يحاول ان يرى من خلال ثوبها تفاصيل اجزاء جسدها وما به من بروزات امامية وخلفية تختفى تحت الثوب ويتصورها عارية تحيط نهديها بدوائر فضية ، وحول فخذيها شرائط من خرز ملون ، وفى ليال مثل هذه دقت فى اذنيه اصوات الشخاليل والطبول الرنانة وتراءت له النساء جميعا حتى كبار السن منهن يرفعن ارجلهن نحو السماء يلتمسن المطر ، ودارت الراقصة وادارت رأسها فلمح حاجبيها يتلونان بلون قوس قزح ، واصبحت بروزاتها واخاديدها واضحة لناظريه فى عريها . همس قائلا :

ـ مثل النهر جرى الى الحقل فتضحمت نباتات اليام والبطاطا .

واغمض ايجبو عينيه ، وسد بذلك فروع المجرى المائى وشطأنه الرطبة التى كان يسند عليها ظهره وعاود كولا الكلام مدافعا عن نفسه :

ـ ليست هذه كلها امطار ، انه عرق متصبب ، واغلبه عرق متصبب انها تعمل بجد بعضلاتها ، أم تعتقد ان حركاتها كلها تتم بالتحكم الذاتى ؟

وحدق بانديلى ثانية الى الاصل فبادره كولا قائلا :

ـ ذلك الضوء ضوء مضلل ، اعترف بان الوجه فيه سماحة ولكن مازالت ..

فقاطعه ايجبو قائلا :

ـ مازالت ، مازالت .. ان الامر قد جاوز حد الفهم ، انه تسام فى دوامة رأس الاله البعيد : ان فتاة سانجو حينما أصابها المس قد نامت فى السرير بعد ممارسة الحب وقد بقى ودام كما هو ، فهل مازال هناك شىء باق من مركز الحب العميق المتسع ؟

وشارك سيكونى فى الحديث :

ـ أأأ فعل ماش ش ش شئت ، انها ج ج ج جميلة

علق ... ايجبو على ذلك بقوله :

ـ هل هذا هو ماستطعت ان تقول ؟

ثم تابع كلامه مع كولا :

ـ ان امامك الجمال الاسود المتسامى وكل ماتقوله

فنظر كولا من خلال انفه الى الصورة وعدل شكل المرأة ، وتناول ايجبو

الرسم ليعيد تفحصه لحظات ثم قال وقد علا وجهه الاسى :
- احيانا اريد ان اقتلك أيها الافاق الملحد .
رمى كولا قلمه على المنضدة وقال :
- على اى شىء تعترض الان ؟
- اين التلال السوداء ، واين الاماكن الغائرة من الجسم ؟ حسنا ، اين ذلك كله ، من ذلك كله رسمت فصى برتقال على صدرها .

كانت ملاحظة فى محلها ، فحتى فصى البرتقال فى هذه الورقة كانا مرسومين بعيدا عن الجسم .
- انظر ياأخى ، بدلا من ذلك كله خذ القلم وارسم بنفسك ان شئت ، وكان الغم قد بدا على وجه ايجبو وهو يرد عليه :
- انا لااعرف الرسم ، لا استطيع ان ارسم ولهذا السبب فانك تستحق الغرق .
وتدخل لاسونون فى الحديث :
- لااعرف ماذا تفعل البرتقالتان هناك ، ولكن على الاقل هما تتقدمان الان .
واشترك ساجو فى الحديث :
- ذلك مايبينه السؤال .
كاد لاسونون يفقد اعصابه وقال :
- لاداعى لمثل هذه السخرية ، وماذا نعرف عن الموضوع لندخل فيه ؟
- يكفى ان نرى ايجبو يتوق الى ان يأخذ اصل الصورة الى فراشه فقال لوسونون وهو يهز رأسه يمينا ويسارا :
- يأخذ هذه ؟. يأخذها معه الى فراشه ؟
فانبرى ايجبو قائلا :
- ولم لا ؟
- انها جد بدينة ، وهذا هو كل شىء ، ولكن لماذا اسمع ردفيها يرفرفان مثل البرتقالتين فى الصورة التى رسمها كولا .
رد عليه ايجبو :
- انك من ثعالب الغابة .
وثبت عينيه على ردفيها اللذين يتحركان بحرية وكان ساجو ينظر اليها هو الآخر ، ثم نظر اليه ايجبو وقال :
- انهما يذكرانى بجرمين سماويين يحلقان معا فى الفضاء ويسيران

جنبا الى جنب فى مدارهما وفى بعض الاحيان يقتربان حتى يتماسا ثم يتباعدان ثانية .

ـ لو ان امرأة بيضاء فى مثل هذا الحجم ولها مثل هذه الارداف لكانت مبتذلة قبيحة ، ولكن المرأة السوداء .. شىء اخر :

وكان تعليق لاسونون على ذلك :

ـ وهذا ايضا من تعميماتك التى لااساس لها .

ـ لا ، بل لها اساس فقد رأيت اللونين ، كل منهما على أرضيته واعرف تماما ما اتكلم عنه ، فهذه المرأة مثلا بدينة بسخاء ولكنها مقبولة انها تستخدم كل قطعة من لحمها بانوثة شديدة .

ـ ولكن هل تتصورها معك فى فراشك ؟

وصلت العبارة الى سمع ديهينوا وصاحت قائلة :

ـ جربنى اذا شئت .

كل ذلك وعينا ايجبو لم تبتعدا عن تأملها بلهفة وقال :

ـ اذا حدث ذلك فانى ادس رأسى فى صدرها واذناى مسدودتان بين قبتيها لااسمع شيئا ولاحتى نداءات السماء واذا سمعت نداءات الالهة فسأطلب اليها تأجيل الحديث معى .

علا الفزع وجه سيكونى حينما سمع كلام ايجبو وبدأ يعبر عن غضبه فى تهتهته قائلا :

ـ لللا ت ت ت تقل هذا ، إإإن المرأة ج ج ج جسم الدين فـ فـ فلا تقحمها فـ فـ فى هذا الجـ جدل .

قاطعه ساجو بعصبية :

ـ لاتكن جادا هكذا ايها الشيخ الورع .

وهنا اخذ سيكونى يهز رأسه من جانب الى جانب يحاول النطق بكلام دون جدوى ، وفى وسط صمت الانتظار قال بانديلى بصوت هادىء معاتبا ساجو :

ـ لقد تسببت فى موقف سيىء للغاية .

وانتظر الجميع حتى نطق سيكونى قائلا :

ـ هـ هـ هذا ك ك كفر .

ودون ان ينزل عينيه عن الراقصة رد ايجبو قائلا :

ـ لا ادرى لماذا تعتقدون اننى امزح ؟

.ونظر مرة اخرى الى صدرها نظرة فاحصة ، ليمتعه بحجم نهديها متمنيا ان يلقى برأسه على صدرها فى الحال ، ولكن ستار المطر المتساقط من طرف السقف ومن حول القبة المضروبة على ساحة الرقص حالت بينه وبين امنيته والتفت الى سيكونى وقال :

ـ لماذا تريد ان تحرمنا من الاستمتاع بنعم الاله علينا ؟

وبينما سيكونى يجاهد مع حلقومه ليرد عليه وقع نظره على الرسم ورأى لأول مرة ماالحدثه كولا من تغيير فى صورة المرأة وقرب الرسم من عينيه ونظر الى كولا وقال :

ـ لـ لـ لكنى لا لا اعرف أأأنك غـ غـ غيرت فـ فـ فى الرسم هـ هـ هكذا .

نظر اليه كولا باستغراب شديد وقال :

ـ لم نكن نتوقع منك هذا كله ايها الشيخ .

وقال له لاسونون باستغراب ايضا :

ـ اذن هل توافق على مسألة البرتقال ؟

فرد سيكونى :

ـ بـ بـ بـ برتقال .. او بـ بـ بطيخ .. لافرق ، فـ فـ فكلها قـ قـ قباب .. من الرطوبة و ك ك كلها انوثة .

وضحك ساجو وقال :

ـ انها ليست مسألة انوثة ، وذلك الذى فعله كولا فى الرسم شىء بشع فاسأله .

ـ لـ لـ لا .. ك ك ك كولا على حق .. عـ عـ على كل حال الحـ حـ حب والحياة ك ك كلها طرق تؤدى ـ اا الى قـ قـ قبة الكون ، وقـ قـ قباب الرطوبة تـ تـ تفاؤل ودنو من الا الانسانية ، ووما فعله كولا بصديقتنا هـ هـ هو نوع من الرموز الا الابداعية . تـ تـ تذكر ان المرأة هى قـ قـ قبة الحب .. هـ هـ هى قبة الدين ..

واعتاد سيكونى ذلك المهندس المؤهل ، ان يطل كل يوم على اسوار البحر اثناء رحلته الى منزله ، ونسمات البحر تبنى فى اعماق نفسه جسورا ومستشفيات ، والتضاريس الوعرة تمر من بين اصابعه متحدية الارادة البشرية فتسبب انحداراتها ارغام الماء على الاتجاه نحو القنوات المنخفضة لتذهب بها عبر الجبال نحو الشواطىء التى تمتد منذ الازل على

اطراف الغابة ، ويقبض اصابع يده ليتحسس القوة مؤكدا لنفسه ان قوة التغيير فى يد الانسان . وجلس يوما عند مجرى مائى طويل تحت شجرة عالية فى مكان مرتفع يقترب من السحب ونظر الى بعيد عبر تلك التضاريس الضخمة ، وكتل الصخور من حولها تمثل قطرات متساقطة من الازل ، واخذ يحدث نفسه : اذا لم يأت الجبل ، فلنذهب نحن الى الجبل بحق الاله ونبيه محمد ، وفتح يده ثانية لتتدفق منها القوة المحبوسة فى اصابعه فتنحت فى الكتلة الجبلية الضخمة قاطعة على امتداد الشقوق الطبيعية الموجودة به فتتفتح امامه الطرق وتستسلم كل تلك الضخامات امام طاقته العضوية التى تضع كل النماذج الهندسية تحت اقدامه ، فيأخذها سيكونى ويعيد ترتيبها كما يفعل بورق اللعب ويشكل منها صيغا سحرية لموانىء ومرافىء وارضية ممتدة ويرصف الطريق من اوله الى آخره . و فى الارض امتداد خط واحد يقطع مسافة ميل بناء على خريطة نظر اليها سيكونى نظرة الفاحص الخبير ثم ألقاها جانبا بعناية ثم اخذ ينفذ على الطبيعة امتداد الكابلات عبر الغابات والادغال مستوحيا من مسيرة الثعابين وغيرها من خيوط الغابة وموصلا اياها بين الاعمدة الى مركز التوليد الالكترونى الصاخب . ويندفع سيكونى نحو الممر يتلمس بيده الارواح الطبية من الكهرباء الاستاتيكية ، ولكنه ينزلق فيسقط امام مكتبه .. وصوت يقول له :

- هنا ، اجلس هنا ، واخبرنى اذا ماالحتجت لاى شىء ، وبجوارك جرس لتنادى به الساعى .

- خطابات للتوقيع ياسيدى .

- ارجو الاطلاع على طلبات الاجازات لوضع جدول الاجازات .

- ملف سُلف العمال لشراء الدراجات . وملف بدل الدراجة للعمال .

- سيدى مطلوب منك اشتراك شاى الصباح .

- دعوة لحضور لجنة فحص طلبات التوظيف لكتاب الدرجة الثالثة .

- لاتنس اجتماع المجلس فانك عضو بحكم الوظيفة .

واخذ الكيل يطفح تدريجيا اثناء الاجتماع ، وخرج سيكونى فى احاديثه عن جدول الأعمال المعد للجلسة ، والجميع ينظرون اليه ولايصدقون وانبرى الرئيس قائلا :

- اتعلم يامستر سيكونى انك تخرج كثيرا عن الموضوع ؟

- اعلم تماما يا سسسيادة الرئيس اننى لااسسستطيع ان اظل اوقع

االذون صرف وخطابات وببدل دراجة وغير ..
واجه الرئيس الموقف بهدوء شديد تمرس عليه من طول خبرته ونظر اليه وقال :
- انتظر فى الخارج قليلا .
ودار الحديث بعد مغادرته قاعة الاجتماع :
- هل هو مجنون ؟
- لماذا نعين مثل هؤلاء الذين يعملون فى الوظائف ؟
واخرون اخذوا يسبون ويلعنون تصرفاته وتصلبه ، ولكن الرئيس هدأ من روعهم وقال :
- لا لا ، انه يريد ان ينتقل الى مكان آخر ، فانه موظف كفء ومخلص .
ونقل الى ايجوها حيث يستطيع ان يعمل بيديه كما قال له الرئيس ، وهناك انشأ محطة توليد كهرباء تجريبية ، وقال الرئيس فى اجتماع آخر :
- الم اقل لكم ، انا اعلم انه من رجالنا ، استدعوا لى الخبير الاجنبى .
وجاء الخواجة الانجليزى ودخل قاعة الاجتماع بلا اكتراث ووجه الرئيس له الكلام :
- لقد عيناك فى لجنة من فرد واحد لتقوم بالتحقيق فى انشاء محطة التوليد التى انشئت فى ايجوها بدون اعتمادات مقررة لها ولاموافقة سابقة
فقال من فوره وقبل ان يذهب لفحصها :
- من الخطر تشغيلها ، انها « زبالة » .
- تلك هى اسلم فكرة فلنضعها فى لغة فنية .
وذهب ذلك الخبير الاجنبى الى ايجوها والقى نظرة على المحطة ، ووضع تقريرا القى عليه الرئيس نظرة عابرة وقال :
- هذا الخبير لايخذلنى ابدا .
فلقد تضمن التقرير ان فى هذا العمل اهدارا للاموال ، وتضييع للاعتمادات . وانه وشديد الخطورة ومواده غير مناسبة للتشغيل ، ومن الخطر تشغيله . وكتب تعليقه على التقرير بوقف المهندس المسئول عن موقع ايجوها عن العمل ويودع التقرير فى ملفه السرى لحين اتخاذ الاجراءات القانونية ضده .
واستطاع هذا الرئيس الذى كان قد كون شركة مقاولات باسم ابن اخته البالغ من العمر شهرين ان يحصل على عقد من ادارة الكهرباء بازالة

المحطة وضمن بذلك بضعة آلاف قدم بها فواتير لم ينفذ منها شيئاً .
وخرج سيكونى من ادارة الكهرباء وهو يصيح :
- رززبالة .. رززبالة .. اى شىء هو رززبالة ؟
وخرجت جرائد اليوم التالى تحمل عنوان « اختفاء مهندس مجنون »
واختفى سيكونى فى شوارع ايبادان المزدحمة ثم اخذ يتجول وسط حوامل صور كولا الفنية ، وظل هكذا يتجول هائما على وجهه ينتظر اتخاذ القرار الذى يحدد مصيره فى اجتماع مجلس الادارة القادم ، وفى تجواله كان يسمع باذنيه ضجيج المحرك الذى اقامه ، وجمع به ملايين الاجزاء ليكون منها المحطة ، وتذكر كيف كان يجوب جميع المحطات التابعة له ليجمع منها قطع الغيار والاجزاء الملقاة ، وكيف كان يفحص اكوام السيارات والجرارات المهملة ليأخذ منها مايصلح لعمل المحطة ، تذكر سيكونى كل ذلك وهو ملىء بالدهشة :
- رززبالة كما سماها الرئيس .
وعاوده التفكير فى المدن الكبيرة التى مازالت الثلاجات فيها تدار بالغاز ، وتصور ايجوها وقد اضيئت جميعها بأضواء النيون ، ورئيس القرية يفخر بذلك ويشجع سيكونى على ان يقيم محطة تنقية المياه بعد الانتهاء من اقامة محطة توليد الكهرباء ، وتذكر وعد رئيس القرية بأن يمنحه ثلاث زوجات احداهن ابنته ، هذا كله والرئيس يسميه رززبالة جتى قبل ان يشعل فرن الطاقة .
وفى ايجوها كانت الحشائش قد نمت على الجدران وسط كتل الطوب الطينى الذى بنيت به المحطة ، ومالت حشائش الفيل الطويلة النامية وسط المبنى على لوحة ضبط واختبار الافران ، وسمع سيكونى من خلال ذلك السكون المخيم على المبنى المهجور صوت ضحكات بعض الاطفال ، ورآه الاطفال فجروا ، وعاد الصمت يخيم على المكان من جديد واخذ يتتبع وسط الحشائش الانابيب الممتدة والاسلاك الى ان وصل الى الجهاز الذى يغذى الفرن بالفحم ، واتجه الى حجرة التحكم وقد ركبت فيها اقفال جديدة بجانب اقفالها الاصلية ، وكتب على الحائط الذى طلى بطلاء ابيض : « احترس خطر » فى لغتين ، وبحث حوله عن قطعة حديد صلبة يكسر بها الاقفال ، وعثر على واحدة ملقاة على الأرض فانحنى ليلتقطها فسمع صوتا يقول له :

ـ آه ، انه انت ايها المهندس .
نظر حوله باحثا عن مركز الصوت فاذا برئيس القرية واقف امامه وجها لوجه
ـ هل افزعتك ؟ ان بعض الاطفال اتوا الىّ واخبرونى بان هناك شخصا غريبا فى المحطة ... لقد اطلقت ليحتك بعد ان تركت المكان .
ورفع سيكونى يده يتحسس لحيته التى نمت واستطالت دون أن يدرى ، وبدأ يفكر فيها كمشكلة جديدة هى انه لم يلاحظ نموها بهذه الصورة .
نظر اليه الزعيم بشىء من الريبة ، وادرك ان المهندس يريد أن يفعل شيئا لابد أنه يقرر الان . وقال له :
ـ لم تأت حتي لتحيينا تحية الوداع .
ـ أأأنا الان قد عدت .
ـ آه اجل ، هناك الكثير من الناس يتحدثون عنك .
ـ أأأتيت لاختبر المحطة .
وتشكك الزعيم فيما سمعه ونظر إليه بشىء من الريبة وهو يشير الى المحطة ، فأومأ له سيكونى موكدا ذلك بثقة كبيرة ثم نطق الزعيم قائلا :
ـ تريد ان تشغل هذا الشىء .
وأومأ سيكونى له برأسه مرة اخرى وقال :
ـ يقولون انها لللن تعمل وللكن هذا هراء .
وبدا على الزعيم الخوف بوضوح وقال :
ـ لايقولون انها لن تعمل فقط بل يقولون انها سوف تتفجر وتفجر معها القرية بأكملها .
فقال سيكونى وعروقه تكاد تنفجر على جانبى رأسه :
ـ لالا تصدقهم ، ااااذا تركونى اختبرها ...
وقاطعه الزعيم قبل ان يكمل كلامه :
ـ اذا اردت ان تختبرها ياصديقى فاخلعها واحملها معك واذهب الى قريتك لتجربها هناك ، ان الكهرباء شىء من اختصاص الحكومة كلنا نعلم ذلك ، وذلك الرجل الابيض اعلم بها ، وقد جاء هنا واخبرنا بذلك ، فان البيض يعرفون تماما مايقولون .
ـ كككذب ، لقد قالوا انها ززبالة قبل أن يروها ، بل لقد اتوا اااالى هنا بدون الخخخطط .

ـ استمع الى نصيحتى ياصديقى واذهب من هنا قبل ان يراك اناس اخرون .

لم يستطع سيكونى ان يصدق ماسمع وقال :

ـ ننتحن نحتاج الى خخخشب الحريق فقط ، اذا احضر كل ططططفل حفنة واحدة تتتكفى لانارة القرية .

ـ اذهب الى منزلك ياصديقى هذا افضل .

ـ ححححفنة واحدة يحملها كككل طفل سسستتغنى عن الفحم .

ـ شكرا جزيلا لقد كنا نستعمل مصابيح الزيت منذ زمن طويل ، وحينما تكون الحكومة مستعدة ستبنى لنا محطة مناسبة .

ـ فففففقط اختبار واحد وسسسسوف ترى بنفسك .

ـ تعال الان قبل ان يتجمع الناس .

ووضع الزعيم يده على كتف سيكونى ليجذبه ولكن سيكونى ضربه ضربة القت به بعيدا قرب الباب ، وصاح الزعيم طالبا النجدة وفر من المكان دون ان ينظر الى سيكونى الذى تناول قضيب الحديد وضرب به الاقفال فانكسرت وانفصلت عن الباب ، وحينما عاد الزعيم مع بعض الرجال وجدوا سيكونى قد وضع الشحم فى المحرك ، ونظر الى الزعيم وقال له :

ـ هل احضرت خشب الحريق ؟

ولكن كان الرد ان امر الزعيم رجال الشرطة الذين حضروا معه بأن يقبضوا على سيكونى بدون أية مقاومة ، وجاءت لجنة تحقيق اخرى لتتحقق من صلاحية المحطة ، وحينما اشتغلت المحطة كان سيكونى قد اودع مستشفى الامراض العقلية .

(٢)

بدأت المجموعة تغادر النادى قرب الفجر ، وكان أولهم ايجبو الذى وقف على قدميه وسار وراء الراقصة الوحيدة حينما غادرت فرقة الغناء ، ومنذ تلك اللحظة بدأ النقاش مع الراقصة فقال لها ساجو :

ـ ما رأيك فى موعد فى الخلاء ؟

ـ أنا ضائعة .

ـ وعلق ساجو قائلا :

ـ فى الخلاء بالتأكيد ، ماذا تقولين ياسكرتيرتى الصغيرة ؟

ـ ايجبو على الأقل شخص عاقل ، فقد حان وقت ذهابنا الى منازلنا .

ووقف بانديلى على قدميه وسأله ساجو :

ـ متى سنذهب الى ايبادان ؟

ـ بمجرد أن أصحو من نومى ، وربما أغادر قبل هذين الاثنين .

ـ أنا اشك فى ذلك فان الشيخ يريد أن يعود الى ايبادان مبكرا ، ولكن اذا غادرتما قبلى فيمكنه أن يعود بصحبتى .

ـ على أية حال اذا لم أرك قبل مغادرتى فعليك أن تعطى تعليماتك للخادم .

ـ أنك لن تعود ، مع السلامة ياديهينوا لاتتركيه يقود السيارة .

ـ لاعليك ، فانى لا أنوى الانتحار .

والقى ساجو بنصف ثقله على ديهينوا وقال :

ـ ماذا يقصدون ؟

وأخذت ديهينوا تجره عبر برك الماء حتى سيارته الصغيرة ، فقال لها :

ـ من فضلك اتجهى الى الشاطىء فانى أريد بعض هواء البحر المالح لينظف رأسى .

ـ كل شىء بالنسبة لك مرضى فانك رجل صحافة ، ولكن لاتنس أن علىّ أن أكون فى المكتب الساعة الثامنة صباحا .

ـ نعم ، فتاة عاملة ، لاتغترى بأنك فتاة عاملة .

وسارت بهم السيارة وهما فى صمت لمسافة طويلة ثم التفتت اليه رغم مايفوح منه من رائحة الجعة وقالت له بلهجة غاضبة :

ـ ماذا قصدت بما قلت لبانديلى ؟
كان سيجو يعرف جيدا عما تسأل ولكنه سألها :
ـ ماذا ؟
ـ قلت له : اذا لم تره هو والآخرين قبل أن يذهبوا .
ـ حسنا .. ماذا ؟
ـ هل يقيمون معك ؟
ـ لا لقد اعطيتهم شقتى .
ـ اتعرف ما الذى اتكلم عنه ؟
ـ ياصغيرتى العزيزة انا لا أعرف ما الذى تتكلمين عنه ونادته باسمه الأول بلهجة مستعطفة .
ـ بيودون : لتوقف الحديث فى هذا الموضوع ، لايمكننى أن أصحبك الى منزلى .
ـ لماذا تتشككين هكذا ، لقد طلبت منك أن تقودى بى السيارة الى الشاطىء فقط .
فادارت السيارة بسرعة الى الجانب الآخر بغضب وانتقام فوقع ساجو على جنبه وانفتح باب السيارة فقال لها :
ـ على رسلك ، اتريدين قتلى ، تقتليننى بسبب شكوكك .
ونام ساجو بعدها حتى وصلا الى الشاطىء ، وسقط من السيارة على الأرض بمجرد أن فتحت ديهينوا الباب معتقدة أنه سوف يخرج على قدميه ويسير . فاستيقظ وهو يتمتم بقوله : ـ
ـ رمال . هل الدنيا تمطر الآن رمال ؟
واخذت ديهينوا تنظر حولها وقد اصابتها رعشة من الهلع والخوف اللذين غمراها ، وكادت أذنها تجمع أصوات قطاع الطرق مع حركة الرياح التى تسمعها وبادرها ساجو قائلا :
ـ اين نحن ياديهين ؟
ـ على الشاطىء ... الشاطىء
ـ على الشاطىء فى هذه الساعة ؟
ـ لقد طلبت منى ان نأتى .
ـ احقا طلبت ذلك ؟ أمر غريب ، ماذا لو قام صديقنا ديرين الآن وخرج من البحر ، إلى أين أفر منه ؟

- لقد مات الرجل الا تستطيع أن تدعه وشأنه ؟
- اتقصدين اعتبره مات ؟ يجب أن نحترم الموتى .
- دعنا نذهب يابيودون .
- آه ، لقد اصيبت المرأة بالخوف من الاشباح .
- هيا يابيودون ، هيا نذهب .
- اياك أن تذكرى الصيادين هل تظنين أن أحدا سيهاجمنا ؟ انهم جميعا صيادون ، وعلى أية حال لست مثل ايجبو أو مثل بانديلى .
- كان عليك أن تفكر فى ذلك .
- كان على أن أفكر فى ذلك ؟
ثم اخذ يكررها ويرفع صوته عاليا ويقول :
- استمعوا ياجنيات البحر ، تقول صاحبتى كان على أن أفكر فى ذلك .
وقفت ديهينوا على قدميها ، ونظرت حولها بخوف ووجل وقالت :
- فلنذهب ..
- الآن قد سببت لك الخوف ، رغم اننى لا استطيع التفكير ، أنت محظوظة ، ماذا سيأخذون منك سوى ثروتك ، ولكنى قد افقد حياتى أو على الأقل افقد اذنا مثل تلك المرأة الدبلوماسية التى جاءت يوما الى هنا تمارس المجون .
- لقد كانت متواطئة معهم .
غير ساجو لهجته الى لهجة تهكمية ماجنة وقال :
- اريد منك بعض المجون ، لم تتحدثى معى ابدا بشىء من المجون .. كيف أعرف أنك لست متواطئة معهم أنت الأخرى ؟ .. على كل حال هل اعطيتنى ما اريد منك ؟ كنت دائما تتباعدين عنى وترفضيننى فلماذا ؟
عندئذ أمسكت ذراعه وحاولت أن تشده واقفا ، ولكنه تثاقل وأخذ يقول :
- وفوق ذلك لقد اخترت أن تأتى بى الى هنا فى وقت لا استطيع فيه أن ادافع عن نفسى أو اثبت رجولتى . أقصد والساعة الخامسة صباحا ، وحدنا على الشاطىء ، وسوف تذهبين الى فراشك وانت شديدة النشاط .
وأخيرا استطاعت أن تجره الى السيارة واغلقت الباب وأمنته وأخذت تقود السيارة بسرعة جنونية وهى مليئة بالخوف والهلع حتى رأت امامها اضواء الجسر الأول المؤدى للمدينة ، وأسند ساجو نفسه على عجلة

القيادة فابعدته عنها ، وبدأ الحديث من جديد :
ـ أريد أن أقول شيئا ، أتعرفين أن فرقة بالا تلك قد اصابتنى بالاحباط .
ـ ماعيبهم ؟
ـ فقط سببوا لى الاحباط ، فى الساعة الثالثة صباحا مع ذلك المطر الغزير ليس وقتا لمثل تلك الانغام التى عزفوها وأدت الى انقلاب معدتى .
ـ ابعدت ديهينوا يده مرة اخرى عن عجلة القيادة وواصل حديثه :
ـ هل كان ذلك مناسبا ؟ انت فتاة حساسة فاخبرينى هل هذا عدل ؟
ـ لا ياساجو .
ـ هل رأيت ما أقصد ؟ وذلك هو السبب الذى جعلنى أشرب كثيرا ، وهنا غلبه النعاس وظل نائما حتى دخلت السيارة فى شارع ملىء بالمطبات فصحا من نومه قائلا :
ـ على رسلك ، ماذا تفعلين ؟
ـ وهل أنا الذى رصفت الطريق ؟
ـ انك تهزيننى مثلما يخض اللبن .
ـ اقفل الزجاج ، فانك ترتعد ثانية من البرد .
ـ كان علىّ ألا أغير مشروبى واستمر مع الجعة ، فقد أدى ما شربته من الويسكى إلى حرق كل زنوجتى .
وهنا دخلت السيارة فى مطب آخر أدى الى اصطدام رأسه بالسقف فقال .
ـ هل انت متأكدة اننا على الطريق ؟
ـ لقد قاربنا الوصول الى مقصدنا .
وأوقفت ديهينوا السيارة فجأة وقالت :
ـ لقد وصلنا المنزل .
واستلقى ساجو على مقعد السيارة ومد رجليه الى الامام وقال :
ـ أى منزل ؟
ـ منزلك طبعا .
ـ أنا لن انزل عند منزلى .
ـ بيودون ارجوك ، قدر الموقف ، لايمكنك الذهاب معى الى شقتى .
ـ وشقتى مليئة بالزوار ، عندى ثلاثة اصدقاء ، فى أى مكان تتوقعين أن ننام .

ـ لماذا لم يذهب واحد منهم مع لوسونون

ـ اين يذهبون ... الى منزل لوسونون ؟ مع زوجته وطفليه ؟ ولو فرضنا أنه قبل ذلك فمن ذا الذى يحتمل زوجته التى أتى بها من الأدغال ؟ كما أن ايجبو أخذ معه تلك السيدة الى منزله ، انها تحتاج وحدها الى سريرين كبيرين .

ـ لا يابيودون يجب أن تنزل هنا .

ـ اذا كان الأمر كذلك فلا تغضبى من النتائج ، وانت تعلمين أنه ليس بينى وبينك أى أمور مسبقة .

وبدأ ساجو يرتعد مرة أخرى فنظرت اليه ديهينوا وجست جبهته وقالت :

ـ ألم أقل لك انك مريض ؟

ـ لا لا لست مريضا ولكنها رطوبة الجو كما تعرفين .

وواصلت ديهينوا بالسيارة مسرعة نحو منزلها وقال لها وهى تتخطى مطبات الطريق مسرعة :

ـ انك تسببين اهتزاز حلمتى اذنى .

وراح فى سبات عميق ثانية الى أن أخذت ديهينوا تهزه لتوقظه وتقول :

ـ ها قد وصلنا ، الجراج قريب ، انزل هنا واصعد الى شقتى وسوف اضع السيارة وألحق بك مباشرة .

خرج ساجو من السيارة متهالكا وسقط مستندا على جانب السيارة ، فاسرعت ديهينوا ونزلت اليه تسنده وتقول :

ـ من الأفضل أن اساعدك للصعود الى شقتى .

ـ لا لا داعى ، استطيع أن امشى .

ـ هل انت متأكد ؟

ـ طبعا ، رغم أن شيئا قد حدث فى اذنى يفقدنى التوازن الا ترين اننى غارق الى أذنى فى السكر ، اتفهمين ما أقصد ؟ انى أرى حلمتى اذنى .

وافقته على كلامه وقالت :

ـ كل انسان يولد بهما ، وعليك أن تبحث عنهما لتراهما ، يجب أن تعرفهما حينما تصبح ماهرا فى الشرب ، وعندئذ تعرف انهما موجودتان .. وهذا يؤكد وجودك .. انها مسألة اعتقاد ..

وساعدته حتى وصل الى أول السلم فقال لها :

ـ لاتسنديني هكذا ، انا استطيع السير .

ـ وهو كذلك ، سأعود سريعا .

وجرت نحو السيارة لتضعها فى مكان الانتظار ، واخذ ساجو يصعد الدرج ببطء شديد وهو يترنح ، وبصعوبة فتح الباب ، ووقف لحظة حيث لمح على المقعد شبحا أسود جالسا وقال له :

ـ متأسف ، يبدو اننى فتحت هذا الباب خطأ .

وجرى الى اسفل الدرج حيث اصطدم بصديقته التى قالت له :

ـ ماذا هناك ؟

ـ لقد فتحت بابا آخر خطأ .

ـ انك فعلا تحاول ، طبعا انت تعرف باب شقتى الآن .

وصمتت لحظة وقالت :

ـ لكنك قلت انك فتحت الباب .

فاعطاها المفتاح وقال :

ـ اذهبى وانظرى بنفسك ، هناك شبح اسود على المقعد واعتقد اننى لمحت اشباح اشخاص آخرين ، ووقفت لحظة ثم احسست بشىء يدفعنى الى الجرى فجريت .

ـ ان حالتك سيئة للغاية ؟

ولما وصلا الى الباب سألته :

ـ هل انت متأكد انك فتحت هذا الباب ؟

ـ نعم هو هذا الباب ، انهم بالداخل كالعفاريت ، كالخفافيش المسحورة .

ـ اوقف هذه الرعدة ولاتخف ؟

ـ لم اتبين حقيقتهم حينما رأيتهم ، ولكن الشخص الذى رأيته على المقعد كان واضحا بما فيه الكفاية ويبدو انه امرأة .

وقفت ديهينوا والمفتاح فى يدها وأخذت تفكر وتقول :

ـ امرأة ؟ هل انت متأكد انها امرأة ؟

لقد لاحت لى فى لحظة انها امرأة ، ثم رأيتها وكان لها أجنحة وأذنان مثل أذنى الفأر ، وخاصة الآخرين الذين لمحتهم فى الظلام ، تراءى لى المكان وكأنه كهف قديم .

ـ ربما تكون أمى قد حضرت مع بعض اقاربى ، هل أنت متأكد ؟ ، يا الهى إنها مشكلة .

وبمجرد آن فتحت الباب وقف ذلك الشبح على اقدامه بملفحة سوداء على كتفه ومنديل مربوط على رأسه ، فسقط ساجو على الأرض من هول المفاجأة فاظلمت الدنيا تماما فى عينيه وراح فى اغماءة قصيرة سمع خلالها صوتا يقول :

ـ هكذا ياديهينوا ، هل هذا مايفعله أهل لاجوس ؟ وهل هذا وقت مناسب تعود فيه فتاة محترمة الى منزلها ؟

ردت ديهينوا قائلة :

ـ مرحبا ماما .. آه وخالتى ايضا هنا .. آسفة جدا ، هل انتظرتما طويلا .

ـ ما حكاية ذلك الرجل :

وكان ساجو يرتعد ويقول :

ـ لاتدعيهم يلمسوننى .. لاتدعيهم يلمسوننى .

وقبل ان يلمسوه فقد الوعى تماما .

اعتادت ديهينوا ذلك اللوم من أمها وردت عليها قائلة :

ـ انه ثمل .

ـ سكران ، سكران ، ولكن اتحضرين هكذا شخصا سكيرا معك الى المنزل هل تثقين فى نفسك أو تحترمين نفسك وانت مع امثال هؤلاء الرجال ؟

وراحت ديهينوا تفكر ، لو حدث هذا فى وقت آخر لتلقت صفعات من أمها ؟ واخذت تفكر أيضا كيف دخلوا الى الشقة ؟ ثم ادركت بسرعة ان امها تعرف مكان حجرات الخدم ، ولابد أنها استدعت الخادم ليفتح لها الباب مثلما فعلت فى مرات سابقة ، وواصلت ديهينوا تفكيرها فى سبب مجيئها ووصولهما فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، واسلمها فكرها الى حدوث كارثة أو حادثة ، وتذكرت أن جدها مريض فى المستشفى ، ونظرت لامها وقالت :

ـ ماذا هناك ياأمى ، هل حدث شىء ؟

جلست الأم على المقعد ، وطلبت منها الشاى ، ولكنها قبل أن تعد الشاى اخذت ساجو الى حجرة النوم مغشيا عليه أو نائما لا تعرف وعاودها التفكير فى أن أمها لم تأتِ وحدها هذه المرة ، ربما حدث شىء لاحدى خالاتها أو أبناء خالاتها مما جعلهما يحضران فجأة الى لاجوس . وتحدثت اليها خالتها قائلة :

- اسمعى ياديهينوا ، اقول لك هذا لمصلحتك يابنتى ، ان كل ماتقوله امك انما هو لمصلحتك ، واحمدى الله أن هناك من يدلك على الخطأ والصواب ، فانك بذلك محظوظة .

واعدت الشاى وطلبت الخالة بعض الخبز والسردين وقالت :

- لم يكن لدى وقت للأكل كما ترين ، فهل انزل عند أحد بناتى أو ابنائى لتناول الطعام ؟ يبدو أنه من الافضل الا أفعل ، وانت ترين ان مايغضب والدتك يغضبنى أنا ايضا ، فاننى اعتبرك مثل ابنائى تماما .. اذا لم يكن عندك سردين فاعطنى بعض العصيدة .

واخذت الخالة تحتسى الشاى الساخن وقالت :

- المسألة أن امك رأت حلما مزعجا يتعلق بك .

وكان الغضب باديا على امها التى تبلل وجهها بالعرق .وغمست الخالة الخبز فى طبق به بعض الشطة وهى تقول :

- كانت امك قلقة جدا عليك ، واسرعت فأخذت تاكسى وطلبت منى أن أصحبها اليك ، ونحن الآن هنا .. وهذا هو الذى احضرنا .

- وماذا كان ذلك الحلم ؟

- لقد رأتك فى فراشك تضعين مولودا .

- ومن كان ابو ذلك المولود المزعوم ، هل رأته فى المنام أيضا ؟

هنا امتلأ الجو بالتوتر ، وتدخلت الخالة لتهدىء الجو فقالت لها .

- عليك أن تستمعى فقط لما تقوله امك ، فاننى اعلم انها عانت كثيرا من أجلكم ، ويجب ان تستمعى اليها الآن فان كل ماتقوله لمصلحتك .

- ولكن الن تخبرانى من هو ابو ذلك الطفل المولود فى الحلم ؟ أو من تعتقدون انه سيكون ؟؟

واستعدت الام للمعركة ، فهذه هى كل الحكاية التى سببت هذه الزيارة المفاجئة فى منتصف الليل .

- لم يخبرنى الحلم عنه ، ولكن الناس كانوا يخبروننى بأنهم شاهدوك مع رجل من الشماليين .

وعلقت الخالة على ذلك بقولها :

- لقد جعلها ذلك غير سعيدة .

وواصلت الأم كلامها :

- هل عدمنا الرجال فى بلدتنا ؟ اخبرينى ياديهينوا هل من الصعب أن

نجد رجلا جميلا عاملا فى بلدتنا حتى نلجأ إلى رجل من قبائل الجمبارى الأفاقين ؟ انك تعرفين نفسك جيدا ، وتعرفين اسمك ومن أى أسرة انت ، فلماذا تتركين نفسك مع مثل ذلك الذى رأوك معه .

- ولكن يامى يجب الا تستمعى أو تصدقى مثل هذه الأقاويل ، واذا تحدث اليك أحد فيما بعد بمثل ذلك الكلام فاطلبى اليه ان يلزم حدوده .

وفتحت الخالة فمها من التعجب وانبرت تقول لها :

- ماهذا الذى تقولينه يابنت ؟ انقول لناس يحبون لك الخير أن يلزموا حدودهم ؟ ان ذلك يشجعهم على أن يزيدوا الشائعات .

- ان من أسير معه مسألة تخصنى أنا .

- لا لا ليست مسألة خاصة بك وحدك ، فليس من حقك أن تسيرى مع من تريدين ، عندئذ لاتكونين ابنتى ، اعتقد أنه من الواجب ان يكون لى رأى ، أنا لم اشتغل واستعبد نفسى للناس لارسلك الى انجلترا كى تكونى فتاة قادرة موظفة تقترب من أن ترقى الى رئاسة عمل ثم تكون نتيجة كل ذلك أن تلدى حفيدا أبوه من الهاوسا .

- ماذا .. ياماما .. ؟

- اتذكرين ماذا فعله أبوك ؟ انه لم يقدم لك أية مساعدة ، ارسل كل اولاده الى انجلترا ، وحينما اتى دورك تخلى عنك ، أتذكرين ذلك ؟ اخبريها ياسيسى ماذا قال ابوها ؟ انه لم يكن سرا بل كان قوله شائعا فى البلد كلها .

هزت الخالة رأسها وقالت :

- قال انه لايرسل البنات الى انجلترا فعلى البنت أن تذهب الى زوجها وتحمل طفلها الأول بعد ثلاثة شهور من الزواج .

- هذه هى كلماته - وكان لى عملى البسيط الذى اكسب منه ، وظللت اعمل وادخر من عرقى لكى ارسلك الى انجلترا على حسابى أنا .

اصيبت ديهينوا بشىء من الاحباط ، وانبرت لوالدتها تقول :

- اعرف ذلك كله ياأمى ، أعرف ماتقصدين ، وانى أدخر من راتبى قدر أستطاعتى وباسرع مايكون سأرد لك كل ما انفقت علىّ قبل أن أتزوج .

وسالت من عينى أمها دموع حيث شعرت بعدم العرفان بالجميل وبأن تضحياتها قد ذهبت ادراج الرياح ، فان كل مادفعته لابنتها من حب وعطف ليس له أى أثر فيها وقالت فى لهجة باكية :

ـ ليس الأمر كما تظنين ، بل اننى افكر أيضا فى أن أزوجك أو أفعل لك أى شىء انك مخطئة ، الا ترين كل ما افعله واقوله لمصلحتك ، ان هذه هى فائدتنا فان الله يمد فى عمرنا كى نرعاكم ..

وغرق الجميع فى موجة من البكاء ثم ارادت ديهينوا أن تهدىء الجو فذهبت الى والدتها تحتضنها وتقول مداعبة :

ـ ولكن الحقيقة ياأمى هى أننى لا أريد أن تزعجى نفسك وتقومى بمثل هذه الرحلات فى منتصف الليل ، ولنفرض ان معى رجلا هل تحرجيننى هكذا ؟

وتوقفت الدموع وسادت لحظات صمت ثم قالت الأم :

ـ ما هذا الذى تقولينه ؟

وكى لاتفسد الجو الذى تحسن قالت :

ـ لاتغضبى ياامى .. اننى أمزح معك ؟

ـ لقد سمعت وفهمت قولك . لم تكونى تمزحين ، لنفرض ان معك رجلا ، فهل هذه هى الحياة التى تعيشينها وتنفردين وحدك من أجلها ، اعوذ بالله ، ماهذه البنت التى ولدتها ؟ لو اننى رأيت رجلا فى بيتك فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل لتصديت له ليعرف من تكونين حينئذ اعرفه ان اسرتنا تحمل اسم كومولا سوف أصيح فيه وأجمع الناس من حوله وافضحه أمام كل الناس .

ولحسن الحظ مرت تلك الليلة وأغلق ساجو على نفسه ولم يظهر ولكن الأم لم تنس ، وانتظرت الخالة تسائل نفسها عما سيحدث هل ستفتح الباب عليه وتجره من رقبته كالكلب ، ولكنها لم تفعل ، وظل التوتر قائما . هل ستستمر الهدنة أم ستنشب الحرب . وواصلت الخالة طعامها تغمس الخبز فى آدام الشطة وتزدرد طعامها دون ان تراها الأم الغاضبة ، أما ديهينوا فقد انسحبت من الميدان ، وظلت تعانى من الاعياء الذى اصابها من هذه الزيارة المفاجئة فى منتصف الليل ، ومن الزيارات المتكررة للخالات والعمات اللائى يأتين وهن مدعيات بأنهن يكنون لها الحب ، ولكن اغراضهن مكشوفة وأسبابهن ملفقة ، وكان الأمر ببساطة ثقل دم .

(٣)

اعتادت مونيكا فاسى أن تتعرض للنقد اللاذع واللوم ، وهذا ماحدث امام مدخل السفارة حينما استوقفها زوجها أيو فاسى واخذ يفحص شكلها ، وأومأ برأسه يعنى أنها مقبولة ، ومد يده الى عنقه ليعدل من وضع رباط رقبته ، وابتسم وقبلها على جبينها قبلة رسمية وقال :

ـ عليك أن تلبسى القفاز الآن .

ـ أى قفاز ؟ لم احضر معى قفازا .

وظن أيوفاسى انها تمزح معه بينما اعتقدت ان زوجها هو الذى يمزح حينما قال :

ـ اخرجى القفاز والبسيه .

ـ اتمزح ياآيو ، من الذى يلبس قفازا فى كل نيجيريا .

وابدى جدية أكثر ، واخذ منها حقيبة يدها وفتحها فلم يجد القفاز وقال :

ـ فعلا ألم تحضريه معكِ .

ـ أحضر ماذا ياآيو !

ـ القفاز طبعا ، وأى شىء غيره أقصد ؟

ـ ولكن ليس لدى قفازات ، وقد القيت بكل ماكان عندى منذ عودتنا من الخارج .

ـ لا أتكلم عما كان لديك منذ سنتين ، بل اقصد القفاز الذى اشتريته أخيرا .

ـ لم أشتر قفازا ، ما كُل هذا الهراء ياآيو ؟

ـ ما كل هذا ـ اتسألين مًا كل هذا ؟ ، ألم اعطك الدعوة منذ اسبوع مضى ؟

ـ بلى ، ولكن ...

ـ ياعزيزتى ، لقد اعطيتك شيكا بمبلغ خمسة عشر جنيها لتستعدى لهذا الحفل .

ـ اعتقد انك اعطيته لى لاشترى ثوبا جديدا .

ـ وماذا عن القفاز ؟

ـ لم تقل شيئا عن القفاز .
ـ هل يلزم ان أقول لك انه ضرورى . انه مكتوب فى شروط الحضور على بطاقة الدعوة .
وأخرج البطاقة من جيبه واشار الى كلمة « قفاز » وقال :
ـ اقرأى ـ ألا تعرفين القراءة ؟
قرأت مونيكا السطر الأخير وقالت :
ـ انه يقول انه على هؤلاء الذين سيقدمون فى الحقل ، ونحن ممن لن يقدموا نحن حاضرون فقط .. ضرب آيو بكفيه على جانبى رأسه وقال :
ـ ونحن سنقدم فى الحفل .
ـ ولكنك لم تقل لى ذلك ، كيف بالله عليك أعلم ؟
ـ لقد مضى اسبوعان وانا احتال واحاول أن أقدم فى الحفل ثم تأتين اليوم لتقولى انك لاتعلمين ، ما فائدة الحضور اذن اذا لم نقدم فى هذا الحفل ؟
ـ أنا آسفة ، لم يطرأ ذلك فى ذهنى ابدا .
ـ لم يطرأ فى ذهنك أى شىء ابدا .
كان بانديلى وكولا قد اتخذا ركنا فى الهواء الطلق يرقبان منه الداخلين والحاضرين ، وشاهدا هذا الرجل مع زوجته فسأل بانديلى :
ـ هل تعرفهما ؟
ـ انه آيوفاسى ، بالمستشفى التعليمى .
وغير آيوفاسى لهجته مع زوجته وقال لها :
ـ ولكنك على الأقل تعلمين ان اصحاب الفخامة كلهم موجودون الليلة فى الحفل ، وليست المسألة مسألة تقديم .
ـ أنا آسفة يا آيو .
ـ ياحبيبتى اذا كانت الملكة ستأتى الى حفلة فى حديقة ألن تذهبى بالقفازات ؟
ـ قلت لك آسفة ، وانى آسفة بحق ، ومن الأفضل ان اعود الى المنزل .
ـ ولكن اجيبى عن سؤالى : هل كنت تحضرين حفل الملكة بدون قفازات ؟
ـ الحقيقة أننى لاأعرف ، لم يسبق لى الظهور فى مثل هذه الأوساط .
ـ عزيزتى ، انا أعجب لما تقولينه ، انها مستلزمات اولية فى الحياة الاجتماعية التى لابد أن يعرفها أى انسان ذكى .

ونظر الى ساعته وفكر بسرعة ، واخذ يعض على شفتيه بعصبية وفجأة لاحت له فكرة فقال :

ـ مامى سوف تساعدنا فى هذا الموقف لابد أن لديها قفازات فى منزلها .

ـ لاياآيو الافضل لى أن أعود الى المنزل .

ـ ما فائدة تقديمى فى الحفل بدون زوجتى ؟ فلنعود لنحضر القفازات .

ـ سيكون الحفل قد انتهى حينما نعود .

وبدت الفكرة غير مناسبة فقال :

ـ فلندخل ، ولكن عليك ان تقفى خلفى حينما ينادون على اسمى .

ـ طبعا ياآيو ، انا حقا آسفة لحدوث هذا .

ودخلا الى الحفل ، وعندئذ تحرر بانديلى وكولا من مراقبتهما فى ذلك الموقف وعلق كولا قائلا :

ـ انه موقف عائلى طريف .

فنظر اليه بانديلى وقال :

ـ سأعرف تفاصيل هذا الموقف كله غدا .

ـ من الذى سيخبرك به .

ـ فاسى ، أنا اعرفه جيدا .

ـ انها مسألة عادية تتكرر معه دائما .

ـ تحدث مرة فى كل مناسبة اجتماعية ، كما تحدث كثيرا فى بيوتهم .

ومسح كولا قطرات ماء تساقطت عليه وقال :

ـ الدنيا بدأت تمطر .

ـ بدأ الموسم هذا العام فى موعده وقد يستمر اربعة اشهر وربما خمسة وسمع صوت الرعد فقال بانديلى :

ـ لقد شعرت الأسبوع الماضى بالحاجة للنظر الى بعض الأضواء الطبيعية فصحوت مبكرا لاستمتع بمنظر الفجر ، آه ما أجمل صنع الاله ، وما أجمل الوان الشفق .

ـ فلندخل قبل ان يبللنا المطر .

وكان ساجو بالداخل مشغولا مع السفير يقوم بعمله وقد حبس نفسه فى سترة عشاء رسمية أخذها من صديق له خصيصا ليلبسها فى تلك الليلة ، ولذلك لم تبد عليه علامات الصحفى فى هذا اللباس ، بل ساجو المتطلع ، وسمعوا ساجو يتحدث الى السفير :

ـ اتذكر تلك الايام التى كنا أثناءها غارقين فى الدعايات عن اكتشاف سر اطالة العمر واستعادة الشباب ، وان هناك بلازما خاصة اكتشفها أطباء ستالين وكانوا يحقنونه بها ، وقالوا ان ستالين لن يموت ابدا ورد عليه السفير بكلام بطىء رزين :

ـ نعم ، وانى اوافق معك الى حد ما ، فان ستالين مثله مثل غيره من الدكتاتوريين كان يشترى عمره من أعمار الآخرين وكذلك كان هتلر ولكنها طبيعة الدكتاتوريين أن يسبقوا غيرهم من البشر فى الزمن .

ـ اوافقك تماما ياسيدى السفير ، ولكن هل مازلت تعتقد أن الدكتاتورية أمثل نظام لحكم الشعوب ؟

ـ الأمر يتوقف على الشعب نفسه كما قلت من قبل .

ـ اذا اخذت مثال شعبكم فهل توافقنى يافخامة السفير على ...

قاطعه السفير معتذرا قائلا له :

ـ اسمح لى يامستر ساجو ، سأذهب للقاء ضيوف آخرين .

واندفع ساجو نحو الباب فرأى بانديلى وكولا .

فقال بانديلى :

ـ ما الذى أقلقه ؟

ـ لم يستطع أن يحصل على القصة التى يريدها .

ثم صاح بانديلى :

ـ ياساجو .. انتظر ياساجو .

ـ سوف أراكما فيما بعد عندما اعود للمنزل .

واسرع خارجا من السفارة فعلق كولا على ذلك :

ـ لابد أنه اصيب باحباط شديد ، لم ينتظر حتى يشرب بعض الخمور .

واقترب السفير ليقابل فاسى وزوجته وبصحبته خادم يحمل الشمبانيا .

وهزت مونيكا رأسها بالرفض ، فبدا على وجه فاسى الغضب منها أما السفير فسألها سؤالا خبيثا :

ـ الا تشربين ابدا يامسز فاسى ؟

ـ لا ، بل اشرب فقط نبيذ النخيل من وقت لآخر حينما يحضره لنا الخادم .. وضحك السفير وقال لها معتذرا :

ـ أنا آسف ، وفى الحقيقة اننى اريد أن اتذوق نبيذ النخيل هذا ، واقترب خادم آخر يحمل صينية بها شمبانيا ومعه كوب به نبيذ النخيل ، وفى هذه اللحظة ذهب فاسى ليبحث عن الشخص الذى يتولى التقديم ولما

عاد من جولته الى مونيكا وجد معها أحد زملائه يسألها :
ـ ماذا تشربين يامونيكا ؟ أمعك نبيذ الألبا ؟
فصاح فيها قائلا :
ـ من أين لك هذا ؟
ـ سمعنا أحد الخدم نتحدث عن نبيذ النخيل وذهب الى منزله فاحضر لى هذا الكوب ، انه ذوق رفيع من ذلك الخادم .
فابتعد عنها غاضبا وذهب الى بانديلى وقال :
ـ أرأيت ماذا تفعل ، عادت مرة أخرى الى افعالها الغريبة .
نظر اليه بانديلى فى هدوء شديد وسأله :
ـ ماذا فعلت الآن ؟
ـ رفضت الشمبانيا ، ولا أرى ضرورة لان تفعل ذلك ، الا ترى أن كل النساء هنا يحملن الكئوس دون أن يلمسن الشراب ، يحملنه فى ايديهن ليظهرن انهن سيدات مجتمع ، ماذا لو فعلت ذلك ؟
رد عليه كولا بصوت منخفض :
ـ لاتغضب ، لم يحدث شىء ، أنا متأكد .
هدأ فاسى واخذ يتحدث برقة بعد ان زال الغضب .
ـ لم يقتصر الأمر على ذلك ، لم تكتف برفض الشمبانيا بل طلبت من الخادم أن يحضر لها نبيذ الألبا فى حفل كوكتيل مثل هذا ، هل سمعت بمثل هذا من قبل ، امرأة تطلب نبيذ النخيل فى حفل كوكتيل ..
نظر اليه بانديلى محاولا تهدئته ولكنه واصل الكلام .
ـ لو أنها فتاة لندنية متوحشة أتت من عشش لندن لتصورت هذا الذى يحدث ، ولكنها سيدة متعلمة ، سبق لها ان اختلطت بالمجتمعات ، فلماذا تأتى هنا وتفضحنى بشرب نبيذ النخيل ؟
فصاح فيه كولا .
ـ ماذا تقول ، اتقصد انها تعمدت ذلك ؟
استدار فاسى يشير اليها وقال :
ـ اذا كنت لاتصدقنى فانظر اليها انها هناك تشرب النبيذ الوطنى ، وقد رآها أحد الاصدقاء ، واقسم لك أنه ينشر الخبر فى كل انحاء المكان الآن .
ـ ربما لايعرف انه نبيذ .
ـ انه يعرف ، بل انه سألها هل هذا نبيذ الألبا ، هذا ماقاله .
قال كولا بشىء من الحزم :

ـ كان عليك أن ترد عليه بالايجاب ، تقول له نعم انه نبيذ الألبا . وأن زوجتك اصيبت بمرض مفاجيء واحتاجت الى جرعتين من هذا النبيذ .

ـ حقا ، كان المفروض أن افعل ذلك ، المفروض أن افكر فى ذلك فى حينه ، ولكن المشكلة فى مونيكا ، ربما لو فعلت ذلك لغضبت وغادرت المكان . انظر ياباندیلی ، انت صديقى ، فاذا سمعت أى شائعات أو تهكمات فبالله عليك اخبرنى بها ، فمن الأفضل أن أعرف مايقوله الناس فى حينه لعلنى اتمكن من التصرف .

واقترب فاسى من باندیلی يهمس فى اذنه :

ـ وماذا ترى عن ردائها ؟

ـ ما الذى تتحدث عنه ؟

ـ الا ترى أن ملابسها غير مناسبة ؟

ـ لم الاحظ ذلك .

فبدت على وجه فاسى لمحة سرور ورضى وقال :

ـ أتقصد انك لم تلاحظ ان ملابسها غير مناسبة ؟ لقد ارحتنى ياصديقى ، ربما لم يلحظ الآخرون ذلك أيضا ..

قال كولا :

ـ اعتقد انك مخطىء ياباندیلی .

ـ اذن لاحظت شيئا غريبا .

سمعت مجموعة من النساء يتحدثن عنها .

فنظر فاسى الى باندیلی وقال .

ـ هل رأيت اننى على حق .

وتابع كولا كلامه قائلا :

ـ لم اعر ذلك التفاتا ، وعلى كل حال تجد مثل هؤلاء الناس الذين يحسدون اى شىء فى كل مكان ، ولا داعى لان اقول لك انك تعرف امثال هؤلاء الخبثاء .

ـ لا ، لا ، ليس خبثا ، بل انهم على حق ، ماذا كانوا يقولون بالضبط ؟

وتدخل باندیلی مناورا يحاول ابعاد فاسى عن الحديث عن زوجته ولكن فاسى اسرع الى زوجته وانفجر فيها قائلا :

ـ هكذا جعلت منا امثولة ، انظرى حولك حتى السيدات اللاتى يلبسن الزى الوطنى فى ايديهن القفازات .

وانسحب بانديلى وعاد الى كولا الذى قال له .
- لماذا تكذب هكذا ، لماذا لاتصارحه بالحقيقة ؟
- ان الرجل غاضب بالفعل واحاول أن اثنيه عن غضبه .
- دعك من هذا التعاطف مع مونيكا فاننى اعرف الاثنين .
- ليست مسألة تعاطف .
- تبدو مونيكا رقيقة ولكنها عكس ذلك ، وفى الحقيقة أجدها عندما اقابلها سيدة ابشع مما تبدو .
- انها صغيرة السن .
ومر موظف السفارة الذى سيتولى التقديم وبيده قائمة ينادى منها على من سيقدمهم ويصحبهم الى مقدمة البهو ، وتابعه فاسى بنظراته ، وعرف من القائمة المرتبة ترتيبا ابجديا ان دوره فى التقديم متأخر فعاد واتجه نحو بانديلى وكولا ، ولاحظت مونيكا الموقف فاحنت رأسها فوق قدح النبيذ متظاهرة بانها لاترى شيئا .
ولمحه الرجل فناداه :
- آه .. مستر فاسى ، احضر زوجتك وتفضل معى .
- زوجتى .. انها خجولة جدا .. والأفضل ان اذهب وحدى .
- هذا هراء .. نحن لانقبل ذلك ، دعنى احدثها بنفسى .
- صدقنى لافائدة ، لقد حاولت معها طيلة الليلة ولكنها ابت .
وبعد لحظات دفع بانديلى صديقه كولا ليلفت نظره ، وسمعا موظف السفارة يقول :
- اصحاب الفخامة .. سيداتى سادتى .. التفتوا الى هنا من فضلكم سيداتى سادتى اقدم لكم الآن المستر فاسى من المستشفى الجامعى وحرمه .
ركز كولا نظرته على فاسى وقال :
- ماحكاية صديقك ؟
- المفروض انه من أحسن الاطباء الذين يقرأون الاشعة فى القارة كلها .
- هل المفروض ان يكون بهذا الشكل المتجهم ؟
فاخذه بانديلى وانصرف .
نزل فاسى من المنصة متهاديا بخطوات وئيدة وتبعته زوجته ، ثم بعد خمس دقائق شوهد يسير وحيدا وزوجته تتجول باحثة عنه ، فامسكها بانديلى من ذراعها وقال لها :

ـ تعالى انضمى الينا .
ـ أين آيو ؟ هل رأيته ؟
ـ يتجول فى مكان ما ، رأيته مع السيناتور أو كوت .. أتريدين أن ابحث لك عنه .
ـ لا لاداعى .
وقال لها بانديلى :
ـ أقدم لك صديقنا كولا .
فقالت بلهجة صارمة غاضبة .
ـ أنا زوجة آيوفاسى .
ـ كولا محاضر فى معهد الفنون .
ـ اخبرنى زوجى انك سمعت بعض الناس يتحدثون عنى ويقولون اننى ابدو شبه عارية ، هل هذا صحيح ؟
واعجب كولا بصراحتها ، ولكنه لم يستطع أن يرد عليها فعاودت تساؤلها بلهجة لينة :
ـ هل سببت له حرجا ؟
ضحك بانديلى وقال :
ـ يبدو أنك مضطربة ، اين تركت كأسك ، أنا أريد شرابا آخر وتركها مع كولا ليحضر الشراب .
ـ هل تعرفين بانديلى منذ زمن طويل .
ـ نعم انه صديقنا القديم ، حينما تتغيب والدة آيو ولايجد أحدا يشكو له فانه يشكو همومه لبانديلى .
ـ شكوى ! أنا لاأفهم .
ـ نعم هو يشكو دائما ، ولابد أنه كان يشكونى اليكم الآن ، هذا يفسر لماذا اخبرته عما سمعته عنى الآن ؟
ظل كولا صامتا دون أن يجيبها فأكملت سؤالها :
ـ أم أنك من هواة الشائعات ؟ معظم اصدقاء زوجى يثرثرون هكذا ، وهم يعترفون بذلك ، وفى الحقيقة أن زوجى الوحيد الذى ينكر ذلك حينما اتحدث اليه .
ـ أود أن يكون ذلك صحيحا ، فمن حق الزوج أن يدافع عن اصدقائه .
ـ ولكنهم جميعا ثرثارون ، وكل مايثرثرون به من محض خيالهم اليس

كذلك ؟ طبعا لن تعترف بذلك ، ولكنك تعرف الحقيقة .
ـ كم قضيت من الزمن معه ؟
ـ سنتين كاملتين ، اتعتقد انه وقت غير كاف لأكون فكرة ؟
ـ حقا ، بل احيانا يكفى اسبوع واحد .
ـ حينما حضرت الى هنا كنت خائفة مضطربة ، ولكنى آلفت الجو الآن بل انى استمتع بوجودى والاستماع الى احاديث زملاء زوجى .. لم أعش فى جو جامعى فتوقعت ان كل شىء سيقع فوق رأسى ، ولكنى وجدت الأمر لايختلف عما وجدته فى معهد المعلمين .
ـ هل تعتقدين أننا مجرد مجموعة من مقلدى المدرسة الانجليزية ؟
وهنا جاء بانديلى ومعه كئوس الشراب ، وواصلت حديثها قائلة :
ـ هل تريد أن تعرف ما سمعته عنكم ؟
ـ لا ، لست فضوليا الى هذا الحد .
ـ لا بل انك كذلك ، على كل ، أول شىء هو أن لكم صديقا تعتقدون أنه مجنون .
ـ اريد أن تتحدثى عنى أنا .
ـ هذا هو ماسأفعله ، علمت أنك ستعمل فى لوحة زيتية كبيرة ترسم فيها جميع الآلهة ، وأود أن أحضر لأراها .
ـ لن تشاهدى شيئا فقد بدأتها من فورى .
ـ ولكنك لم تبدأ بعد ، وقد علمت أن سيدة قد هاجمت مرسمك وكسرت اشياء فيه لانها غضبت لوجود ابنتها جالسة أمامك لترسمها ، أليس كذلك ؟
ـ اخشى انك تعرفين الكثير عنى .
ـ المهم هل استطيع الحضور للمشاهدة .
ـ بصراحة لا ، لاننى لم أصل الى مرحلة تسمح برؤية أى شىء .
ـ فهل آتى فيما بعد .
ـ نعم يمكن فيما بعد .
ـ يجب أن أذهب للبحث عن زوجى ، اتسمحون لى .
وانتظر بانديلى حتى ذهبت وسأله صديقه كولا :
ـ ماذا فى الأمر؟ لقد رأيت انكما كنتما على وئام .
ـ لا ، أبدا ـ لاشىء .
ـ يبدو انك عصبى بعض الشىء .

- لا ابدا - لماذا ؟
- على كل حال يجب أن تعلم اننا مدعوون غدا على العشاء فى منزلهم فقد وجه لى فاسى الدعوة الآن .
- وما دخلى فى هذا ؟
- دعاك انت ايضا ، وقد أكد لى على حضورك انت بالذات ، وأنت تعرف فاسى ، يريد أن يعرف المزيد عما سمعته عن زوجته .
- لم اسمع شيئا ، كان يجب ان يعرف ذلك .
- ستحضر امه الوليمة ، وسوف تكون فرصة لمعرفة نمطهم ، فبعد ماحدث اليوم لابد أن يرسل لامه لتتكلم مع مونيكا ، وسترى أن الاثنين على وئام شديد الام وزوجة الابن . وعلى أية حال فاننى احب أن اتناول عشاء طيبا من وقت لآخر ، ومسز فاسى الأم طباخة ماهرة .
- حظا سعيدا ، فلتذهب ولتستمتع بالطعام وتملأ بطنك .
- هل هناك شىء فى نفسك ياكولا ؟
- ماذا يكون ذلك الشىء ؟ توقف عن هذا الهزل ، لايوجد أى شىء فى نفسى .

فى مساء اليوم التالى اتجها الى منزل فاسى ، وفتحت لهما مونيكا الباب وقالت بمجرد رؤيتهما :
- استعدا للاكل بنهم شديد ، فان حماتى فى المطبخ تعد الطعام .
وبعد لحظة جاء فاسى وهو يقول متجها الى المطبخ
- كولا لم يقابل والدتى ..
وفى ترحيب شديد قالت مونيكا موجهة كلامها الى كولا :
- سأحضر لكما الجعه ، فليس فى نيجيريا سوى الجعه ، أليس كذلك ؟
لم أشرب ابدا فى حياتى حتى اتيت الى هنا وتذوقت نبيذ النخيل والآن لا اشرب سواه ..
وعاد فاسى من المطبخ يقول :
- امى تعتذر لاتستطيع الحضور الآن ياباندلى .
فعلقت مونيكا على ذلك قائلة :
- هذا يعنى أنها تبذل جهدا مضاعفا فى المطبخ ، فان باندلى هو الشخص المفضل من بين جميع أصدقاء آيو ، ولاتحتمل من بينهم غيره .
- لماذا تقولين مثل هذه الاكذوبة .

ـ اذن لننتظر حتى تأتى مامى ونسألها بنفسنا .
ـ ليس هناك هراء أكثر من هذا . انا لا أريد أن تناقشى مع مامى أمور أصدقائى مرة ثانية ، وقد قلت لك ذلك مرارا .
وسمع صوت السيدة تنادى من المطبخ :
ـ مونى .
ـ قالت مونيكا وهى تسرع الى المطبخ :
ـ أظن أنا ماما تحتاج الى مساعدة .
وجلس فاسى قلقا لدقائق معدودة ثم وقف ونادى بانديلى واتجه معه الى الشرفة ، ثم عاد يعتذر ويقول .
ـ كولا . لن نتركك أكثر من دقيقة واحدة ، على كل حال أنت فى منزلك
وسأل بانديلى :
ـ هل قال لك كولا مزيدا عما سمع من كلام الناس فى الحفل ؟ هل عرفت من الذين كانوا يتحدثون ؟
واصم كولا اذنيه عما يسمعه من خلف باب الشرفة وبقى وحده بعض لحظات الى أن اتت مونيكا فسألته :
ـ أين ذهب آيو وبنديلى .
ودون أن ينطق وجه عينيه الى الشرفة ففهمت واومأت برأسها ووقفت لحظة تنظر إلى الشرفة ثم عادت واختفت فى المطبخ مرة أخرى .
بقيا مدة طويلة يتحدثان ، واخذت الجعة تلعب برأس كولا قليلا ، وسمع بابا من خلفه يفتح ، واذا بفتاة صغيرة صهباء بشعرها الابيض تدخل بين رجليه ، وتحتسى جرعة من قدح الجعة ، وتربت على خده تريد ان يلاعبها ، ودخلت مونيكا تقول :
ـ أوسى ، ياعزيزتى ، انت بنت مؤدبة ـ تعالى هنا .
اخذ كولا يتأمل المنظر بصمت وتابعت مونيكا كلامها :
ـ انها اوسى ابنة الطباخ .
ـ هل هو اصهب اللون مثلها .
ـ فعلا انها عجيبة ، لا هو ولازوجته فيهما اى علامات اللون الفاتح فكلاهما أسود ، هل لاتحب السواد ؟
ـ اعارض الحديث عن اللون والملونين ، هذا شىء بغيض .
ـ كنت متأكدة من ذلك ، وقد وجدت ان الانسان يجب أن يكون حريصا

جدا هنا ، لا اعرف لماذا يشعر الناس هنا بحساسية اللون . على كل حال نعود الى موضوعنا ، فان اوسى لها اربعة اخوة واخوات منهم ثلاث صهب البشرة من بينهم هى ، وأمها تنتظر مولودا سادسا ، انها مسكينة حقا ، سوف تظل تلد حتى الموت .

ـ يبدو ان الطفلة خجلت من هذا الحديث .

ـ ان اوسى اضعفهم نظرا ..

ـ لقد لاحظت ذلك .

ـ ربما اتت الى هنا بسببى ، ربما تتعاطف معى لانى فاتحة اللون .

ـ انها هزيلة مثل الدجاجة العجوز .. أوسى تعالى هنا واشربى بعض الجعة معى .

ـ لا ياأوسى يجب الا تفعلى ..

ـ البيرة تضرها ، وربما كان البراندى أفضل ، الا ترين أن الدماء قد جرت فى وجهها .

وشربت اوسى جرعات البيرة وهى متقززة من طعمها المر ثم اخذت تقترب من وجهه ناظرة اليه عن قرب واخذت تمر بنظرها على ملابسه وباشفاق شديد عليها قال :

ـ كيف بالله تستطيع ان تعبر الشارع ؟

ـ سوف نعمل لها نظارات ، رتبت ذلك مع صانع النظارات .

وقال وقد اجتذبت أوسى شفقته وعطفه الذى بدا عليه واضحا .

ـ انها مثل البيضة التى وضعتها الدجاجة قبل ان يتم تكوين قشرتها أو هى لينة مثل رأس الوليد .. على كل أنا صاحب قلب مرهف فلا تلومينني على ذلك .

واخذ يربت على ظهر الطفلة ويمسح رأسها بيده فقالت :

ـ تقول انكِ عطوف ، فلتأخذنى الى الشباك .

وأشار الى الشباك المفتوح وسألها :

ـ انظرى الى هذه الشجرة .. انها ضعيفة النظر جدا ؟

لماذا لم تفعلوا شيئا من أجلها حتى الآن ؟

ـ ان آيو يعد ويعد ثم لايفعل شيئا ، ولكن المشكلة الحقيقية انه ليس عندى سيارة ولا اعرف قيادتها .

ـ حسنا .. سوف افعل شيئا ، سأرتب ذلك .

- هل ستأتى لتأخذها ؟
- طبعا ، سآتى بنفسى .
- شكرا لك .. شكرا .
وواصلت حديثها معه بعد قليل من الصمت :
- هل أغضبتك ليلة آمس ؟
- كيف اغضبتنى ؟
- اقصد اننى لم اكن رقيقة معك ، هل انت ممن لايؤمنون بالزواج من اجنبيات ؟ آنا أعرف الكثير من اصدقاء آيو لم يوافقوه على زواجه مني .
- انها مسألة تخصك انت وزوجك .
- انى مسرورة لأنك سوف تأخذ اوسى ولكن ربما تعتقد اننى استغلك .
- طبعا لا ، لاتكونى هكذا .
- اشعر باننى استغلك ، ولكننى غير آسفة على ذلك .
- ولا انا .. ودعينا من هذا الحديث الآن .

وبينما ينظر عبر النافذة ، احس برموش عينى أوسى على يده وهى تفحصها بدقة ، ولم يلاحظ كولا أن مونيكا تركت الحجرة ، ولكنه بعد قليل من التأملات عاود النظر الى الطفلة عن قرب ، وهو يتعجب بينه وبين نفسه ، لقد ظل يبحث عن وجه مناسب يرسمه من بين وجوه ابناء حارته اوبالوايو ، وفجأة ظهرت امامه اوسى التى عثر فيها على ضالته التى يريدها بصورتها والوانها ، تراءت له اوسى بلونها الاصهب مثل حجر مضىء ساقط من القمر جالس عند قدميه بقدسيته ونقاوته .

ثم كان هناك شىء آخر .. الشفقة والحنان اللذان ملآه فى مثل ذلك الوقت ، لقد تأكد من هذا الشىء ولايريد ان يفقده حتى لا تضعف القوانين الخاصة بابداعاته ... ثم فجأة انتبه الى صوت باب الشرفة يفتح وباندیلی ینادیه .

ودون أن يسمح لنفسه بأى تباطؤ أو تفكير خرج من المنزل .

(٤)

« سيمى المعروفة بسحرها ، معروفة حتى للاطفال ، وجميع الزوجات تركعن وتسجدن ابتهالا آلى الرب أن يذهب ازواجهن لمئات من النساء ، ولاتقودهم اقدامهم الى سيمى ذات العيون الناعسة ، فالرجال الذين يذهبون اليها يفقدون الأمل فى الخلاص ، وتتحول بيوتهم وابناؤهم فى نظرهن الى اشباح من ماض انقضى حينما يعرفون منها الحياة بشكل جديد فينغمسون فى اكل لحوم البشر . سيمى تحطم الرجال وتحطم الصداقات ولايبدو عليها إلا السذاجة لايبدو عليها سن ولم تدهمها شيخوخة . يعتقد كل رجل انه اوقعها فى حبائله لانهم يظنون انها لاتخطىء ، ويقوم أى رجل وقع فى حبائلها بحمايتها من النسوة اللاتى ليس بهن طهر وسذاجة مثل طهرها وسذاجتها وهناك اغان كثيرة فى عشق سيمى ، وملاحم عديدة عن حبها ، واناشيد مديح ، كما يوجد شعر واغان فى الهجاء ، ولكنه هجاء للنسوة الاخريات اللائى يتجرأن على مقامها .. سيمى ملكة النحل ذات الجلد الرقيق الذى خلق من تراب ناعم حملته الريح من بعيد من تربة منطقة كانو . وسيمى لاتدفع شيئا من اجر لمن يمتدحونها ويغنون لها ولكن هناك من الرجال من يؤجر هؤلاء الشعراء والمغنين والمنشدين الذين يصوغون شعرهم ارتجالا أو تتفجر حناجرهم بأغان هى بنت الخاطر فى لحظتها .

وقد تجلس سيمى فى الحفلات ، ولكنها تكون هادئة لاتتحرك ، وقد لاتدرى احيانا بما يدور حولها ، وقد لاتكترث بضيوفها أو مضيفيها من المعجبين ، ولكنها تلاحظهم ، وحينما يغادرون المكان تكون قواهم قد خارت وجيوبهم قد خوت ورجولتهم قد امتهنت لان سيمى تعاقرهم الشراب كأسا بكأس ولكنها تحافظ على سر يقظتها وحيويتها بينما يضيع الرجال ويثملون فينقادون اليها ، ليس فقط أضعف مما كانوا بل وأكثر حزنا وغما ، واقل تعقلا وحكمة ، ثم تقوم سيمى بالاختيار من بينهم برموش عينيها الباردة التى ليس فيها مايغرر أو يخدع .

ـ تعال هنا يا ايجبو ..

كان ذلك نداء مدرس الجغرافيا وهو الوحيد الذى لمح فى ايجبو ذكاء

وتوقع له مستقبلا وجره من سترته الزرقاء الجديدة وادخله الى داخل الفصل ، واوقفه امامه يتفحص سترته وعليها الاشارات والنياشين المدرسية التى لايضعها سوى ابناء الاغنياء ، وجعل ايجبو ينتظر طويلا حتى قرب نهاية الموعد ثم بدأ يتحدث بعد انصراف التلاميذ من الفصل :

ـ يا ايجبو الصغير قد نجوت باعجوبة ، اتعلم أن قرار فصلك كاد يصدر ست مرات ؟ ست مرات اثناء الدراسة الثانوية شىء كثير ماذا اكتب لك فى شهادة حسن السير والسلوك التى تطلبها منى ، سوف تؤثر ظاهرة فصلك ست مرات فى أى انسان مفكر عادل .

رد عليه ايجبو موافقا على كلامه لانه يعلم أن فى يد هذا المدرس السلطة والقوة للاضرار به ، وواصل المدرس حديثه :

ـ أجل لم تتفوق فى أى شىء ، واسمع هذه ايضا ، إننى أعرف زئر النساء بمجرد النظر اليه وأرى أمامى الآن واحدا من هؤلاء ، عليك ان تبتعد عن الغانيات هل تسمعنى ؟ عليك أن تطردهم يامسكين ، ابتعد عن طريقهم وابعدهم عن طريقك .

كان هذا المدرس معروفا بمبالغته فى الأمور ، اذ لم يكن ايجبو سيىء السمعة بين زملائه بل انه اشتهر بخوفه من النساء حتى قبل ذلك باسبوع واحد الى أن وقعت حكاية تلك الليلة التى شاعت اخبارها فى كل انحاء البلد وانتقلت الى اسماع المدرسين حكاية الشائعة لم تكن خاصة بايجبو ولكنها نسبت له وحده ، فقد خرج ستة من الاشقياء الصغار الذين زاغوا من المدرسة قرب موعد امتحان الشهادة الثانوية ، وشربوا حتى سكروا فى أحد النوادى الليلية التى دخلوها لأول مرة فى حياتهم ، واثناء جلوسهم لاحظوا أن ايجبو لايتكلم ولايرقص منذ دخولهم النادى الليلى وأن نظرته لم تتحول عن اتجاه واحد ركز فيه النظر قال احدهم :

ـ انظروا الى ايجبو ، الم ير امرأة من قبل ؟

وقال آخر :

ـ يمكنك أن تقول لهم إنك « اوموفولو » أعظم زئر نساء .

وبعد الامتحان النهائى اصبحت لديهم الرخصة للخروج من داخلية المدرسة حيث كان لديهم وقت فراغ فى ذلك الوقت من السنة رغم ان الجو جاف وبارد يصحبهم إحساس بانتهاء صلتهم بالمكان والزمان ، وفى جو مترب ملىء بالغبار ، ورغم ذلك الجو الذى تبدو فيه الطبيعة قاسية قارسة

فى الليل وغائمة بالتراب وقت الظهر كانوا يخرجون ... يمشون هائمين فى الادغال يتقلبون على أمواج الطبيعة القاسية والتى تحملها هبات الرياح المعروفة باسم « ايكان » واقتضى مثل ذلك الجو القارس أن يشربوا نبيذ النخيل ويواصلوا سيرهم بحلوقهم جافة ليطلبوا المزيد من الشراب ، هنا عرف ايجبو السكر الحقيقى ولأول مرة شعر بأنه ثمل حقيقة .

جلس امام المائدة فى ذلك النادى الليلى وقد زال عنه كل شىء وفقد الاحساس بغربة المكان ، وكانت سيمى تجلس وسط جمع ممن ألفوها واعتادوا مجالستها ، ومائدتها تعج بالضحكات والقهقهات العالية وكانت سيمى صامتة لايبدو عليها أى تأثر بما يدور حولها . التقت عيناها التى تشبه عيون السمكة بعينى ايجبو ، وقال زملاؤه لقد وجد « مامى واتا » ضالته .

بمجرد أن لمحته سيمى والتقت عيناها بعينيه بدت غرابتهما حينما حدق فى عينيها ففكر فى كبد العجل معلقا على خطاف الجزار لما رآه فيهما من أعماق لينة . وثبتت سيمى عينيها للحظات على عينى ايجبو المأخوذ الضائع ، فقام على اقدامه وفى رأسه دوامة جعلته لايحس ولايرى الا نظرة سيمى وخرج الى الشارع يسير كالاعمى عابرا بين اسبتة الكولا وصوانى اللحم المشوى الموضوعة امام البائعين عند مدخل النادى الليلى وعلى طول الشارع المؤدى اليه ، وهم يتابعونه بنظراته ويتضاحكون ويتصايحون لبعضهم : « وهذا سكران اعمى آخر » ومضى فى طريقه عائدا كما لو أنه خارج من حمى ، والاصوات فى اذنيه اصداء بعيدة من اصطكاك اشياء لايعلمها ، وحفيف وضجيج مختلط فى ذلك الليل المظلم وكأنه سم الثعبان قد دخل جسمه وبدأ يسرى فى عروقه .

وشرح ايجبو ذلك كله فى الفصل حينما قابل زملاءه فى اليوم التالى وقال لهم :

ـ اذا كنت قد رأيتها قبل دخول امتحان علم الاحياء لكنت اجبت عن السؤال الخاص بملكة النحل دون ان ارجع الى الكتاب المدرسى .

وكان المدرس قد سمع بذلك وقال له :

ـ تعالى يا ايجبو ، تعالى هنا يازئر النساء .

وربما اعترف ايجبو لسيمى فيما بعد قائلا :

ـ كانت أول مرة اشعر فيها بانى وحيد العقل ، وهى أيضا آخر مرة .

وتخرج من المدرسة واستطاع من فوره أن يحصل على عمل ، وبدأ

يدخر من راتبه وبلغ تقشفه حدا جعله يدرب نفسه على اعمال القديسين ، فكان يأكل اقل من حد الكفاف وأصبحت المكتبة هى كل مسرته . وبثمانية عشر جنيها فى جيبه لابسا الحذاء السميك النعل ليضيف إليه بعض الطول والحلة الصوفية ورباط العنق حول ياقة منشاة اتجه الى ايبادان ليجوبها بحثا عن سيمى فى وسط حاشيتها ، كان لابد ان ينزل ضيفا على احد زملائه القدامى فى المدرسة ، فاتجه الى منزله ، وما ان اقترب من الباب حتى وجد لافتة كتب عليها : « ديجيادى سكرتير ارسالية التبشير المسيحية » ولافتة أخرى كتب عليها : « دق الباب وتفضل »..

وفكر فى الهرب من الموقف ولكن فوجىء بأن ديجيادى يفتح الباب فيرى ايجبو امامه فيقول :

- لماذا تقف هكذا ياايجبو ؟ ماذا تفعل هنا ؟

ظل ايجبو ساكنا لم تعل وجهه ابتسامة وقال وهو يتحسس اللافتة باصابعه .

- ما كل هذا ياديجيادى ؟ لاتقل أنك ورثت وظيفة الاسرة .

- اود أن تفعل ياايجبو مثلما فعلت .

وكان ديجيادى هو ابن صديق من أصدقاء ابيه ، هو القس ديجيادى الذى حاول أن يكفله بعد موت ابيه وينشئه تنشئة دينية ولكن عمة ايجبو رفضت وقالت : « لن اسمح له ولا لجده العجوز الشيطان الوطنى أن يكفله وسوف ارتب كل شىء لتربيته وتنشئته »

كانت حجرة ديجيادى فى داخلية المدرسة من الحجرات التى تدبر فيها كل الموبقات فلما رأى الكتب التى تحيط بالحائط فقد كل امل فى ان يحصل على مساعدة فى خططه التى جاء الى ايبادان من اجلها ، وعندما حدثه طالبا مساعدته رد عليه ديجيادى قائلا :

- ستكون هذه مساعدة غير اخلاقية . ولكنى أؤكد على صداقتنا بأن أصلى من أجلك .

- لاتشغل نفسك بى ، وعليك بكتبك لاتنسها .

- اصلى دائما قبل أن ابدأ المذاكرة ، وعندى استراحة لشرب الشاى كل يوم الساعة الحادية عشرة ، فاذا ما استجاب الرب لدعائى فلتأتِ لترانى فى تلك الساعة .

شعر ايجبو بخوف شديد ملأه اذا ما استجاب الرب لدعاء ديجيادى

وسار فى طريقه الى حجرته ممتلئا بالاحباط وبينما هو يسير خلال بيت الطلبة شعر بمخاوفه تزداد ، وبدت له اقتراحات ديجيادى معقولة وفيها تعاطف شديد مخلص ، وراعته التقوى التى كانت بادية على صديقه ، وأخذ يتصبب عرقا من الخوف من تلك الكتب المسحورة ، بل وأخذ يتوجه الى الرب بدعاء ضد دعاء صديقه ويقول :

ـ اجعلنى يارب الليلة منسيا ، وتغاض يارب عن وجودى الحقير ، وبارك لصديقى فى كتبه واجعله مثالا للتقوى وابعد اشعاعاته عنى هذه الليلة .

كان صوت ايجبو مليئا بالتقوى والوجل ، وماذا تكون مثل هذه الصلوات والدعاء ؟

وعثر ايجبو اخيرا على سيمى بعد أن بحث عنها فى ثلاثة نواد ليلية ، وحينما دخل هذا النادى لم يرها من أول وهلة ، ولكن رأى التجمع الذى يوحى بوجودها ، وشم أريجها من بعيد لم يستطع الذين كانوا يتباهون ويتفاخرون بحب سيمى لهم ويدعون انها هى التى تمنحهم الروح والحياة ان يكتسبوا اعتراف العالم بهم لان سيمى كانت موزعة فى ارجاء المسافات مما جعلها نقية ساذجة المظهر كما لو لم يكن بينها وبين العالم احتكاك ، ولم يحصل كل من دخل فراشها على شىء إذ كانوا يكتشفون فى النهاية انهم لم يلمسوها ، وكان شوقهم يزداد واصرارهم يدفعهم الا يسأموا من الارتماء فى وهم نظراتها السحرية ، وبلغ البعض درجة الجنون من الوهم والخيال اللذين عاشوا فيهما ، وكان كلما انتهوا بدأوا من جديد فى محاولات غير مجدية لامتلاك سيمى دون ان يكون لهذه المحاولات نهاية .

كانت سيمى كما اعتقد ايجبو مثل ملكة النحل لابد من أن يرقص الذكور ويستسلموا ويسلموا الروح تحت اقدامها . ووقف ايجبو هناك لايريد أن يجلس على مائدة معينة يربط نفسه بها وفى موقفه هذا رأى نفسه يقف امام وحش فاغر فاهه ليلتهمه ، تماما مثل ذلك الموقف يوم ذهب بصحبة عمته إلى مطار اوارى ، وكان مطارا بدائيا للغاية ونظر إلى الطائرة الصغيرة وهى من طراز داف التى كانت مستخدمة آنذاك لتأخذه فى بطنها ، وتذكر عمته تلك التى تهورت واخذته معها وكل تفكيرها فى تجارة الملابس التى تقوم بها ولم تفكر فى الخطر الداهم الذى يتهدد حياة ايجبو ، وتذكر أيضا موت ابيه وامه ، وابوه القسيس جونسون وزوجته التى كانت أميرة من اميرات الايبو ، وأولى كراساته حينما قامت عمته بنفسها وكتبت عليها اسم

ايبو بدلا من اسم جونسون ولكنه حينما شب وفهم بعض أمور الدينا وجد أنه لايستطيع أن ينسى اسما مثل اسم جونسون وبقى اسم ايجبو ، وقالت له عمته : يجب أن تذهب إلى المدرسة فى لاجوس مثل الناس المتحضرين ، فان جدك الوثنى لن يعلمك إلا كيف تجمع حولك أكبر عدد من الزوجات وكيف تحسب مكاسبك من التهريب والقرصنة . وحينما ارتفعت الطائرة إلى أعلى بعيدا عن الرائحة التى تنبعث من الشاطىء والرطوبة التى تملأ الجو اختفى منه الخوف ، وأخذ يسير ذهابا وجيئة فى ممر الطائرة ، ويركل برجله كل مايمر به من مقاعد حتى وصل إلى كابينة القيادة واخذ يدق على بابها برجله ، والركاب يضحكون عليه وهو يحاول فتح باب الطائرة

واستمرت الطائرة فى الجو وقد هدأ صوت محركاتها ، فهدأ هو معها وجلس ينظر من النافذة إلى جانبه فرأى الاجنحة تميل إلى جانب مثلما كان يفعل وهو يلعب لعبة الطائرة وحينما مال جناح الطائرة رأى ايجبو النهر وامتداد الادغال المائية (المانجروف) واخذ يقفز على كرسيه فرحا ، ولكنه عاد فرأى السماء فوقه عندما مالت الطائرة إلى الناحية الأخرى فنظر إلى عمته وهى امه الجديدة وقال :

ـ مامى هل يعيش الرب هنا ؟ ونزلت عليه سكينة أسلمته إلى نوم عميق طيلة مابقى من الرحلة .

أخيرا جلس ايجبو امام احدى الموائد وتحسس جيبه ليتأكد من وجود النقود فيه ، وجاءه خادم صغير فى وجهه وشم بارز وظل واقفا ينتظر الطلب دون أن يلتفت اليه ايجبو الذى تنبه اخيرا والخادم يقول له :

ـ ويسكى ياسيدى .

ـ لا ، بل اريد براندى بالليمون .. كأسا مزدوجة من فضلك .

وذهب الخادم واتى بالمشروب وانصرف .. ووقف ايجبو على قدميه قبل أن يشرب أول جرعة من كأسه ، والآن .. الآن ، آنذاك وقبل ان ترفع عينيها وتدرك وجوده اصابه اليأس ولكنه اصر الا ينهزم .

اشار لها ببساطة وتعجب حينما قامت من فورها وجاءت اليه ، واقتربت منه دون أن يبدو على وجهها أى انفعال ومد ايجبو يده اليها ، فأعطته يدها فاتجه بها إلى ساحة الرقص ، وكان راقصا ماهرا تدرب فى جماعة الرقص وقال فى نفسه : اعتقد ان هذا يكفى .. يكفينى اننى امسكت بها . ثم ملأه خوف ووجل حينما تصور نفسه يطلب أكثر من ذلك ، فلربما أدى ذلك إلى

افساد ليلته ، وقرر ان يكون غزوه لها بطيئا تدريجيا بحيث يصل اليها خطوة خطوة ، وربما اقتضى ذلك الا يطلب منها شيئا وربما اطمعه فى زيارة منزلها حينما يدخل فى نطاق جماعة حوارييها .

ولشدة دهشته وجد نفسه يعرف بعض اصول التعامل ، حينما قال من تلقاء نفسه :

- ماذا ارسل إلى مائدتك ؟ ويسكى ام تفضلين الجبن ؟

- انك صغير جدا فلا تبدأ هكذا بتضييع نقودك .

وتركته وعادت إلى حلقتها حيث المتجمعين حولها من حوارييها ، وتابعها بنظراته حتى وصلت إلى مائدتها فوجد المائدة مليئة بالزجاجات من جميع الأنواع وليس بالكئوس فعجب من نفسه وشعر بشىء من الخجل كيف يرسل لها هو كأسا واحدة .

وظل ايجبو بقية الليلة جالسا وحده يراقب الرجال : كبار رجال الأعمال ورجال القانون والأطباء وغيرهم يأتون ويذهبون ، وكان الأطباء كما بدا عليهم أكثر هؤلاء ثقة فى انفسهم لان مهنة الطب كانت فى ذلك الوقت أفضل المهن المرموقة ويمتاز من يعملون بالطب بأنهم اكتسبوا مهارة الرجل الابيض . بقيت سيمى كما هى زهرة برية ذات اشواك قوية أو ضوء لامع تتجمع حولها الفراشات وتحترق وتتساقط عند اقدامها .

والطفيليون أيضا من حولها كثيرون يتولون حمايتها ويقومون بترتيب ملذاتها والدعاية لها ، ويحصلون على عمولتهم ممن يريدون كلمة اطراء عند السيدة ، ويشربون من بقايا موائدها ، وبهم أمل فى رضاها عنهم ، وهم يجلسون فى أماكن متفرقة .. جلس ايجبو إلى مائدته ممتلئا بالغيظ والغيرة ، وشرب كأس البراندى دفعة واحدة ، وامتعض حينما احس بالحريق فى حلقه ينتقل تدريجيا إلى صدره ، ثم نزل عليه نوع من السكينة حينما بدأ يفكر فى المرحلة التى وصل اليها وتذكر صديقه ديجيادى وتطلع إلى شرب شاى منتصف الليل معه فان ذلك قد يغمره بالراحة الحقيقية .

ونادى الصبى وقال :

- اعطنى بقية حسابى .

وجرى الصبى لاحضاره ، وكان البراندى قد صعد إلى رأسه واحال نظرته إلى جو غائم من تراب رياح الهارمتان ، وعاوده الميل إلى افساد الرغبة فى الذهاب حتى أدى ذلك إلى تحطيمه تماما فيما قرره وتذكر أخيرا

آنه مازال كالعذراء ولماذا لاتكون تجاربه مع سيمى ؟ وحدث نفسه بما هو أبعد من ذلك وقد غمضت عليه الحقيقة وضاع أمله فى التراجع ووقف على قدميه بعصبية ظاهرة وهو يظن ان هناك سببا فى ملاحقتها لقد جاء ليأخذها من هذا المكان ، من كل ماهى غارقة فيه فهل يتخذها زوجة له ؟ وتذكر وحدته وتذكر انه ظل ناسكا مدة طويلة انه لايرغب فى اى نساء اخريات ، لماذا ؟ من أجل ليلة يقضيها معهما ؟ لا ، لم يأت إلى هنا لينتهى به المطاف عند هذا الحد ، يجب أن تذهب معه سيمى يجب أن ينتزعها من هنا ويقيم معها منزلا واسرة .

وذهب ليقف إلى جانبها مرة اخرى ، وكان لابد لها أن ترفضه مرات ومرات ، ولكن ايجبو لم يكن ليسمع هذا الرفض ، لم يسمعها تقول له لا : لا اريد أن أرقص ، ولم يسمعها وهى تقول ، الحقيقة اننى متعبة ، ثم سمعها تقول لا احب هذه الرقصة . عندئذ قال لها :

ـ الرقصة التالية اذن ، أليس كذلك ؟

وأخذ يفكر ، لماذا لاتريد ان ترقص فى هذا الوقت بالذات وهو يريد أن يتحدث معها فى أمر هام ربما فى لحظات معدودة قادمة تكون قد ذهبت واختفت لانه يعلم انها تختفى بصورة غامضة ، ففى لحظة تقول أجل وهو كذلك وفى اللحظة التالية تكون قد ذهبت ، ولكن مع من ؟ وتختفى لمدة أيام أو اسابيع .

كيف تكون سيمى بهذه القسوة والفظاظة ، وتقول له ، مرة أخرى ، وقد ينتظر للمرة الأخرى زمنا طويلا ، وقد يكون فى المرة الأخرى غير مستعد كهذه المرة ! ولكنه تمسك بموقفه ، ووجد نفسه دون أن يشعر يحاول جذبها وهو يقول باصرار :

ـ عندى شىء اريد أن اخبرك به .

ردت عليه برقة رغم أن صبرها كاد ينفد :

ـ الا تستطيع ان تقول ماتريد هنا ؟

احس ايجبو بنفسه متصلبا فى مكانه لايتحرك .. هل هى معجزة فيه ؟ .. ذلك الوجه الهادىء الذى يخرج من وسط الطين الذى يكشفه الماء بعد انحساره ، وجه بنت الانهار حينما تستحم .. انها أياباأوسا .. انها أوما ... جنيات الماء ، واذا برجل غريب يقول له :

ـ انظر يافتى الافضل ان تمضى لحالك الم تسمع السيدة تقول لك انها

لاتريد ان ترقص ؟

رجل غريب لايعرفه يقول له هذا ، لايقصد ايذاءه وقف ليجيبه ، لالا لن أكون الشخص الضعيف ابدا ، لايمكن أن أكون ضعيفا حقا كل هؤلاء الرجال اثرياء ذوو مكانة رفيعة .. ماذا أظن نفسىّ بالنسبة لهم ؟ حقا ، ولكن أن يمسكنى رجل بهذه الطريقة التى تتنافى مع كل الموازين ، وان يتحدث إلى أحد هؤلاء الطفيليين بلسانها أو نيابة عنها وبهذه الطريقة الجافة ، ويمسكنى من ذراعى بيده المبللة بالويسكى ويجذبنى بعيدا عنها ..

واذا ايجبو يسمع صوته عاليا ، يعلو صوت الموسيقى الصاخبة يقول :

ـ ابعد يدك عن ذراعى ..

ثم يُقول فى نفسه . احمد الرب اننى غير معروف هنا ، لأطرحه أرضا وهو ثمل ضعيف . واذا بالرجل يقول وهو يجذبه :

ـ ابعد انت من هنا .. من انت حتى ترفع صوتك هكذا.؟

ولحق به اثنان آخران من الفتوات الطفيليين ليشاركوا فى تهديده وتدخلت سيمى قائلة :

ـ لا لا ، اتركوه وشأنه ، لماذا تفعلون هكذا مع هذا الولد الصغير ؟

قال فى نفسه : ولد .. هكذا ترانى .. ولد صغير . ثم جاس فى أول مقعد خال وجده وهو متجه إلى الباب حيث رأى ان من الافضل الا يمضى هكذا من فوره، وظل منتظرا لايرى ولايسمع شيئا ، طال الانتظار لم يرها وهى تترك المكان .

ومضى وقت طويل ، احس كأنه دهر ، لايدرى هل هو ساعات أو لحظات رأى امامه الصبى ذا الوشم البارز فى وجهه يقول له :

ـ هل تريد ويسكى هذه المرة ياسيدى ؟

فسأله :

ـ هل السيدة هنا ؟

ـ لا لا انها تنتظرك فى الخارج .

نظر ايجبو من حوله بغضب وعصبية ، لا يصدق ما قيل له ، حقا ان سيمى غير موجودة ، فزاد غضبه وامسك الصبى من أذنه وهو يقول له : ـ

ـ هل تهزل معى ؟

ـ لا ياسيدى انها هناك فى التاكسى تنتظرك .

والقى ايجبو بنظرة نحو المكان الذى يشير اليه الصبى ، وهو يحاول أن يفيق من حالة الهلوسة التى اصابته ، والصبى مصر على ما يقوله ، ويقول له :

- انظر الى الناحية الاخرى .

وكان باب التاكسى مفتوحا وسيمى بداخله فى الجانب الآخر ، ووقف ايجبو لا يستطيع حراكا ، وسمعها تقول :

- الا تركب معى ؟

ظل ايجبو واقفا وقد كادت قدماه تخوران فيسقط ، وأخذ كل جزء من جسده يرتعد من داخله .

وقال فى نفسه انه يوم عيدى ، تذكر ما قاله احد الفتية الأكثر خبرة عن الدهشة التى قد تصيبه ، واحتمال اصابته بخيبة الامل اذا ظل منهارا خائر القوى ، وفكر فى نفسه .. هل هذا يوم القيامة .. وبينما هو يفكر بادرته سيمى قائلة :

- لا تعرض نفسك للشجار مع الرجال الكبار فانهم قد يؤذونك .

ولكن ايجبو لم ينظر اليها ، وأخذ يبحث عن مهرب له ، يتمنى لو انه فى اى مكان آخر غير هذا المكان ... ان حجرة ديجيادى هى المكان الأمثل الآن فى نظره فإن فيها كل عناصر السعادة والأمان ، وكانت اختياراته الروحية اسرع اليه من الاحباط المتوقع وهو يفكر هل حقا ذلك الغبى قد أتى اليها دون معرفة سابقة سوى شائعات الصبية ، ونصائح سمعها وهو فى الفصل الرابع ، وتحذيرات قيلت آنذاك ، وها هو الآن يواجه الحقيقة بشأنها .

حينما وقف التاكسى ، الذى ركبه معها مد يده فى جيبه ليدفع الاجرة ولكن سيمى منعته من اخراج يده وهى تتحسس جيبه المتورم بالنقود . وقالت له :

- وفر نقودك .

وعندما دخلا الى منزلها أغلقت الابواب والتفتت اليه وقالت :

- لا تكن هكذا شغوفا متسرعا ، انت قليل الخبرة ، وليست لك تجارب سابقة اطلاقا .

وقال فى نفسه : اذا تكلمت فسوف انفجر ، اذا تكلمت فان هذه الشجاعة قد تخور ، وأخذ يسأل نفسه : هل كل النساء هكذا ؟ يعرفن الرجل

من أول نظرة ، هل هن قادرات هكذا على أن يخبرن بما فى دخيلة الرجال ... ؟

ثم ذهبت الى حجرة داخلية ، واخذ ايجبو يدور بنظره فى ارجاء المكان محاولا أن يرى شيئا عدا سيمى ، ولكنه وجد سيمى فى كل مكان .

وقبل أن يبدأ حوارا مع نفسه دخلت سيمى عليه ثانية تختبر مدى هياجه وشبقه ثم أخذ يحدث نفسه : يارب ، فى هذه اللحظة اناديك ، اذا كانت هذه خطيئة فلن أرفع رأسى مرة أخرى طيلة عمرى ، ولكن اتوسل اليك ياربى دعنى هذه الليلة فقط أتعبد هنا ، دعنى لا ارى نورا غير وحى نورها الساطع .

وتوجهت اليه وقالت :

ـ ألم تخلع ملابسك ؟!... ابقها لاتخلعها انك سوف اقوم أنا بذلك .

ولم يشعر بشىء ، كاد يصاب بالخرس والصم سمعها تقول وهى تنزل على ركبتيها امامه ، ثم ترفع عينيها اليه :

ـ انك صغير السن .

ونسى ايجبو نفسه ، وحينما نظر اليها وجد على وجهها مسحة من حزن فخشى أن يكون ذلك حبا ، ولكن لحظة الحزن مضت ، وتحولت سيمى الى ابتسامة سارة واخذت تداعبه وهى تقول :

ـ قلبك ينبض بشدة ، لاتكن مضطربا هكذا ؟

ولمسته لمسة أحس معها ايجبو أنه قد طار فى الهواء ، وأن قدميه لا تقفان على الأرض ، وشعر بالخطر الشديد يداهمه فى تلك اللحظة ، واراد أن يذهب عن نفسه الخوف والوجل فسألها :

ـ ألم تحبى رجلا من قبل ؟

واذا بصوت ريح قويه يملأ سمعه ، واذا به يحاول أن ينطق بكلمات فيعجز ، ولم يستطع أن يدرى ما هو فيه ، وما الذى ذهب بذاته على هذا المنوال ؛ « اننى كالبالون الكبير تتقاذفنى النسمات القوية عاليا فى السماء فوق مطار اوارى ... »

ـ ماذا تقول ياعزيزى ؟

« ... بالون مملوء بالهواء تتقاذفنى النسمات اركب الحشائش العالية فى سماء مطار أوارى حينما تكون الأرض بورا ...

ـ ما هذا ياعزيزى ؟

تلك الرقة التى قال بها هذه الكلمات كانت تعنى الألم ، وهو الذى كان مستعدا طيلة ذلك الوقت ، اكتشف أن الصراع هو الحفاظ على لحظة التعلق فى طرف حاد بأطراف الاصابع بينما حلاوة الدماء تسيل على فهمه ، وطار عقله مارا بكل حياته ، وهو يتعجب مما يعنيه ذلك فى اطار كل كينونته السابقة وما سيصير اليه .

«يارب ، يارحيم ، فى الظلام ابقنى ......

- ما هذا الذى تقوله ياعزيزى ؟

يجب أن تكون فى اللذة خطيئة ، ولابد أن تكون اللذة القصوى لعنة أبدية ، اذا قال له ديديجى ذلك فى غده ، فان حياه ديديجى بسيطة ، بسيطة لحد الموت .

وواصل حواره مع نفسه بصوت عال .

.... من خلال الفيضانات الخفية ينطلق قارب يشق الماء وسط الحشائش الطويلة بلا ترنيمات : يارب لا ترنيمات ، وداعا للمركب الضخم القديم ...

- لكن ياعزيزى ......

...... اخدود يمتد خلال شجر الباوباب نحو السيقان التى تنفرج نحو الاوراق القليلة ، نحو الضباب الذى يحيط بها تكسر فقاعات الاعاصير ، ولكن الفروع تبقيه ....

- عزيزى ، أخبرنى بالله عليك ، ما الحكاية ؟

...... حينما يحيطه الفيضان ، يغرقه الفيضان ، كانت هناك ثمار للانسان جذور حلوة للأطفال ، وفوق السحب الزبد ينتظر ظهور الشخص الذى يختاره الاله ....

.... يشق وسط الضباب المنخفض فى القارب المطلم ... فى الظلام دعنى استلقى ، وفى الظلام دعنى ابكى .

(٥)

أشرق الصباح على الفتاة وهى تتحرك كالمجنونة ، ولم يلتفت ساجو الا لدولاب الملابس ـ فهو لم يدخل حجرة نوم ديهينوا من قبل ، ولم يشعر بها اثناء الليل وهى تتعرض لمحاكمة خالتها وامها لها . وفى النهاية صحبتهما ديهينوا الى موقف الحافلات ، وعادت تتحرك فى الحجرة كالمجنونة تسرع الى ملابسها كى تلحق بموعد العمل ، ايقظته الضجة التى احدثتها ففتح عينيه على دولاب تراءى له مصراعاه أربعة ، وظل يحدق بعينيه الغائمتين فى ذلك الدولاب ثم سألها :

ـ هل اشتريته بنفسك ؟

ـ ماذا ؟

رد عليها صائحا بأعلى صوته كى يتغلب على صوت المطر الذى بدأ ينهمر ثانية :

ـ هل اشتريت الدولاب بنفسك ؟

ـ اذا كان هذا قصدك فلن اجيب عن سؤالك .

ثم عادت فأجابته متضايقة :

ـ بدون شك لم أشتره بنفسى .

ـ هذا أمر لا يستحق الجدل .

ـ اسمع ياساجو ، لم أذق طعم النوم طيلة أمس ، والأن يجب أن أذهب الى عملى فلتحتفظ بما لديك من سخافات حتى أعود .

ـ ان جميع النساء فى هذا العالم يردن أن يشتمن .

وأخذت تحشر نفسها بالقوة فى رداء ضيق ، وهى تتثنى وتتلوى كالسمكة فى المصيدة ، لم يتمالك ساجو نفسه من الضحك عليها وهى تبذل كل ذلك الجهد . وفتحت ديهينوا احدى ضلفات الدولاب واختفت وراءها عن نظره لتكمل لبسها .

ـ لم تجيبى عن سؤالى بعد ، هل دفعت مبلغا كبيرا فى هذا الدولاب ، الضخم ؟

ـ هذا صحيح ، وعليك أن تجلس وتواصل التهكم علىّ .

حينئذ فقط تذكر ساجو المرأة التى رآها فى الليل ، عاودته صورتها وتذكر حينما وقع وأظلمت الدنيا فى وجهه . افاق فى تلك اللحظة تدريجيا

وقد شفى مما كان فيه واعترته الدهشة من ذلك الموقف الحرج الذى وضع فيه ديهينوا واستشعر ذنبه وقال لها فى حذر شديد :

ـ اعتقد أنهم أهلك ؟

ردت عليه غاضبة :

ـ لا ، بل سحرة أتوا من قريتى ، بالله عليك ، ماذا تريد أن تقول عنهم ؟

ـ انا .. لا اعرف .. ولكننى حقيقة ملئت رعبا كما تعلمين ، وقد زاد خوفى اكثر حينما رأيت الشال الذى تحيط به نفسها ، ظننتها من عالم آخر .

ـ انها أمى ، والآن كف عن الكلام فى هذا .

ـ قصدت أن أقول ......

قاطعته غاضبة :

ـ لا يهمنى ما قصدت ان تقول .

وبعصبية وغضب أخذت تلطخ وجهها بالمسحوق بدلا من أن تزينه وتناثر المسحوق على شعرها وعلى ثوبها الرمادى الغامق فقالت غاضبة :

ـ هل رأيت ما تسببت فيه ؟

ـ لم أتسبب فى شىء ، ولكن على كل حال ، أنا آسف .

ثم عاد فسألها بهدوء شديد :

ـ هل كانت هناك مشاكل جسيمة ؟

لم تجبه وظلت صامتة ، ومال عليها يحاول لمسها فتوقفت عن الحركة ثم ابعدت نفسها عنه وقالت :

ـ ماذا بك الآن ؟

ـ لاشىء ، انه ذلك الدولاب اللعين .

ـ بالله عليك ماذا فعل هذا الدولاب .

ـ يا الهى ، تسألين ماذا فعل الدولاب ، اتقصدين أنك لا ترينه

ـ أريد أن أذهب الى عملى .

ـ لا ، لا ، انتظرى ، والا أقسم لآخذنه الى الخارج واشعل فيه النار .

ـ فلتفعل ما تريد ، فهو لن يحترق فى هذا الجو الممطر .

ـ ما كل هذه الزيوت التى تنساب عليه ؟ اخبرينى ، هل أنت مجبرة أن تعيشى معه ؟ هل هو هدية من عمتك أو جدتك ولذا لا تريدين التخلص منه .

وبلغت من الغضب مبلغا فقالت : ـ

ـ لقد اشتريته ، واذا لم تكن تحبه فلتحتفظ بكراهيتك فى نفسك .
ـ المرأة لا ترى عادة الامور على حقيقتها وتكون احيانا عمياء ، لكن لديك على الاقل احساسا بالاشياء ، تفتحين بابه ، أليس كذلك ؟ ولابد أنك لمستيه مئات المرات ، الم يقشعر بدنك من ملمس جلد السحلية الذى يغطيه
ـ شكرا على هذا ، عدت الى ثرثرتك القديمة ، لن تنسى ابدا انك كنت فى امريكا ، ولن تنسى الحديث عن أثاثات المستقبل .
ـ ليست مسألة طراز ولكن كيف تتحملين لمس مقابض هذا الدولاب ؟
ـ المقابض ؟ انها أحسن جزء فيه .
ـ اذن لابد أن مشاعرك تجمدت واصبحت كتلك الاشياء البشعة . لماذا بالله عليك لا تريدين شراء مقابض بزخارف وردية ؟ انظرى الى الطلاء ، أكاد اصاب بالغثيان كلما نظرت اليه .
ـ حقا لأنك شربت كثيرا الليلة الماضية .
وانتقاما منه ضربت ضلفة الدولاب بشدة ، وشعر كأن محركا يدور بشدة داخل اذنيه نتيجة لاهتزاز الدولاب ، والآن فقط أدى ذلك الصوت المرتفع الذى صدر من الدولاب الى شل حركته بصورة موقتة تداعت عليه الاشياء فى هذه الساعات المبكرة من الصباح ، بعد تلك السهرة الراقصة ، تذكر نفسه وهو عائد بسيارته واذا بحصاة كبيرة تتجه نحوه ببطء ، فاراد أن يتجنبها بإبعاد رأسه ، ولكن الحصاة سقطت على الزجاج الامامى لسيارته فكسرته ثم ضربته على صدغة الأيسر ، فأحس كان رأسه يتشقق ، مثلما تشقق زجاج السيارة وانتظر حتى ينتهى الأمر تماماً ، ولكن جمجمته ظلت سليمة ، ودون أن تنفصل أخذت تدور وتدور وهو ينتظر عقله كى يمسك بالقطع المنفصلة منها قبل أن تتفكك وجد ساجو الانتظار أمرا غير انسانى مثل الرجل الذى يظل يقظا ينتظر القاء الفردة الثانية من حذاء جاره الذى يسكن فوقه كى يأتيه النعاس ، راح فى غفوه فجأة وجد نفسه فى حفرة عميقة .
تماسك ساجو فجأة ، وانتظر امرا جسيما فوجد نفسه فى وسط النهر غارقا فى الطين تماما مثلما حدث فى ليلة بربون ... ثم تمتم بكلمات : انتهى الامر هنا حيث بدأت . اما بالنسبة للدولاب فقد تراءى له كغول كبير جاثم امامه .

كان ذلك الدولاب قديما به زخارف على شكل القلب ، وخشبه مطلى بطبقة سميكة من الطلاء تبدو كأنها لينة تجرى على سطح الخشب الرخيص ، أما قلب الدولاب فانه اسوأ من خارجه ، هكذا بدا حينما فتحت ابوابه ، فى داخله رف عليه حقائب وصناديق قبعات وركز نظره على صندوق قبعات موضوع بداخله ، تركز كل مادار فى رأسه التى يتصبب منها العرق على الصندوق ، وأخذ يفكر ، واسلمه استطلاع خياله الى التفكير فى السيد صاحب القبعة واخذ يتصور اجزاء وجهه .

وادى به الجهد الذى بذله فى التفكير إلى عودة الاغماءة وسقط برأسه على الوسادة ، وتبلل وجهه بالعرق ، تمنى لو أن ديهينوا لم تتركه وحيدا ، لقد كانت مزعجة ولكن يديها ناعمتان رقيقتان ، تذكر الرجل ... انه السير درينولا اسم رئيسه فى العمل ، واستدار برأسه لينظر الى صندوق القبعة ويقول :

ـ لاشك انك السيرد درينولا ... ولكن لماذا انت هنا رغم أنك ميت .

وضاقت عليه الحجرة أكثر فأكثر حينما وجد ساجو نفسه يركز نظره على طلاء الدولاب الكريه ويقول فى نفسه : سلام ياسيد درينو ، آه لكنك مع الأسف بلون السحلية ياسير درين وجلدك غائم مثل جوالهارمتان رغم أنك صببت على جلدك عدة أوجه من طلاء زيتى .

وفى تلك اللحظة التى ظهر فيها الفارس الميت بالقبعة ، والشعر المستعار ، واذا بستارة النافذة تتطاير الى داخل الحجرة وترفرف قرب كتفه كشرائع السفينة تدفعها الريح الرطبة ، وعجز ساجو عن أن يقترب من النافذة ليغلقها ، بينما استمر المطر فى التدفق ، ونفذت قطراته داخل الحجرة ومست بعض القطرات شفتيه فأخذ يرتشفها وهو يتلذذ ، وزادت حركة الستار ووصلت الى صندوق القبعة الذى كاد يقع من فوق الدولاب تذكر ساجو ذلك التحقيق المصور عن السير درينولا وصورته فى الأخبار بقبعته العالية ، وهو يتجول فى حدائق سان جيمس أمام الملكة لتمنحه لقب فارس المملكة .

عندئذ قال بصوت عال :

ـ لايهمك شىء ياسيردرين ، سوف يدفنونك بلقب الفروسية ، دعنا نرى القبعة الآن ، ماذا ستفعل بالقبعة العالية ؟ اذا لم تستخدم الشعر المستعار ؟

استغرق ساجو فى الضحك وهو يتذكر السيردرينولا وهم يلقبونه بالشبح .
اختلطت عليه أصوات الرياح ومنظر الرداء الضيق على جسد ديهينوا والصندوق القابع فى مكانه واذا به يرى مصراعى الدولاب يفتحان ببطء شديد ويخرج منه الفارس ويخطو خارج الدولاب عاريا الا من حماله ..صدر ديهينوا ، عندئذ شعر ساجو بخوف مفاجىء يغمره وأخذ يصيح بصوت غلب على صوت المطر : ـ

ـ آه آه آه ماذا تريد ياسيردرين ؟ تبدو هكذا إنسانا فاسقا !
ورد عليه الشبح بصوت أجش :
ـ انك مخطىء ، انك مخطىء جدا ياسيدى ، ليس الأمر كما تظن ، فانا لا أقصدك بسوء ، لا عليك ، فان ما تراه من عورتى مجرد دودة معلقة .
ـ لا بل أحتج على تصرفك ياسيردرين ، هل كل رؤساء المجالس يفعلون مثلك ؟ هل هذا سلوك شخص كان قاضيا فى يوم من الأيام .
ـ آه لا تذكرنى بذلك ؛ لا يمكن لأحد أن يثق فى هؤلاء السياسيين ، أنت لا تعلم كم غشونى وتآمروا على .
ـ هل فعلوا ذلك حقا ؟
ـ انكم أيها الشباب لا تعرفون شيئا ، ولكن لابأس ، فحينما يصل حكم البلاد الى أيديكم عليكم أن .... لا .. لندع هذا الأمر ولنعد الى موضوع هام : أليست لديك أى فكرة عن كيفية دفنى ؟ لعلك تعرف ما اشعر به الآن من قلق .
رد ساجو باصرار وعناد قائلا :
ـ عليك بالعودة من حيث اتيت ،على الأقل لتغطى عورتك ، غط نفسك اولا ، أو تخلص من تلك الدودة المعلقة بجسدك .
ـ ما فائدة الملابس لى الآن أيها الشاب الصغير ؟
هز ساجو رأسبه موافقا وقال :
ـ حقا ياسيردرين انت لا تحتاج الى كثير من الملابس .
ـ لا ، لا احتاج الى ملابس ، الآن لا استطيع أن أغير مبادئى فالملابس لا تصنع الرجال ، أتتذكر أن الصحف والمجلات كثيرا ما استعارت حكمتى هذه فى مقالاتها .
قال ساجو وهو يسد أذنيه باصبعيه :

ـ لا تكمل حديثك ياسيردرين ، أرجو أن تنسى أننى كنت هناك وهز الشبح رأسه تعبيرا عن الأسف وقال :
ـ طبعا كنت هناك ، رأيت الكثير من أمثالك هناك ، فكيف اتذكر من الذى أهاجمه وأتهمه ، وكيف أفرق بين الناس ؟ ولكننى آمل الا تحمل لى أى ضغينة ، فقد كنت أؤدى واجبى طبقا لما يتكشف أمامى .
واشاح ساجو بوجهه عنه وهو يتمتم ، لكن الشبح عاد فقال :ـ
ـ على أية حال ، ألم أدفع ثمن ذلك ؟ حينما اعتلت الجماعة الأخرى السلطة ألقوا بى الى الخارج ، نعم أعلم اننى قدمت استقالتى ، ولكن ماذا تتوقع أن أفعل خلاف ذلك ؟ مع كل هؤلاء الشباب الذين وضعوهم فى وظائف أعلى من وظيفتى .
وبدأ صوت شبح درين يرتفع ضاحكا ، ضحك غريب فتردد الصدى وادى الى تهدئة حالة السكر عند ساجو ، وواصل الكلام قائلا :
ـ ترى أنه ليس بالامكان اسقاط الرجل العظيم ، فقد حصلت على لقب الفروسية ، وذلك هو السبب الذى يجعلنى احتفظ بحمالة الصدر .
اعترف سيجو بأنه لم يستطع أن يدرك العلاقة بين حمالة صدر ديهينوا ولقب الفروسية فرد عليه شبح السير درينولا قائلا :
ـ حينما يعطونك لقب الفروسية يعلقون على صدرك أشياء ولهذا احتفظ بالحمالة على صدرى بدلا من تلك الاشياء .
ـ ياسيردرين ، ألومك الآن ، كيف تعلق النياشين دون أن ترتدى ملابسك ؟
ـ لا ، لا أيها الشاب الصغير ، لا تحاول أن تغلبنى بهذه النقاط القانونية ، اننى أعرف القانون ، زملائى القضاة يعترفون بذلك ، وان كان السياسيون فقط هم الذين ينقدوننى ولايعترفون بما أقول .
ـ أسأت فهمى ياسيدى الفارس ، أعنى أن فلسفتك تقول إن الشعر المستعار لايصنع القاضى .
حدق الشبح فيه ثم تساقطت حبات كالرمال من عينيه ، وتابع ساجو حواره معه قائلا :
ـ على هذا الاساس ، هل يمكن لهذا النياشين أن تصنع منك شيئا ؟
ووقف الجثمان يعبث بحمالة الصدر المعلقة اسفل ذقنه ، وفى تلك اللحظة تحول المنظر الى صاحب الجثة الحقيقى ، وامتلأ الجو برثاء

مصحوب بخوف حينما لاح فى مسامع ساجو قوله وهو ينتحب :
ـ لكنهم أخذو منى كل شىء .. كل شىء .
فرد ساجو قائلا :
ـ لقد اخترت مصيرك بنفسك .
ـ وبسرعة استعد الشبح للدخول الى الدولاب ، واختفى بين مصراعيه ثم لاحت ديهينوا أمامه تفتح الدولاب وهى تسأله :
ـ مع من تتكلم ياساجو ؟
ـ كنت انطق بصلوات .
ـ يبدو أنك كنت تتحدث مع أحد .
ـ ربما كنت أتحدث مع نفسى .
ـ لابد أنك مريض .
ـ أعرف ذلك ، هذا الدولاب يسبب لى السقم والغم والمرض .
وبدأت ديهينوا تجفف ماء المطر الذى القت به الريح على جدران الدولاب ، وتابعها بعينيه وهو مندهش يحاول أن يتبين ماذا يقلقها ، وفجأة القت بنفسها فوق السرير بقوة ومالت فوقه ، فأصابته الدهشة من المفاجأة وقال لها صائحا .
ـ لا تلمسينى .
مالت فوقه لتنظر الى المكان الذى يفصل بين السرير والحائط ، تراجع ساجو فى مكانه وهو يقول :
ـ هل هناك ما يدعو ألى المفاجأة .
ودون أن ترد دفعت السرير لتعيده الى جانب الحائط ، بعد أن أخرجت غطاء السرير والقته عليه وهو يرتعد بشدة من تحته ويقول :
ـ قتيل !! قتيل !!
ردت عليه قائلة ، وهى تنظر اليه باشفاق :
ـ من الأفضل أن يراك الطبيب .
ـ لا شىء يستدعى ذلك ، اذهبى انت الى عملك .
ـ لماذا كنت تصيح . هل كنت تظن أننى أهاجمك ؟ انظر الى يدى ـ هاك يداى ...
فامسك بهما وهو يقول :
ـ يداك ترتعشان ، هل ذلك نتيجة ماحدث الليلة الماضية .

ـ لا علاقة لهذا بالليلة الماضية .

ـ لقد دفعت السرير نحو الحائط ، وانتظرت حتى دخلت برأسى من الباب ثم اقفلتى الباب اللعين وضربتنى على رأسى بهراوة غليظة ، لماذا لم تكسرى رأسى بفأس ؟

كان ساجو مازال متأثرا بسقوطه على الأرض ، وكانت ديهنيوا تعرف أن الرجال مثل الأطفال لايتحملون الآلام ، فجلست الى جانبه على السرير وأسندت رأسه الى فخذها وأخذت تربت عليه حتى استسلم لها وبدأ يشعر بالخجل من نفسه ومن ضعفه ثم أبعد رأسه وهو يقول :

ـ ابتعدى عنى ، لماذا عدت بعد أن خرجت ؟ ، واذا كنت تنوين اغضابى فعليك أن تجففى نفسك أولا .

وتعجب لرد الفعل الذى أحدثه فيها ، فسرعان ما أغرورقت عيناها بالدموع أخذت تتنقل فى انحاء الغرفة ثانية فقال لها ساجو :

ـ لعلك تبحثين عن شىء ؟

ـ نعم ملف من الملفات أتيت به معى بالامس .

ـ أهو من ملفات المكتب ؟

ـ لا .. بل ملف الأظافر .

ـ لا داعى لان تكونى شكاكة لعينة ، قولى لى هل كان مكتوبا عليه سرى للغاية .

ـ اذن رأيته .

ـ لا .. بل أظن اننى رأيته ...

ـ ارجوك يابيودين اخبرنى أين رأيته .

ـ تحت المقعد الامامى للسيارة

ـ ولكن ....

ـ وضعته بنفسى ، بعد أن نظرت فيه حينما كنت انتظرك امام المحل ، وكدت أن تكتشفى أنه فى يدى فأخفيته تحت المقعد .

نظرت اليه نظرات حادة كما لو أنها تفكر فى قتله فقال من فوره متهكما .

ـ لم أجد فيه شيئا هاما ، ليس به ما يمكن أن أستخدمه فى عمل فضيحة صحفية ....

وما ان انتهى من كلامه حتى تصلب جسمه وتشنج ، ولكن هذا لم يعفه مما فعلته ديهينوا ؟ فقد فتحت الباب وخرجت ، وجعلته ينتظر وينتظر ثم

أغلقت الباب بأقصى قوتها مما احدث صوتا عاليا هز رأسه وأفزعه فقام وهو يقول فى نفسه : امرأة كهذه يجب أن تضرب حتى الموت، وقفز ليلحق بها ، وما أن خطا خطواته الأولى ناسيا انه خائر القوى ، حتى سقط على الدولاب الذى تخيل أنه يدفعه فارتد الى الخلف وقد اعتراه إستغراب من ذلك الجسد الذى دفعه الى الخلف ، إنه يعرف جيدا أن رأسه قد لعبت به ، تمنى أن يحدث ذلك فعلا ، تذكر انه تسلق حائطا ـ وهو طالب ـ كى يصل الى نافذة فى الدور الثالث اثناء ذلك أجبره أحد رجال شرطة نيويورك أن ينزل مهددا اياه بمسدسه ، فلما نزل وسأله عما يفعل ، قال « كنت احاول الوصول الى حجرة نومى » فابتسم الشرطى وقال له « فعلا ، لقد عدت منها لتوك ايها الزنجى الاسود ».

ظهر له شبح السيردرينولا للمرة الثانية بعد أن راح ساجو فى إغفاءة قصيرة ساءت حالته ، ولما أفاق من اغفاءته رآه يستدير نحوه وقد بدت اردافه مثيرة للضحك مما جعل ساجو يقهقه بصوت مرتفع الى أن عاوده الدوار الذى أصابه يوم انكسر زجاج سيارته .

نظر اليه درينولا وقال :

ـ هل هذه فتاتك ؟

لم تكن لدى ساجو رغبة فى الكلام ، فتظاهر بأنه نائم ، وعندما ادرك الشبح ذلك قال بصوت ملؤه الأسى :

ـ الا تريد أن تتكلم معى ؟ تعلم انك صديقى الوحيد .

ـ صديقك الوحيد ؟

ـ نعم صديقى ، هل نسيت الماضى القريب ؟ كنت صديقى وسبق ان قلت لى كلاما صريحا ادركت قيمته فيما بعد إذ لم يكن هناك مجال للصراحة والصدق فى تلك الأيام .

ـ لا اعتقد ذلك .

ـ الآن لم يبق لى شىء سوى الحقيقة ، كل ما أملكه الآن هو ان اراقب الامور طيلة النهار والليل ، وانتظر .. وسأنزع هذا الصديرى الآن كى ترضى عنى .

ـ ماذا يعنينى فى هذا ؟ ألم تكن فلسفتك ان الملابس لا تصنع الانسان ؟

ـ انت على حق ، فلا تجعلهم يدفنونى الا هكذا ، عاريا من كل ملابس ، بلا كفن .

- افهم من ذلك ... ان الكفن لا يصنع الجثة .

أومأ السيردرين برأسه واتخذ سبيله الى داخل الدولاب واختفى فيه .

كان من الصعب على ساجو أن يفكر فى السيردرين على أنه قد قضى نحبه فمازال يذكر أول مرة قابله فيها فى لجنة الاختبار الشخصى التى لم توافق على توظيفه فى أول الأمر فى جريدة الرأى المستقل وكان ماتياس الساعى هو أول من تنبأ له بالوظيفة حين مارس معجزاته ، فبشره بالوظيفة .

ولكى يحتفل ساجو بتسلم الوظيفة التى حثه ماتياس لدخول الاختبار الشخصى من أجلها ، أرسله ساجو ليشترى له زجاجتين من الجعة فى أول يوم تسلم عمله ودعاه لمشاركة الشراب ، وقال :-

- أغلق الباب ياماتياس ، وخذ الزجاجة الثانية .

أخذها ماتياس وهم بالخروج وهو يقول :-

- سأشربها فى المقصف .

- لماذا ؟ أريد أن تشاركنى الشراب ، ام ان وجودى سيفسد عليك شرابك ؟

أحس ماتياس بالحرج جلس على طرف الكرسى فقال له ساجو :

- اذن اجلس وخذ راحتك اريد أن اتحدث معك .

- احيانا يطلبوننى فى المكاتب الأخرى انا ساعى فى مكتب صحافة ، ولا أجلس ابدا .

- انى كموظف مستجد هنا لابد من شخص يعرفنى بالأمور ، اليس كذلك ؟ اريد أن احتكرك اليوم لهذا الغرض ... اشرب ياماتياس .

- تحت امرك ياسيدى .

- ارجو الا تقول لى ياسيدى .

- سمعا وطاعة ياسيدى ، آسف لسعادتك

- لاتتنس .

- سمعا وطاعة ياسيدى .. يا أوجا

- تقول سيدى مرة أخرى .

- وانفجر الاثنان فى ضحك وقهقهه .

- عليك بالصبر على ياسيدى حتى اعتادها ، فالأمر يحتاج الى وقت

- اسمع ياماتياس ، انت الشيء الوحيد السعيد الذى اتى بى الى هنا ،

واذا بقيت هنا فسيكون ذلك بفضلك .
ـ كيف ياسيدى ؟
ـ كيف اشرح لك ، لقد شعرت منذ رأيتك أول مرة وانت تبشرنى بالوظيفة أننا روح واحدة .
ـ روح !! .. لا تقل هذا يا أوجا ، لا تذكر الارواح هنا .
ـ اسمع ياماتياس ان قولك أوجا أسوأ من قولك ياسيدى وانا لا احبها ، وكنت أود أن تنادينى بيودون لولا ضرورة وجود مراتب فى العمل .
ـ وكيف نحل هذه المشكلة يا أوجا ؟
ـ الحل الوحيد هو أننى اناديك ماتياس باسمك وانت تنادينى مستر ساجو ، اننا روح واحدة ومعنى ذلك اننا متساويان .
ـ كيف ذلك ياأوجا .
ـ اتذكر يوم جئت للاختبار الشخصى .
ـ آه نعم ، حينما سألتنى عن دورة المياه وتحدثت معك .
ـ بالضبط يا ماتياس ، ولكى اشرح لك ما اقصده سأقرأ لك جزءا من خطبة مهمة القيتها ايام كنت أتفلسف ، سأقرأها ، كل يوم هنا ، واذا كانت لك أسئلة أو استفسارات فاسألنى ولا تتردد ، سنجعلها انجيلنا نقرأ فيه كل يوم ليعطينا القدرة والقوة لانك رجل متدين مثلى .
هز ماتياس رأسه دون أن ينطق ، ورفع ساجو زجاجته وقال لماتياس :
ـ لنشرب نخب حبنا ، سيساعدنا ذلك كثيرا
وجلس ماتياس يتلفت خلفه نحو الباب وهو قلق يحتسى الجعة من الزجاجة ، واستعد ساجو ليبدأ الكلام وقال :
ـ أنت ياماتياس انسان نقى بطبعك وخالى الذهن .
ـ ماذا ياسيدى ؟
ـ لايهم ستفهمنى بالتدريج بعد جلستين او ثلاث ـ لا تتعجل ، انت على الفطرة ، فقط عليك معرفة اساسيات الامور .. لكن من الناحية الروحية ...
ـ انتظر يا أوجا فأنا لا أفهم .
ـ ليست هناك صعوبة فى الأمر ياماتياس ، استمع وسوف تفهم هذه الفلسفة الحقيرة .
انتبه ماتياس فى استغراب شديد وأخذ ساجو يسلك حنجرته ثم بدأ يقرأ : ـ

« .... اليوم اتخذث من منطلق المذاهب ، من الماركسية الى الوجودية ، فاذا كنت ذا صفة شخصية فان ذلك يرجع الى اننى اعطيت نفسى التاريخ ، لا أفعل أكثر من أن أكشف عن اسرار تطورى الفلسفى ، عن هذا النوع من الطقوسية التى لا ادين فيها لأى من السلف الصالح ولكن للانسانية كلها ، انها رؤية لا اعرف لها سببا ولكنها الطبيعة الثابتة .

اذا كنت ذاتيا فلأن علىّ أن أرتفع الى مستوى معظم الفلسفة الفردية فى الوجود الانسانى . فسواء كان المذهب وظيفيا أوروحانيا أو طقوسيا او ابداعيا فان الفراغ هو الفلسفة الحقيقية للذاتية الحقيقية . فلنقل ان الفراغ هو الكمية غير المعروفة ، والفراغ هو آخر المناجم غير المسجلة للطاقة الابداعية وفى تناقضه تكمن الطقوس الابداعية فى انطلاقة الميلاد . لست المسيح ، ولذا اشعر بأننى قد ولدت لكى أؤدى ذلك الدور ، لان الطبيعة الوراثية المتمثلة فى أمراضى وعللى هى مصدر التقليد الاول لاستشهادى وتأليهى الحتمى ، لقد ولدت بمعدة انفعالية ، فاذا كنت غاضبا تتمرد معدتى ، واذا كنت جائعا تثور واذا كنت مصابا بالاحباط تضطرب . واذا لامنى أحد تتقلص ، تعبر عن القلق والاضطراب بالتمدد والتقلص وتصاب بالشك والريبة اثناء الامتحانات ، تستجيب لمشاعر الحب . يا أصدقائى الاعزاء ، ان لصاحب الرسالة مكانته وفى أغلب الاحيان كنت اشك فى الادعاء وكان العقاب يجىء سريعا ، وكان هناك مؤثر آخر ساعد على تشكيل الفراغ الذى انطويت فيه هو عمتى التى شهدتها فى طفولتى العزيزة حينما كانت تتردد علينا فى زيارات منزلية ، والاكثر من ذلك كان أثرأمى التى تشبهها فى قسوتها ، فقد كانت متدينة شديدة الحماس وكان حماسها الدينى يزداد مع اقترابها للقبر حتى اصبحت تتحدث إلى الآلة بصوت مرتفع بعد صلوات المساء وتنادى افراد المنزل جميعا ليقولوا آمين بعد كل دعاء ، حتى بعد أن تطلق الرياح من بطنها وتقول الحمد لله كان لابد أن يقول الجميع آمين آنذاك . مفهومى عن الصلاة وعن غيرها من أمور الحياة يتبلور بخاصة حينما اندفع بطبيعتى الى الاختفاء فى الحمام كى اطلق ما فى باطنى من ارياح . فمنذ ذلك الوقت من حياتى بدا شعورى بالانتماء الى دراسة منظمة نسقية لموضوع سلوكيات هضم الطعام بالنسبة لطفل حساس فى سنى ، واستجبت الى الوضع المعتاد ، وفى احيان اخرى كنت اشعر بتماسك نفسى والوصول الى نتيجة ، فيها

القبول ، وتحقيق السلام ، ونما عندى التقارب الروحى من عالم الاحزان والمتناقضات .

توقف ساجو عن القراءة ونظر الى ماتياس واغلق الصفحات وقال :

ـ يكفى هذا اليوم ياماتياس ، هنا ينتهى الدرس الأول .

وبنظرة مستغربة قال ماتياس :

ـ وهو كذلك ياسيدى ، شكرا جزيلا .

وترك ساجو لتأملاته وهو يحمل زجاجة الجعة وغادر الحجرة وهو يخفى رغبته الشديدة فى الهروب من الموقف .

وبينما ينتظر ساجو تقرير لجنة الاختبار الشخصى قام بأول جولاته فى ارجاء المكان ، الذى كان ، حسب ما قال ماتياس ، قد اختير لاسباب سياسية ، فان لكل مدينة منطقة فيها عشش ، وكانت منطقة ايزالى ايكو احدى المناطق التى ترمز لانتصار العواصم الافريقية وتميزها عن الدول الاوروبية فى هذا الجانب الحضارى ، فالقلة من الاجانب الذين كانوا يبحثون عن شىء يهاجمون به الملونين كانوا يجدون في ايزالى ايكو ذلك الشىء ففى هذا الحى لابد أن يمضى السائر لاعبا لعبة الحجالة يقفز من مكان الى مكان متخطيا أكوام الفضلات ويصيبه الغثيان مما تلقيه ربات البيوت فى احواض الغسيل ، وكان لجريدة الرأى المستقل مبنى ضخم فى ذلك الحى القديم ، كانت صحيفة حزبية اتخذت هذا الموقع لتوجه المؤامرات المحلية حيث كانت ايزالى ايكو من انسب الاماكن لهذا النوع من النشاط .

وشرح ماتياس الموقف لساجو قائلا بلهجته الانجليزية اللثغاء :

ـ جاء المقاول وقام بعمل التعديلات اللازمة داخل المبنى حيث الجدران تعفنت من أساسها نتيجة المياه التى تلقيها النساء قرب الحائط فهدموا الحوائط وبنوها من جديد ليحولوها الى مكاتب .

توقف عن الكلام بضع دقائق حيث أخذ ساجو ينظر من النافذة ليرى الجدار مطلا مباشرة على مصرف مكشوف تجرى فيه المياه المنصرفة من المطابخ ودورات المياه بسرعة محدثة دوامات مصدرة خريرا ينبعث الى المسامع مع ما ينبعث منها الى الانوف من رائحة عفن شديد .

واصل ماتياس حديثه قائلا :

ـ أشم هذه الروائح منذ اشتغالى فى هذا المكان حتى غدوت بدينا كما ترانى هكذا .

وطلب منه ساجو أن يشاهد المقصف وطلب قهوة لم يشربها ولكنه دفع ثمنها فقد كان بفنجان القهوة شرخ ملىء بالقاذورات يقسمه الى نصفين ، اما رائحة الدهون فانبعثت عفنة من حوض الغسيل الذى نقعت فيه الأطباق منذ انتهاء وجبة الغداء بالأمس ، او ربما كانت تلك الرائحة منبعثة من الفتاة التى تتولى خدمة المحررين والموظفين والتى لم يكن عمرها يزيد على الثامنة عشرة ، حيث تبقى فى دورة الخدمة مدة اربع وعشرين ساعة متصلة دون ان تغير ملابسها أو تغتسل . نظر ساجو اليها وهى تتحرك امامه فتهز اردافها يمينا ويسارا ، وترفع ذراعها لتعدل من حاجبها فتظهر تحت ابطها بقع بيضاء وسوداء نتجت عن اختلاط المساحيق مع عرقها المتصبب ، اما وجهها فهو مبيض مما يدل على انها تغسله وتضع عليه طبقات من المساحيق والدهانات كل يوم .

وفاجأها ساجو بسؤال بالانجليزية :

ـ هل تردين أحيانا على التليفون ؟

فأجابته بهمهمة تدل على انها لم تفهم السؤال ، اعاد عليها السؤال مرة اخرى قائلا :

ـ أأنت عاملة تليفون ؟

ـ اتسألنى أنا ؟

ـ نعم أنت هل تعملين .... على كل ....

وتوقف ساجو عن محادثتها واتجه الى ماتياس قائلا :

ـ لا استطيع انتظار لجنتكم أكثر من ذلك .

وهم بالانصراف ، فاستوقفه ماتياس قائلا :

ـ لاتنصرف ياأوجا ، لقد دخل الزعيم وينسالا ، وليس أمامك الا شخص واحد وينادون عليك .

وفوجىء الاثنان بضجة فى الخارج وآلة تتدحرج محدثة صوتا مزعجا آتيا من الركن الذى تجلس فيه موظفة الاستقبال ، ونظر ساجو ناحية الضجة فرأى خيمة كبيرة من قماش سميك مطبوع عليه شعار استقلال نيجيريا عام ١٩٦٠ . فنظر الى ماتياس نظرة تساؤل ولكن ماتياس كان مشغولا ، وتكرر حدوث الصوت ورأى ساجو فتاحة خطابات معدنيه تقطع

تلك الخيمة الكبيرة التى يلبسها الرجل ، ورأى رأس انثى تطل وتستغيث قائلة : النجدة انه يخنقنى » ..

وقف ماتياس مذهولا وهو يحمل صينية بها فنجانان من القهوة يتمتم بكلمات الاستغراب ، وفجأة سقطت الخيمة بمن فيها الى الخلف وسقطت القلنسوة العالية المطرزة ، ثم وقف الرجل الذى يلبس الزى الغريب بجسمه الضخم وقامته البالغة سبعة أقدام واخذ يجمع اطراف ثوبه ويصيح : « أين تلك اللعينة الفاسقة ؟ » ثم رآها فقال : « هاهى تلك اللعينة » وحاول الأمساك بها ، ولكنها اختفت تحت المكتب وهربت الى خارج المبنى ولم تحضر بقية اليوم فى العمل . نظر ساجو الى ماتياس وسأله :

ـ من ذلك العملاق ؟

ـ انه الزعيم وينسالا الذى حدثتك عنه ، انه مثل دافيد وجوليا مع تلك الفتاة .

كان سكيرا مدمنا ، لأن رجلا فى مثل مكانته الرفيعة عليه ان يحافظ دائما على اتزانه ، فسرعان ما تراجع عن موقفه ، وكأن شيئا لم يحدث ، واتجه اليه ماتياس قائلا :

ـ سيدى الزعيم . سيدى الزعيم ، ماذا أقول لاعتذر لك .

ربت وينسالا على ظهره بيده الثقيلة فاهتزت الفناجين وانسابت القهوة على الصينية ، وقال الزعيم :

ـ ماحكاية هذه الفتاة اليوم ؟

رد ماتياس بعد أن عدل وضع فناجين القهوة :

ـ انها موظفة استقبال جديدة ، لاتعرفك يازعيم .

ـ آه ، موظفة جديدة ، لاعجب أن تفعل ذلك .

وانتهز ماتياس الفرصة وقال للزعيم :

ـ هذه القهوة لا تصلح ، فهل اذهب الآن لأنادى مراجعى النصوص .

كان ماتياس يعرف الرجل تماما ، وفعلا أدخل الزعيم يده فى جيب الثوب العميق واخرج بعض النقود المعدنية واعطاها لماتياس وهو يقول :

ـ خذ هذه وقدم قهوة لجميع العاملين هنا رجالا ونساء ، وقدم فنجانين من القهوة لكل امرأة .. اذهب حالا ونفذ ما أقول .

وبعد نصف ساعة جاء دور الاختبار الشخصى وتذكر صحة ما قالته ديهينوا له يوما « اننا دائما نستخف بصغار المجرمين » ، اذ كانت الحجرة

التى دخلها متسعة كالمسرح ارضها مفروشة بسجاد تغوص فيه الأقدام . وفيها اثاث فاخر وحوائط مبطنة بالخشب والستائر والمقاعد ، وتكييف الهواء وغير ذلك من مظاهر البذخ والثراء مما يتناقض مع الشكل العام للمبنى .

وحول منضدة الاجتماعات المصنوعة من اجود خشب الماهو جنى توجد مقاعد دوارة وثيرة ذات مساند ، أما مكتب المدير العام ففيه زخارف مذهبة وحروفها مدعمة بالنحاس اللامع وكذا مقابض الادراج ، وفى ركن من أركان الحجرة يقبع جهاز راديو بيك آب ضخم ذو تسعة ازرار ولوحة الراديو بها تسعة خطوط موجات مختلفة الالوان اشتراه المدير العام من المانيا اثناء جولته الحادية عشرة حول العالم ، رآه فى أحد المحلات الكبرى دون أن يعرف عنه شيئا ، فبهر به وقال : « شىء عظيم ، شىء عظيم ، إن هذا ما اريده » ولقى من مندوبة البيع اطراء على حسن اختياره وذوقه ، فدعاها الى الفندق لتشرح له كيف يعمل فردت عليه بأن طريقة التشغيل موجودة بالتفصيل فى الكتيب المصاحب للجهاز لانه لا يعرف الالمانية ، فلما قالت له أن الكتالوج به طريقة الاستعمال بالانجليزية والفرنسية والاسبانية والعربية نظر الى السكرتير المرافق له وقال « الاترى أن الفتيات الالمانيات يتصفن بالغباء الشديد » .

اختلس ساجو نظرة الى القاعة الضخمة من خلال مصراع الباب المفتوح ، ثم نظر خلفه فى صالة الانتظار فوجد خمسة آخرين ، واتجه الى ماتياس من فوره يسأله :

ـ اين دورة المياة ؟

فأجاب ماتياس :

ـ لاتنزعج ياسيدى فانهم لم ينادوا عليك بعد .

ـ مازلت انتظر .

أشار له ماتياس الى دورة المياه ، سار معه نحوها وهو يقول :

ـ اذا أردت ان تتبول فيمكنك أن تذهب خلف المبنى .

ـ اذن أريد أن أجلس فترة آخذ فيها راحتى .

ضحك ماتياس بقهقهة عالية وهو يقول :

ـ لم أسمع من قبل عن أحد ياخذ راحته فى دورة المياه .

وما أن اقترب من دورة المياه حتى سبقته أنفه تشم رائحة نفاذة تفوح

من بعد لاتكاد الانف تطيقها ، وعندما اقترب أكثر لاحت له أكوام الورق الغارقة فى الماء المتعفن وأوراق الجرائد الغائصة فى كتل القاذورات السوداء ملقاة هنا وهناك فى داخل المكان ، هنا قال له ماتياس :

ـ أظن أنك تتساءل عن هذه القاذورات

ـ لا، لا ، ولكن اليس هناك مرحاض آخر .

ـ لايوجد سوى مرحاض السيدات فى الدور الثانى .

ـ فلنجربه .

رد عليه ماتياس وهو يضحك ضحكا عاليا :

ـ هذا ليس أفضل من ذلك ، هناك الحمام الخاص بكبار الناس مثل رئيس التحرير وغيره سأذهب لاتيك بالمفتاح ، لكن أخشى أن يضبطنا رئيس التحرير نستخدم مرحاضه الخاص .

وانصرف ساجو عما كان يريده من دورة المياد وأخذ يفكر فى المجلس الذى يغلق دورة مياد كاملة لراحة اعضائه ، وقال فى نفسه : « لاشك انه مجلس غير محايد » وعاد ساجو نحو حجرة الاجتماعات فوجدها امتلأت بالاعضاء المنتخبين والمعينين بحكم وظائفهم من محاسيب الوزراء وكبار رجال الحكومة .

ونودى ساجو ليمثل امام المجلس ، قضى الدقائق الأولى يتفحص وجوههم ولاحظ وسطهم شخصا غريب الوجه ، وجهه ينم عن بلاهة وعدم اكتراث لوجود فرسان المائدة المستديرة ، يجلس فى الطرف الآخر من المائدة بعينيه الصفراوين يحدق فى ساجو من خلال نظارته المعدنية . وجد فيه شيئا غير عادى لاحظ أنه ارتدى طاقيته بطريقة معكوسة بسبب القذال الذى فى مؤخرة رأسه ، نظر اليه ساجو وتذكر الاساطير التى تحكى عن الرجل ذو الرأسين أو صاحب القذال الكبير : تقول الاساطير أن هذا القذال يستدق تدريجيا ثم ينتهى بطرف رفيع الى حفرة فى الأرض ، وتذكر ما تحتويه الاساطير من وصف الطرف الذى يربط الرأس بالارض . وحاول اصدقاؤه وزملاؤه معرفة حقيقة رأسه ، وسأل بعضهم الحلاق الذى يقص له شعره عن نهاية قذاله لقد كان ذلك هو السير درينولا العجيب رئيس المجلس ، لم يكن ساذجا أو أبله كما يلوح من نظراته ومنظره العام ، ونطق السيردرين يقول لساجو الماثل امام اللجنة :

ـ اجلس .

تعجب ساجو وهو يتساءل عن سبب اختيار السيردرينولا تلك الطاقية المقلوبة الى أن يسمع سؤالا موجها اليه من الرجل الجالس بجوار الزعيم وينسالا : ـ

ـ لماذا تريد هذه الوظيفة ؟

كان الزعيم وينسالا هو الوحيد من بين الجالسين الذى يحمل كأسا مليئة بالويسكى ، اما بقية الاعضاء فقد كانوا يحتسون الشاى فى فناجين اهديت للمدير آثناء رحلته العاشرة حول العالم حيث زار الصين الأمريكية ، أى تايوان ، ونظر الى الجماعة يحتسون الشاى وقال لهم : ان تشانج كاى شيك كان لديه طقم شاى مثله .

انصرفوا بهذا الحديث عن ساجو لبضع دقائق ثم نطق المدير موجها الحديث الى ساجو :

ـ حسنا ، انتظرنا بما فيه الكفاية ، أجب عن السؤال : لماذا تريد هذه الوظيفة ؟

فرد عليهم ساجو من فوره :

ـ لا اعرف .

وكان رد الفعل واحدا لدى الجميع ، أخذوا ينظرون الى بعضهم البعض وكأنهم لا يصدقون ، فهم لم يقابلوا فى السنين الطويلة آلتى قضوها فى اعمالهم بالمجلس شخصا مثل ساجو فى جهله ، وسأله المدير :

ـ تقول إنك لاتعرف ؟

وعندما اومأ ساجو برأسه « نعم » بدا وكأن الاختبار الشخصى قد انتهى ، حيث ظهر على وجوه الجميع رفضهم للشخص الذى يختبرونه عدا الزعيم ويتسالا الذى قال :

ـ عظيم ، عظيم ! هذا هو ما يمكن أن يوصف بأنه اجابة صريحة أمينة .

وابدى السيردرين استياءه لهذا التعاطف الذى أبداه الزعيم ، وعلق المدير العام قائلا :

ـ اذا كان المرشح للوظيفة لا يعرف لماذا اتى للأختبار الشخصى ، فاننا أيضا لا نعرف لماذا نواصل معه الاختبار :

وهنا وجه السيردرين كلامه الى ساجو :

ـ انظر ايها الشاب ، ارجو الا تكون اتيت هنا لتضيع وقتنا .

ـ لا ياسيدى ، بالتأكيد لا .

- لندعه يذهب ياسيدى الرئيس ، فكيف نختبر من لا يأخذ الامور بجدية ؟

- انتظر يارجل ، لاتذهب ، المفروض انك انسان متعلم أليس كذلك ؟

- نعم ياسيدى اعتقد ذلك .

- وانا متأكد انك رجل ذكى ، أليس كذلك ؟

صمت ساجو استحياء من الاجابة ، فبادره السيردرين قائلا :

- لا داعى لأن تظهر امامنا بمظهر الانسان المتواضع ، فانى متأكد انك تعتبر نفسك ذكيا . أليس كذلك ؟

- هذا يعتمد على الصحبة التى أتواجد فى وسطها .

صمت السيردرين قليلا وهو مدرك ان فى هذا القول تأكيدا لما يظنه ، وفوت تلك الاجابة ، وعاد فقال له :

- والآن اخبرنى بأمانه باعتبارك رجلا ذكيا فطنا ، اذا كنت تجلس مكانى وأنا اجلس مكانك ، ماذا ستفعل اذا أجبت عن السؤال بأننى لا اعرف لماذا اريد الوظيفة ؟

- لعلك بدأت تشعر أنك أخطأت فى مجيئك .

زادت علامات الغضب على وجه المدير العام وانفجر صائحا وهو يقول :

- أتظن اننا جئنا لنسمع الى هذه السخافات التى تصدر منك ؟ اسمع ايها الولد الصغير لقد جئت هنا تستجدى الوظيفة ....

- لم آت لاستجدى

- لا تتكلم وتقاطعنى وانا أتكلم ، نحن نريد الشخص الذى يحترم الكبار لانريد المغرورين من أمثالك ، ولنفرض انك لم تأت لتستجدى فمن هو صاحب المصلحة اذن ؟ ان من هم افضل منك بكثير يأتون هنا للاستجداء .

قال ساجو وهو يهم بالوقوف ليمضى .

- اسمحوا لى ان اذهب .

- اغرب عن وجهنا فورا .

وبدأت التعليقات فى داخل القاعة فقال المدير العام :

- يعتقد هؤلاء الصغار أن الناس فى حاجة اليهم لمجرد انهم يحملون شهادات .

وقاطعه السيردرين قائلا :

- الشهادة لاتصنع الرجل المتخرج .
ثم ساد صمت قصير واصل بعده المدير كلامه قائلا :
- هذا هو الخطأ الذى يقع فيه الشباب ، حقا فالشهادة لا تصنع المتخرج .
واراد الزعيم وينسالا ان يجتذب انتباه الاعضاء ويكسب احترامهم باعتباره يجمع بين حكمة الكبار وعدالة القضاة فقال :
- لقد قالها الرئيس من قبل ، شجرة واحدة لا تكون غابة
فهز المدير العام رأسه مؤيدا ، ولكن الرئيس بادرهم قائلا :
- هنا الامر يختلف ايها الزعيم . قصدت من هذا القول أن المظهر قد يكون خداعا ، ذلك انه حينما دخل علينا هذا الشاب شعرت تماما بأنه الشخص الذى تريده .
- لا ياسيدى الرئيس لا يمكن أن تكون قاضيا وتحكم حكما صحيحا بهذه الطريقة .
عندئذ اكفهر وجه السير درينولا غاضبا ، ولم يلاحظ المدير العام ذلك على وجهه لانه كان غارقا فى شعوره بانه أحكم حكماء العالم ، ولم يلاحظ الألم الذى سببه للسيردرينولا حينما قال انه لا يستطيع ان يحكم على الاشخاص ، وأخذ السيردرينولا يفكر فى نفسه ويتساءل : هل لا يستطيع الحكم على الأشخاص فعلا ؟
واذا كان الأمر كذلك فماذا اكتسب من خبرة تلك السنين التى قضاها على منصة القضاء ؟ ماذا اكتسب من خبرة اذا لم يكن قادرا على الحكم على الاشخاص من غير ملابسهم ؟ ماذا يكون السيردرينولا وماذا تكون خبرته بعد كل السنين التى كان يكشف فيها عما تخبئه قلوب وعقول من يقفون أمامه ؟ وتذكر السيردرينولا ما كان يفعله فى ماضيه من سبرأغوار القلوب والعقول ، وكيف كان يتوصل الى أعماق نفوس من يقفون امامهم ، وكيف كانت نظراته القوية تجد منهم الاستجابة وتنعكس عليهم خوفا أو يأسا أو صراحة وهم يرتعدون امامه .. أمام شخصيته العظيمة ، كاد فى تلك الايام يرى نفسه شبيها بالاله يوم المحاكمات الكبرى والناس امامه ...
عندئذ رفع يده الى رأسه وازاح طاقيته الى الخلف كما كان يفعل فى شعره المستعار حينما كان يجلس على المنصة لينطق بالحكم ، اين تلك الأيام حينما كان المحامون يقفون امامه يترافعون ، وهو يسند رأسه الى ظهر

الكرسى ليستريح ، تذكر السيردرين كل ذلك حينما خرج ساجو غاضبا يلعن ذكاءه الذى يجلب عليه الوبال .

ومضى ساجو مسرعا فى الممر الى الخارج فقد عاودته الرغبة الشديدة فى دخول الحمام ليفرغ ما يضغط فى أحشائه :

وتبعه رجل ينادى اسمه ويسرع خلفه ، وظهر ماتياس فجأة فاستوقفه وقال له .

ـ أوجا ، ماذا هنالك ؟ هل تشاجرت معهم ؟

ووصل الرجل الذى أرسل فى اثره يناديه ووقف امامه يقول :

ـ يامستر ساجو ، ماذا هناك ؟ هل انت بطل جرى ؟ من يراك هكذا سيظن أنك تفر من الشيطان .

وقال الرجل نفسه لساجو :

ـ اعرفك بنفسى ، اسمى انوابوزور ، أنا رئيس التحرير .

سلم عليه ساجو صامتا وأخذ يحادثه :

ـ آسف لما حدث ، لم أكن معهم بالداخل ، لكنى سمعت كل ما دار من حديث .. هل تتفضل الى مكتبى ؟

حاول ساجو ان يستوقف ضغط احشائه ولكن لم يستطع ، ودفعه ذلك الى مواصله السير فقال له انواربوزور :

ـ اذا أردت فلنتحدث فيما بعد ، لانى اريد أن اعود لأسمع مايقولون ، ونستطيع نحن ان نتحدث فيما بعد حول ذلك ، اتفهمنى ؟ لو سمحت اترك لى عنوانك ورقم تليفونك اذا كان لديك تليفون .

هنا تطوع ماتياس قائلا :

ـ سآخذ منه العنوان ورقم التليفون يا أوجا :

فقال ساجو .

ـ انى أقيم فى فندق اكسلسيور

ـ حسنا ، لاتهتم بما حدث ، اعتادوا أن يتخلصوا من أحسن الناس واكفأهم ، انى على خلاف مع هذا المجلس ، وكان المفروض أن احضر جلسة الاختبار الشخصى ولكنهم لم يسمحوا لى بذلك ، فجلست خلف الباب استمع حتى اكون رأيى الشخصى ثم سأبدا معهم المعركة ، هكذا تسير الامور هنا .

قال ساجو وهو يتمتم معبرا عن الشك :

ـ نعم فهمت ...

وقدم له يده ليصافحه قائلا .

ـ لن ابقيك طويلا ، سوف اطلبك بالهاتف غدا على الأكثر ، وربما التقى بك .

لم يكن ساجو يسمع بتركيز كامل وقال لرئيس التحرير :

ـ اقول لك الصراحة اننى متعجل فسوف أهرول الى أقرب فندق كى أدخل دورة المياه .

ـ آسف ياصديقى أن عطلتك هذه المدة ، ولكن لماذا لا تستعمل الحمام الموجود هنا ؟

ـ لا شكرا لقد رأيت الحمام هنا .

ـ على كل يستطيع ماتياس أن يوصلك الى الحمام المقفول .

ـ لا ، شكرا ..

ـ اعدك اننى سأخاطبك تليفونيا مساء الغد على أكثر تقدير

نظر الرجل الى ماتياس وقال له :

ـ تعرف اين المفتاح ، إنه فى حجرتى ، أوصل السيد الى دورة المياه ليستخدمها .

ـ سمعا وطاعة ياسيدى .

ـ ذلك الحمام الذى امسكتك عدة مرات تستخدمه دون اذنى ، خذ المفتاح وأوصل السيد اليه فانى سأعود بسرعة لمتابعة الجلسة..

ولما وصل ماتياس الى باب الحمام اخرج من جيبة حامل مفاتيح كبير واخرج منه مفتاحا فتح به الحمام ، فقال له ساجو باستغراب :

ـ لماذا تحتفظ بنسخة من المفتاح معك ؟

ـ اقول لك الحقيقة يا أوجا : ان هذا المكان هو المكان الوحيد الذى يمكن أن تجلس فيه وتفرغ ما فى أحشائك وتستريح وتقرأ الجرائد والصحف ، فضلا عن انه المكان الوحيد الذى لا تشم فيه رائحة كريهة فى كل ايزالى ايكو ، حتى حجرات النوم فى ايزالى ايكو تمتلىء بالروائح التى تهب من الحمامات ومن الخارج ، لكن هذا المكان تستطيع ان تهرب فيه من تلك الروائح .

وظل ماتياس ماسكا بباب الحمام بعد ان فتحه يتحدث طويلا مع ساجو واخيرا قال له :

- اوجا ، اشعر بأنك سوف تحصل على هذه الوظيفة ، وحينما احب شخصا احس بما سيأتيه من خير ، وانا احبك كثيرا .
- شكرا ياماتياس اقفل ساجو باب الحمام من خلفه وشعر من فوره بنسمات ذلك الحمام الفخم تغمره حيث يوجد به جهاز تنقية هواء احضره معه المدير العام اثناء رحلته السابقة من الكويت . وسار ساجو فوق الابسطة السميكة تغوص فيها قدماه الى كرسى الحمام ، وحينما جلس تنهد لما ارتاحت احشاؤه وقال فى نفسه ان هذا الرجل وماتياس عبقريان اذ ادركا قيمة هذا المكان .

وجد بعد ذلك ما لم يكن فى الحسبان ...
يجلس الزعيم وينسالا على مقعد وثير كبير فى قاعة فندق اكسلسيور ، حين لمحه ساجو ، ومر عليه كأنه لا يعرفه ، وحينما أحس وينسالا بأنه لايعره التفاتا ناداه :
- هاى ساجو .. تعال اجلس بجوارى ، الا تعرفنى ؟ ما الحكاية ؟
- اخشى اننى لا اعرفك ياسيدى ، فلقد عدت من الخارج .
- فعلا ، فكل تصرفاتك وسلوكك توحى بانك شاب صغير السن متحمس ... تعال اجلس بجوارى .
- لا افهم ما تقصد ياسيدى .
- سوف تفهم الآن سوف تفهم ، لقد كنت فى الاختبار الشخصى أول أمس أليس كذلك ؟
- ماذا تقول ياسيدى ؟
- كنت فى اختبارنا الشخصى ، انا عضو فى لجنة الاختيار التى كانت تسألك .
ورفع كأسه وقال له انى اشرب شنابس
اعتذر ساجو ونادى على خادم الفندق ليأتى للزعيم بكأس جديدة من هذا المشروب الهولندى المسكر القوى . وأخذ الزعيم يتحدث عن برنامجه اليومى فى الشراب فقال وساجو يستمع اليه على مضض :
- اشرب الويسكى فى الصباح واثناء النهار ، اما فى المساء فانى اشرب هذا الشنابس ، وبعد الظهر فانى لا اشرب شيئا ابدا :
وقهقه طويلا ثم قال :
- بعد الظهر لا اشرب لانى أنام طويلا .

ثم سكت قليلا ، ومازال ساجو صابرا ينتظر ما سيقوله ، ثم عاود الزعيم حديثه قائلا :

ـ والآن لنعد الى حديثنا ، مادمنا قد تعارفنا فلا بد أن اقول لك شيئا . انك ولد سيىء ، لقد كنت سيئا فى ذلك اليوم ، بالغ السوء وهذا شأن كل الشباب حينما يعودون من الخارج ، هل كنت فى انجلترا ام فى أمريكا ؟ على اى الاحوال لايهمنا اين كنت فسواء كنت فى انجلترا او فى امريكا فان وجودك فى الخارج يجعلك تغتر بنفسك .

ونظر حوله فى ارجاء الفندق ، وغمز بعينه وطقطق بفمه ثم قال :

ـ هه ، لابد أن أباك مليونير حتى تنزل فى مثل هذا الفندق .

ـ هو فى الواقع مليونير .

ـ عظيم ، هل هذا صحيح ؟ لم أكن اعلم أن لدينا مليونيرات فى نيجيريا .

ـ ولكن لايعلن عن نفسه .

ـ حكيم ، انها حكمة بالغة منه ، وبالنسبة لك حينما تبحث عن عمل حكمة عظيمة أيضا ، من الحكمة ألا يعتمد الرجل على ابيه بل يحاول أن يشق طريقه فى الحياة واستمر هذا الحديث التافه حتى كاد يبلغ مرحلة الصدام بينهما ثم أتى المشروب وأخذ الزعيم وينسالا يحتسى من الكأس حتى دار الخمر برأسه ثم اعتدل وقال :

ـ يامستر ساجو ، انا رجل صريح ، احب أن ارى الشباب ينجحون فى حياتهم ولكن الأمور تسير دائما خلاف ما يريدها الانسان ، لقد رأيت بنفسك عدد المتقدمين الذين اتوا للاختبار الشخصى .

هل كانوا كثيرين ؟

ـ نعم كثيرين جدا ، وبالامس كان هناك عدد أكبر ، لقد أدى استقلال نيجيريا الى طرد الكثير من الأويبو (الخواجات) ، وكانت الشهادات فيما مضى لها قيمتها ، أما الآن فان كل شخص يمكنه أن يحصل على شهادة فالشهادة الآن اصبحت مثل البنات فى كثرتها وقيمتها ولذلك يندفع حملة الشهادة لملء الوظائف ، ولم تعد جواز مرور للوظيفة .

لم يلاحظ ساجو أن الزعيم قد نادى على الخادم اثناء حديثه ، ولكنه فوجىء بالكأس الثانية تقدم له ، فأخذها الزعيم وواصل حديثه :

ـ على أى الأحوال المسألة هى علمك أنك غير مدرب لهذه الوظيفة ، وقد

قال رئيس التحرير فى الاجتماع إن لك خبرة فى اعمال البناء أو اعمال المساحة او ما شابه ذلك .

ثم توقف عن الكلام .. ظل صامتا لمدة طويلة ، صمت الخبير المدرب ، يقصد به التقليل من قيمة الشخص الماثل امامه حتى يوقعه فى الفخ ، وفعلا كان لذلك الصمت اثره ، فرغم ان ساجو كان يحمل شهادة فى المساحة فإنه اهتز منفعلا وهو يقول لنفسه ، « هذا لايهم على اى الاحوال وواصل الزعيم وينسالا كلامه بعد ذلك الصمت الطويل :

ـ لقد غضبت اللجنة كثيرا ، وخاصة رئيسنا ، ولكن ... يمكن تدارك الامر ... والاصلاح على كل حال فى يدك ، هل فهمت مأأقصد ؟

وفتح وينسالا ذراعيه قائلا بلغة اليوروبا :

ـ تدفع تلاقى ..

ـ كم ادفع ؟

نحن اربعة يجب ان تقابلهم ، اما عن نفسى فانى ...

ـ قل لى كم تريدون واسرع ؟

فأخذ يرشف من الكأس وضحك بقهقهة وقال :

ـ لم يؤثر الانجليز فيك بدبلوماسيتهم ، انت أشبه بالامريكيين تريد الامور على وجهها المباشر ، وانا احب المباشرة ، اتعلم اننى احب الامريكيين ، إنهم يختلفون عن الانجليز يتصفون بالمكر والدهاء ، دبلوماسيون لأبعد الحدود لايتكلمون بصراحة حينما يقولون نعم اوبلى ، لو سمحت ، من فضلك او حينما يرفضون ويقولون شكرا ... وعاد فضحك بقهقهة طويلة ثم قال :

احب التعامل المباشر ، هكذا اتعامل فى حياتى .

كان ساجو مثل الكثير من الشباب مليئا بانفعالات الغضب ويكاد ينفجر كلما لمح ذلك الزعيم يقرب الكأس من شفتيه ويرشف منها ثم يعود فيلعقها بلسانه او يجففها ببطن يده ، ونظر اليه وقال :

ـ حدد كم تريدون ؟

توقف الزعيم وينسالا عن احتساء الخمر من كأسه وجفف شفتيه ووضع الكأس ثم قال :

ـ بما انك جديد فلنجعلها ثمن مشروبات فقط .. هل تقبل .. لنقل ٥٠ جنيها .

كان مشروب الشنابس قد لعب برأس الرجل واراد ساجو أن يكمل اللعب عليه فقال له :

ـ ماذا لو قلت ان رئيس التحرير قد اخبرنى منذ ساعة أن الوظيفة قد افردت لى فعلا ؟

عندئذ اضطرب الزعيم وينسالا وكاد يفقد الثقة تماما او ربما فقدها بالفعل فقد فكر فى احتمال صحة النبأ ، وتحول الى شك فى نفسه ، وسرعان ماتحول الامر الى ضحك وقهقهة ، واسند الزعيم ظهره إلى ظهر المقعد الوثير وظل يفكر لبضع دقائق وهو مغمض العينين ثم بادر ساجو بقوله :

ـ انظر ياولدى ، لاتحاول ان تخدع الكبار فان الطل فى الغابة لايجرى الى الصيد دون ان ينظر حوله خشية ان يكون ابوه الفهد الكبير على بعد شجرات قليلة وسوف ابوح لك بسر ، اذا اردت فلنتراهن عليه وليكسب منا الصادق ، فى يوم الاثنين القادم سوف تتلقى مكالمة تليفونية اخرى تحمل لك نبأ رفض المجلس توظيفك وسوف يخبرك بذلك رئيس التحرير نفسه ، الكلمة النهائية فى يدنا نحن ، الا تعتقد اننى تكلمت مع ايوابوزور قبل ان آتى الى هنا ؟ اعلم مقدما انه سوف يخاطبك ان الوظيفة مازالت شاغرة وعليك ان تضمنها لنفسك

ركز ساجو كل نظراته على وجه الرجل حتى رأى اثر الشنابس عليه وظهر فى تلك اللحظة النادل فى ملابسه الخضراء المزركشة لانه يعلم مطالب الرجل فاستجاب له قبل ان يرفع وجهه ليناديه ، ومرة اخرى اهتز ساجو وامتعض وقرر الا يترك الفرصة للزعيم وينسالا ان يسقيه مزيدا من زيت الخروع ، فوقف فجأة حينما رأى الخادم يقترب وقال :

ـ سأذهب الى حجرتى لأرى ماعندى هناك .

ـ هذا هو عين العقل ، فان مفتش الصحة حينما ينظر تحت السرير فانما يبحث عن الكولا ، وليس عن الميكروب .

وصلت الى أنفاس ساجو رائحة المشروب الجديد وبلغ به الغثيان درجة جعلته يتطلع الى فص من الليمون .

ودخل ساجو الى شرفة حجرته ليتنسم من هواء البحيرة التى تطل عليها الشرفة ، وقد حل الغروب وبدأت مصابيح الشوارع فى اللمعان ، ومعظمها يضىء وينطفىء دون انقطاع ، وربما استمرت على ذلك حتى منتصف الليل

حينما يصحو المهندس المسئول فى تلك الليلة ليكتشف ان بعض الملفات فى المحول معطلة فيطفىء الانوار ويترك الوضع هكذا حتى يأتى المهندس المسئول فى الليلة ليفعل مثلما فعل هو ، وربما يستمر اظلام الشوارع شهرا كاملا او اكثر حتى يتم اصلاح العطل .

كانت هناك سيارة امريكية تنتظر فى الشارع تحت الشرفة تقريبا وسرعان ماتذكر ساجو تلك السيارة حينما كان خارجا من دار صحيفة الرأى المستقل فاضطر ان يضغط نفسه بينها وبين حائط البوابة كى يدلف الى خارج البناء ونظر ساجو بدقة فى وجه الرجل النائم فى مقعد السيارة الخلفى ظانا انه السائق ولكنه سرعان ماكتشف دون أن يخطئه نظره وذاكرته ـ ان الطاقية التى يغطى بها رأسه هى طاقية السير درينولا رئيس مجلس الادارة .

وفى اول الامر لم يربط ساجو وجود ذلك الرجل بوجود الزعيم فى بهو الفندق ، ولكن المنظر اصبح ظاهرا يعلن عن حقيقة الامر ، فشعر ساجو بالاحباط الشديد لما رآه من قسوة هؤلاء الرجال الذين يقتضى سنهم ان يكون لهم كل الاحترام والتبجيل ، وشعر بالخجل مما يواجهه واخذ يسائل نفسه : كيف بدأ ذلك الامر ؟ لقد طلب الزعيم وينسالا بصراحة مبلغ خمسين جنيها . وهو مبلغ كبير بالنسبة له ، ولكن هل هذا المبلغ يعنى شيئا بالنسبة للسير درينولا ، ربما سيقسمه بينهما ، عشرون جنيها للزعيم وثلاثون جنيها للرئيس السير درينولا . وتذكر منظرهم أثناء الاختبار وهما يتبادلان الغمز واللمز ، ويتقاذفان الكلام كما لو كانا يتقاذفان كرة من فوق رأسه . وربما كانت هناك مجالس اولجان وفرص اخرى تتاح اكثر من مرة كل شهر ، عندئذ يكون الوضع مختلفا ، ربما ترتبت عليها مقابلات فى ليال اخرى تأتى بمبالغ لاتدفع عنها ضرائب ، فتعقل الامر ، قد يأتى رجل كبير مثل الزعيم وينسالا ليتحدث الى شخص صغير مثل ساجو ، ولكن ماذا عن ذلك الرجل النائم فى السيارة .

عاد ساجو الى داخل حجرته واستلقى على سريره واخذ ينظر الى سقف الحجرة ودق الجرس بجانبه فأتاه خادم الحجرة بعد قليل فطلب ان يأتيه بكأس جين وتونيك مع بعض الليمون الطازج .

ثم أغمض عينيه وراح فى تداعيات ذكريات بعيدة ، حينما لم يكن يسمح له بأن يمضغ فصا من الليمون بعد ان ترغمه امه على الشربة الاسبوعية ،

وكان يناقش الامر مع زميله ايجبو اثناء حضورهما فصول الاحد بالكتابة على الدرج اثناء الحصة ، وتذكر وهو يحذر ايجبو قائلا :

ـ الافضل ان تستعد فان امى ستذهب الى منزلكم اليوم وهى لاتسمح لى بأن امضغ او امص الليمون .

ـ لماذا ؟

ـ لاعرف هذا يعنى انه لن يسمح لك به بعد الان .

وكانت قد مضت فترة طويلة من الانقطاع قبل ان يتم زواج عمة ايجبو الذى كان فى رعايتها بعد وفاة ابيه واخذت ام ساجو على عاتقها مسئولية علاج الاطفال بوسائلها الخاصة التى تركز على الوقاية من العلل والامراض وكانت الشربة الاسبوعية احدى تلك الوسائل ، ولذا كان يوم السبت زهيبا بالنسبة لساجو ففيه يشهد ساجو ذلك التهديد الذى يميع نفسه ويصيبه بالغثيان ويضطره الى طلب فص الليمون .

آنذاك كتب له ايجبو على القمطر :

ـ وماذا عن استخدام الشبة ؟

وفكر ساجو فى ذلك فعلا ، وكتب ردا على هذا :

ـ نعم انه يصلح مع شربة الخروع ، ولكن اين نجده ؟

وكان رد ايجبو :

ـ انه فى خزانة العقاقير بمدرستنا .

ـ هل يوجد كثير منه ؟

ـ نعم كثير يكفى مدة طويلة .

وهنا لم يبق على الدرج مكان آخر للكتابة ، ولكن المشكلة قد حلت ولم يبق الا سؤال واحد ، ففتح ساجو صفحة من كتاب « مسيرة الحج » الذى كان امامه وكتب عليها السؤال :

ـ وماذا عن الرب ؟

وضبطه المدرس فقال له :

اخرج ياساجو ، واخرج انت ايضا ياايجبو ، حركا جسميكما الى هنا وسلما هذه الرسالة لى .

ورأى المدرس عبارة « وماذا عن الرب ؟ » التى يكتبها اطفال سذج فى مدرسة الاحد ، انه أمر يحتاج الى تفسير ، نظر الى الورقة بارتياب شديد ، فطلب فحص الكتب . واراد ساجو أن يأخذ كتاب ديهينوا التى كانت تجلس بجانبه ليراه المدرس ولكنها رفضت لانها تحافظ على كتبها ولم تأبه

. . .
لتهديدات هذين الشيطانين لها بعد انتهاء الحصص . وعلى اية حال كان عقاب ذلك اليوم معقولا وهو حفظ صفحتين من الكتاب ليسمعاهما فى حصة الاحد التالى .

وفرحا بعد انتهاء حصص مدرسة الاحد وواصلا النقاش حول السؤال الذى حار فيه المدرس فقال ايجبو :

ـ ماذا تقصد بسؤالك ، اتقصد ان الرب يشرب زيت الخروع ؟

ـ فعلا .

فرد ايجبو قائلا :

ـ لايشربه لانه لايحتاجه ، اذا لم يأكل طيلة الاسبوع فما حاجته اذن لهذه الشربة فى نهاية الاسبوع .

وانضمت اليهما ديهينوا ولكنهما تجاهلا مسيرها معهما واشتراكها فى الحديث وهى تقول :

ـ طعم الملح الانجليزى اسوأ كثيرا من زيت الخروع ، وامى تعطينه لى بالقوة كل اسبوعين ، وسيحل موعده الاسبوع القادم ، وبالطبع ايجبو اسعد منى لانه لايأخذ الشربة بانتظام .

فقال ايجبو :

ـ فعلا انا لاآخذها الا حينما اشكو من الم فى بطنى او اخرج رياحا كثيرة تشمها امى ، وحتى هذه الحالات فانها تطلب مساعدة امك فى اعطائى الشربة .

سمعت ديهينوا كلامه وسألت :

ـ اذن فانت الذى تفسد جو الفصل دائما ؟ على كل فعمتى تفعل ذلك دوما ، ثم تلومنا نحن الصغار حينما نفعل ذلك . ودائما اعرف متى ستفسد جو الحجرة فاخرج ، اذا هى مالت باردافها الى جنب فاننا ننتظر انتشار تلك الريح فى كل مكان فاخرج من الحجرة .

شعر ساجو بأن امه افضل من ذلك بكثير واخذ يتفاخر بما يحدث قائلا :

ـ اتعرفون ماذا يحدث عندنا ؟ ان امى تفعل ذلك بصورة منتظمة ، فكل يوم بعد ان تنتهى من صلاة العشاء تخرج ريحا عالية الصوت وطويلة ، وحينما تنتهى تقول الحمد لله ، ونحن الجالسين فى الحجرة لابد ان نقول آمين .

فعلقت ديهينوا على ذلك .

- امك لاتخجل من ان تفعل ذلك حتى فى حضور الضيوف او الزوار
واراد ساجو ان يضربها بالكتاب الذى يحمله ولكنها ابتعدت ، ووصلوا الى باب منزل ايجبو فقال له ساجو :

- لاتنس احضار الشبة
وقف ايجبوا وقال :
- آه تذكرت الان ، اتعرف ماذا قال لى الصيدلى ؟ .. قال انهم يصنعون زيت الخروع الان حبوبا يسهل بلعها .
- حقا ؟
- بل اراني بعضها ، مستديرة فى حجم بيضة السحلية تقريبا فهز ساجو رأسه وقال .
- بالنسبة لى لن تصلح ، ستصر امى على ان أشرب الزيت .
- ولكن اذا اخبرها الصيدلى بذلك ؟
- سوف ترفض مايقوله ، وسيوافقها على ماتقول فانه يريد ان يبيع الدواء فقط .
واومأت ديهينوا برأسها وتركت الصبيان ومضت فى طريقها وحدها تسير بقفزات سريعة ، وبقى الصبيان يناقشان المسألة بيأس شديد ثم مضى سيجو مسرعا وراء ديهينوا وهو يصيح :
- لاتنس الشبة ايجبو .
وجرى ساجو حتى سبق ديهينوا وتركها خلفه بخطوات وحاولت اللحاق به ولكنه زاد سرعته ، فصاحت قائلة :
- هل تفعل ذلك لانني لم ابدل كتابك بكتابى ..

× × × ×

فوجى بشخص اجنبى يوقظه فهب ساجو من سباته وقال :
- ماهذا ، كم الساعة الان ؟
- السابعة والنصف فقط .
- اشعر كأنني نمت ساعات طويلة .
وسمع صوت احد اصدقائه يضحك ، فمال الى الحائط وأضاء نور الحجرة ووقف دقيقة يحدق فى صديقه باندیلی ، وصديقه يحدق فيه ثم التقيا بالاحضان وبعد دقيقة دخل فجأ صديق آخر هو كولا فاندفع اليه

ساجو يحتضنه بشوق شديد ، وتبادلوا شتائم المزاح وصيحات السعادة باللقاء .

ـ لـــم تتغيـــــر .

ـ ولا انـــــــــت .

وفى مرحهم اندفع ساجو ثانية نحو بانديلى ولف ذراعيه حول خصره وحمله الى اعلى بضع بوصات من الارض حتى كادت رأسه تلمس سقف الحجرة وانزله وهو يقول « انك اطول من عملاق الو كوكو »

وجلس بانديلى على طرف السرير وقال :

ـ انت آخر من وصل من الخارج ، سبقك سيكونى بثلاثة اشهر .

وسأله كولا :

ـ لماذا كنت مختفيا ؟ واين ؟ اعترف افضل لك

ـ سأشرح ذلك فيما بعد ، ولكن كيف عرفتم اننى وصلت ؟

فرد عليه كولا :

ـ لدينا ملف خاص بك ، الا تعلم ذلك ؟

ـ ملف ، اى ملف هذا ؟

ـ ملف فى مكتب المخابرات ، الا يفترض انك شيوعى ؟

ـ حسنا حسنا .

ـ يعمل ايجبو فى مكتب الشئون الخارجية واخبرنا انك قد وصلت .

ـ لماذا يعمل ذلك اللعين فى هذا المكتب ..

وانفجر ضاحكا وهو يكمل كلامه :

ـ بينما اتخفى هنا وهناك معتقدا ان احدا لايعلم بحضورى .

ـ يملأ ملفك واوراقك دولاب ملفات باكمله وسوف يخبرك ايجبو بالمزيد مما لاتعرفه عن نفسك .

ـ ولكن ماذا عن ايجبو ، كان واجبا عليه ان يأتى بنفسه على الأقل .

ـ على كل حال فكرنا جميعا ان لديك اسبابا للاختفاء ولذلك اجلنا الحضور لاستقبالك اسبوعا أو اثنين

ـ لا لاتوجد اسباب اخفيها عنكم فقط اردت الا تعرف العائلة بوصولى بعض الوقت ، تعلمون انه لابد ان احصل اولا على وظيفة قبل ان اظهر فى الوسط العائلى لمدة قصيرة واعود الى عملى .

هز بانديلى رأسه وقال :

ـ ليس هذا بالامر السهل .

ـ ربما ، ولكنى صممت على ان احاول .
ـ الم يظهر ايجبو بعد ؟
ـ لم ارد فى البهو وانا صاعد الى هنا .
ـ على كل حال قصدنا ان نفاجئك الساعة السابعة ، ولكن وقعت لنا حادثة مروعة ونحن فى طريق ايبادان .

ـ هيا ننزل إلى البار ، هل لديك أى ارتباطات نسائية الليلة ؟
ـ ابدا ، ساكون معكم .
وبينما هم على آخر الدرج تذكر ساجو زيارة الزعيم وينسالا ، فتوقف وكأنه دخل أثناء فصل من مسرحية . كان البار على الجانب الآخر من بهو الفندق ، وكان حشد من الخدم فى ملابسهم المزركشة ذات الأحزمة الخضراء متجمعين فى مكان يلفت النظر .
ـ ماذا هناك ؟
ـ انتظروا .. انتظروا .
وقفوا هناك يشاهدون الزعيم وينسالا وقد بدا كأنه نائم ، وأحد الخدم يحاول لفت نظره ، والخدم الآخرون من بعيد يضحكون بصوت عال ، ويبدو أن ذلك المشهد قد بدأ وتكرر منذ فترة . يجذب الخادم رأس وينسالا فتسقط ويضحك الخدم الآخرون ، وفجأة قال الخادم :
ـ اوجا ، يجب أن ترد علىّ الآن .
رد عليه وينسالا بأحرف ملتوية من شدة السكر :
ـ لاتقترب منى حتى تأتينى بمزيد من الشراب .
ـ ولكن يا أوجا يجب أن تدفع الحساب الأن ، لأنى أريد أن أذهب ، فقد انتهى وقت عملى .
كان أمام الزعيم وينسالا نصف زجاجة شنابس فارغة ، أزاحها بيده فسقطت على جنبها ، واقترب منه الخادم يقول :
ـ ارجوك يا أوجا . أريد أن أنصرف .
انفجر وينسالا صارخا بصوت مرتفع ملأ أرجاء البهو :
ـ يالك من خادم مزعج ، أغرب عن وجهى لاتضايقنى وإلا طلبت فصلك من عملك ، قلت لك أننى مازلت انتظر صديقى .. أغرب عن وجهى .
ولاحظ بانديلى تغيرا على وجه ساجو فسأله :
ـ هل تعرف ذلك الرجل ؟

ـ انتظر ...

كان الزعيم وينسالا على ثقة بأن ساجو سوف يعود ومعه خمسون جنيها ثم فكر أنه ربما يأتى بنصف المبلغ ثم يدفع الباقى فيما بعد . وانتهز الفرصة ليطلب زجاجة شنابس كاملة ثم خفضها إلى نصف زجاجة ، ولكن ساجو تأخر عليه ، تأزم الموقف لأن رجلا كبيرا يتمرغ الآن فى الوحل ، تحفز الخادم وحاول أن يوقظه ، ولكنه رفع يده فضرب الصينية فاصطدمت الزجاجة الخضراء بأنف الخادم وسقطت فى ذلك السكون محدثة صوتا عاليا ، وأخذ الرجل يزعق بأعلى صوته ، والخادم غاضب يصيح بلهجته الانجليزية اللعثاء :

ـ هذا لم يحدث فى حياتى ابدا .. تلقى الصينية فى وجهى .. هذا العمل لا يليق من رجل محترم .. أعمل هنا منذ فترة طويلة ولم يحدث لى مثل ذلك ابدا ، إنها إهانة كبيرة أن يضربنى أحد على أنفى كالحصان .

ووقف الجميع خلفه يؤيدونه ويهدئون من روعه ولكنه واصل احتجاجاته .

ـ سوف أطلب الشرطة وأبلغهم أن العميل ضربنى على وجهى ، لقد خدمت كثيرا من الناس أفضل منه دون أن يفعل أحد معى مثل ما فعل هذا الرجل .

انهار الزعيم وينسالا ، وأصبح موضع رثاء الناس جميعا ، وتحول الأمر إلى محاولة الاعتذار عنه وهو مازال نصف نائم والأمور غائمة فى عينيه والكلام غير واضح فى مسمعه . تناثرت عبارات بلغة اليوروبا تعلق على موقف الرجل بأمثلة شعبية شائعة .. الطفل يبتهج حينما يرى اباه عاريا .. العاقل من يبتعد عن النساء .. من لايملك النقود فليربط الحزام على بطنه .. من يربط الحزام على بطنه لن يعتقد الناس أن بطنه خالية .. إلى غير ذلك من الأمثال الشعبية الشائعة لدى اليوروبا .

وقال الخادم فى إصراره مضيفا إلى مايقولون :

ـ اياكم أن يأتى أحد ويقول اتركه لأنه رجل كبير ، فالكبير هو من يحترم نفسه ليكسب احترام الآخرين .

ولمحه ساجو وهو ينحنى ليأخذ الصينية ليرد له الضربة ، ولكنه رأى شيئا على هيئة قماش مزخرف يندفع بسرعة نحو المدخل الرئيسى ، ولما اقترب من الاضواء تبين له أنه السير درينولا الذى أقلقه الانتظار الطويل

قد جاء ليتقصى الأمور ويعرف سبب تأخير الزعيم وينسالا . ولكنه سرعان ماتراجع واختفى في ركن بعيد حينما أدرك الموقف السيىء الذى وضع فيه الزعيم نفسه ، وخشى من المواجهة وادرك أنه يجب أن يتراجع من فوره حينما رأى ساجو يتحرك عبر البهو ويتجه نحو الزعيم وينسالا ، وقعت عينا ساجو على عينى السير درينولا وهو يحاول الاختفاء عن انظار ساجو ، ولكن ساجو أبعد نظره عنه واتجه إلى الخادم ودفع الصينية نحوه وهو يقول :

- ماذا جرى ؟

- لم يدفع هذا الرجل ثمن مشروباته .

- كان عليك أن تنادى المدير .

- المدير غير موجود ، وأنا لم اواجه مثل هذا من قبل ولا اقبله ولا حتى من الحاكم العام ، لقد ضربنى أثناء تأدية عملى .

- ألا تعلم أنه ضيفى ؟

- وماذا أفعل أنا ، انتهى وقت عملى ولابد لى أن أسوى الحسابات لأعود إلى منزلى .

- تضيف المشروبات على حسابى ، اذهب ونفذ ماأقول . وتوقف عن الصياح . ووضع ساجو يده على كتف الزعيم وينسالا وقال له :

- فلنمضى ياسيدى من هنا

فوقف الزعيم على قدميه بصعوبة وقد زال عنه كل اضطراب ، وجاء بانديلى ليساعده على إسناد الرجل من الجانب الآخر ، ولكن ساجو قال :

- لا عليك فسنأخذ المصعد الثانى

ونظر ساجو بطرف عينيه إلى السير درينولا المختبىء وراء أحد الأعمدة واتجه مع الزعيم وينسالا إلى المصعد

وفى صباح اليوم التالى تلقى ساجو مكالمة تليفونية من انوابوزور يقول له :

- هل أحضرت أوراقك معك من أمريكا ؟ لقد امر الرئيس أن تعطيك الوظيفة ، فقل لى بأمانة ماذا فعلت ؟ بأمانة كيف أثرت عليه ؟

(٦)

ـ ياماتياس ، ياماتياس ، تعال هنا

سمع ماتياس النداء ، ونظر حوله فرأى ساجو فقال :

ـ اتناديني ياسيدى ؟

ـ هل مازلت على عهدك معى ؟

ـ أوجا .. تحت امرك

ـ أنا مفلس ، ماعلاقتك بصاحب البار ؟

ـ أنه بلدياتي ياسيدى

ـ فى هذه الحالة لن نجد صعوبة فى أن آخذ منه على الحساب

ـ أوجا .. سوف أذهب لأرجوه لعله يرضى ، الأمر يختلف فحينما يكون الموضوع متعلق بالنقود فإن علاقة البلديات تسقط على الأرض ولا يتذكر أحد أبناء بلده .

ـ ماتياس ، اذهب الآن ، ولاتعود إلا ومعك زجاجتا البيرة كالعادة .

ـ أوجا ، أريد أن أقول ...

ـ ماتياس .. اليوم قراءة فى انجيلى .. اذهب الآن .

ـ وهو كذلك ياسيدى سأذهب وأحاول .

وكان لقاء قصيرا جدا مع رئيس التحرير ، الذى أتى إلى مكتب ساجو وفى يده بعض الأوراق التى تتضمن القصة التى كتبها ساجو عن سيكونى تحت عنوان : « من خطط الهروب ؟ » وتضمنت الحكاية كل الحقائق دون أى مواربة أو تحريف يستدعى الجدل . وبدأ رئيس التحرير بقوله :

ـ أريد أن تستمع الىّ جيدا ...

وقبل أن ينتظر استجابة ساجو له واصل حديثه قائلا :

ـ على فكره لقد رحل صديقك الخبير الأجنبى الأبيض ، أقصد الرجل الذى أدى تقريره اللعين إلى إيقاف تلك المحطة .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ رحل بكل بساطة ، وقد وافقت له لجنة تقدير الخسائر الشخصية على طلبه بالحصول على تعويض عن الأضرار التى لحقت به أثناء الخدمة ، اتعرف كم أقروا له ؟

هز ساجو رأسه مستغربا ومستفسرا ، فواصل انوابوزور قائلا :

ـ ثمانية آلاف بالاضافة إلى ألفين مكافأة نهاية العقد .

ـ هكذا تسير الأمور ..

ـ لاتفقد الأمل ، لايضيع هذا من قيمة قصتك .. وهناك طرق عدة لتقصى الحقائق لتعدل القصة إذا أردنا .

ـ وهل تريد ذلك ؟

ـ يحتاج الأمر إلى شرح .

ودق جرس التليفون فأخذ انوابوزور السماعة وقال : هالو ونظر إلى ساجو الجالس أمامه وقال :

ـ سأشرح ذلك فيما بعد .

فرد عليه ساجو :

ـ لا أريد الاستماع إلى أى شرح أو تفسير ، هذا الموضوع نتاج عمل انتحارى قمت به لمدة اسبوعين .

وهم بالوقوف لمغادرة المكتب فقال له :

ـ اجلس ، اجلس ياصديقى وهدىء من روعك ، يبدو أنك متعجل لاتريد أن تأخذ الأمور خطوة خطوة .

وتابع حديثه التليفونى :

ـ هالو .. هالو .. انوابوزور يتكلم .. أريد أن أخاطب الرئيس

ثم سد سماعة التليفون ليستمع إلى ساجو وهو يقول :

ـ لقد كنت افكر فى سحب الموضوع ، أنت تعرف أن المسألة فيها جانب شخصى .

ـ هذا تصرف غير سليم فى الصحافة ، وسوف تتحقق من ذلك بنفسك وعلى أية حال لقد قمت بدورك وأنجزت العمل وقدمت لنا القصة فى موضوع تحريرى ، والباقى علينا ..

وعاد فسد سماعة التليفون بسرعة وهو يقول لساجو مشيرا لبعض الأوراق :

ـ خذ هذه الأوراق معك .

وسمع فى الهاتف من الطرف الآخر صوت السير درينولا الذى لايخطئة أحد .

ـ هل أنت انوابوزور ؟

ـ أجل ياسيدى ، أريد أن أسألك عن باب « الفضائح » هل يمكننا أن

ننشرها ؟

ـ لا ، ولكن أحفظها فى ملف .

ـ أتقصد أن نلغيها ياسيدى ؟

ـ لا فقد استخدمناها بالفعل !

ـ فهمت ياسيدى .

ثم حول الحديث لصالح ساجو قائلا :

ـ معنى ذلك أنهم قبلوا الموضوعات .

ـ لا أريد أن أتحدث فى هذا الموضوع بالتليفون .

ـ وهو كذلك ياسيدى . أنا آسف .

ـ على فكرة .. من الذى أعد هذه الموضوعات ؟

ـ المحرر الجديد ياسيدى .

ـ أتقصد ذلك الـ ... الولد الذى حضر من أمريكا أخيرا ؟

ـ نعم ياسيدى .

وبعد لحظات من الصمت نطق انوابوزور ثانية قائلا :

ـ لقد قام بعمل جيد ، أليس كذلك ياسيدى ؟

ـ نعم عمل مقبول

وعجب ساجو لأن لهجة انوابوزور كان فيها شىء من السخرية وهو يقول :

ـ ألسنا محظوظين أننا استطعنا أن نأخذه عندنا ياسيدى ؟

وتغير صوت السير درين وقال بلهجة جادة :

ـ ألا تذكر أننى قلت لك أن تعينه فى الجريدة .. ؟

واقفل الرئيس السماعة بشدة ، ووضع انوابوزور السماعة والتفت إلى ساجو وأشار له بالجلوس وقال له :

ـ حسنا ، هذا هو الموقف ، أنت تعرف الأن .

ـ أعرف ماذا ؟

ـ اغلق فمك ، فقد اغلقت أنا فمى وسكت ، لقد تسببت فى أن أصطدم بعض الناس بالرئيس .

ـ تسببت فى ماذا ؟

ـ هذا يحدث كثيرا ، فهو جزء من الدفاع المتبادل ، فقبل أن ننشر أى فضيحة مثل هذه لابد أن تعرض على محامى الجريدة ، وهو بدوره يستشير

الرئيس فهو أمر خارج عن أيدينا .
- أكمل من فضلك فأننى فى حاجة لأن أعرف وأتعلم .
- الرئيس يعلم الطرف الآخر بالموضوع ، يعرفه بأن لديه أشياء ضده ، فإذا كانوا مصرين على مواقفهم سيقولون فلتنشره وإذا أرادوا ألا ينشر الموضوع يقولون أننا كنا نجمع معلومات عن فلان أو نحقق فى الموضوع ثم يرسلون تقريرا عن ذلك ، وقد تولى السير درين بنفسه ذلك الموضوع وجاء موضوعك فى وقت رؤى فيه التزام الصمت حوله .
- وماذا عن صديقى ؟
- انظر ياساجو ، لقد طال الأمد بى فى لعبة الصحافة ، ثلاثون عاما ، فى أول الأمر كنت متحمسا متمسكا بمثل هذه الأمور ولذلك تنقلت من صحيفة إلى صحيفة بسبب تمسكى بالحق وبالرأى الصحيح ولكنى أدركت أن الصحافة مثل أى مشروع تجارى آخر ، عليك أن تفعل مايريده صاحب العمل ، صدقنى ياساجو ، ولتعمل بنصيحتى المخلصة لك .
أخذ ساجو أوراق الموضوع الذى كتبه وقال :
- سوف أرسله إلى صحيفة أخرى .
هز انوابوزور رأسه معبرا عن آسفه ويأسه وقال :
- ولكن يابيودين أنت موظف عندنا ، وقد استخدمت وقت عملك معنا وهذه تعتبر ملكا لنا .
- ولكن ماذا لو قدمت استقالتى ؟
- لا .. لاداعى لذلك ، لتعلم أن الصحف الأخرى لن تمس الموضوع ولن تنشره ، سوف تتبع نفس الطريقة التى نتبعها وحينئذ سيكتشفون أن هناك اتفاقا مسبقا حوله . .
- فى هذه الحالة ....
- لا .. لا لاتتصرف بما يسبب تعقيد أمورك ، لاتسبب لنفسك المشاكل انسى الموضوع الآن .. صدقنى لن تستطيع أن تفعل شيئا لأنك قد تجد نفسك فى النهاية وحيدا غريبا فى هذا الوسط .
- بلاشك . ان هذا أسلوب يجب أن نتبعه فى الحياة .
- أسلوب عظيم ، وهو الأسلوب الوحيد ، سيحصل صديقك على عمل آخر ، وسوف ينسى الموضوع تماما ..
وخرج رئيس التحرير واغلق الباب خلفه عائدا إلى مكتبه وهو يفكر فى

الكيفية التى يسوى بها الأمر .
وأخرج ساجو مجلده الذى كتبه على ورق متوسط الحجم ، وفتحه ، وقال :
- ادخل ياماتياس .
ودخل ماتياس بزجاجتين مثلجتين كل فى يد وقال :
- فى أول الأمر قال أنا لا أنتظر حتى نهاية الشهر ، فقلت له سأدفع فى نهاية الأسبوع فوافق .
- شكرا لك ياماتياس
وناوله الكتاب وقال :
- افتح الكتاب على أى صفحة .
أخذ ماتياس الكتاب بشغف وكأنه معتاد على قراءة الكتب وفتحه وناوله لساجو الذى قال له :
- الآن اشرب ، وسأبدأ القراءة .
وبدأ القراءة
«... كان الفراغ صامتا مثل دخان الافيون الذى هو سحر الشرق ، وكان الصمت يسود حمام البيت الريفى الانجليزى الذى كنت اقيم فيه بعد أن يخرج الجيران إلى أعمالهم اليومية ويبقى الضيف وحيدا فى المنزل ، يستمتع وحده بذلك الصوت فى دورة المياه ، أما فى فرنسا فقد كانت الأسطورة أغرب من ذلك بالطبع فالدوراتلا تخرج عن كونها مكانا منخفضا مثل الحفرة التى تضع فيها السمكة بيضها ، ولقد كنت التمس فيها دخان الصمت فلا أجده حتى أننى كنت فى النهاية أهرب بكتابى من بيت الطلاب وأقضى حاجتى فى مكان مستتر من الغابة المجاورة ، فهناك الغابات تمتد لمئات الأفدنة ، وجدت فيها مهربا وملجأ أذهب إليها بانتظام للتأمل أو للمذاكرة وأحيانا كان يقتصر الأمر على الاستماع إلى تغريد البلابل وغيرها من الطيور . واعترف بأنه كان خلاء أو فراغا ناقصا فلم تكن فيه راحة كاملة أو ارتخاء كامل للعضلات والأعصاب . والأسوأ من ذلك ماقد يفاجئك فى ذلك الخلاء مما تستشعره من وقت لآخر من تحرك أطراف الحشائش ولمسها لجسمك مما كان يوحى بوجود ثعبان يقفز أو يزحف من تحتك وأنت جالس تقضى حاجتك . وكانت أصوات الطيور التى تشق الصمت شيئا سحريا فهى بحق تسهل قضاء الحاجة . وفى يوم من الأيام تتبعنى أثنان

من الطلبة الفضوليين يحاولان كشف سر خروجى كل يوم ليعرفا إلى أين أذهب وماذا أفعل هناك ، ولقد أثارت هذه المسألة عندى التفكير العميق فى نفسى وأنا مراقب أقضى حاجة من أخص حاجات الانسان ، وابديا اهتماما كبيرا بكشف ذلك السر والتعرف منى على السبب فيما أفعله ، وقد حررا نفسيهما من الحرج الذى قد يحيط بالأمر ، ودعيت لشرب النبيذ معهما ، وجعلنى ماشربته من نبيذ كريما فى كشف أسرار الخلاء ، وقد ظهر عليهما على ماأذكر إعجابهم ببراعتى فى استخدام الخلاء أو الفراغ وإدراك أسراره ، ففى التربة الرطبة ، وبين الحشائش والنباتات المتسلقة والمدادة يكمن الفراغ الحقيقى حيث تعود الأمور إلى أصلها فى الادغال وصحت وأنا أتحدث إليهم قائلا : العودة إلى الادغال والغابات ، فالهدوء والفراغ يحتاج إلى علم الانسان وأدبه ، ولابد للضوء كى تبصر العين ، ولابد من اختيار منقيات الهواء بما يناسب كراهية رائحة الهواء الذى نريد أن ننقيه . واستمرت الجدلية حول فكرة الفراغ أو الخلاء لمدة ثلاثة أيام ، فالكتب والرسوم الصحيحة يجب ألا تؤدى إلى الاحباط ، ومكبرات الصوت لابد أن توصل الموسيقى المختارة لاتلك الأصوات العابرة . ووصفونى بأنى برجوازى الخلاء أو الفراغ ، وذلك من قبل الهجوم الجدلى العنيف الذى يمتاز به الفرنسيون ، وكان ردى على اتهامى ببرجوازى الفراغ ، أنكم أيها الفرنسيون أصحاب فكر فراغى شبه زنوجى ، أنكم محرّفون أو محرفو فكر لا تستطيعون تفهم الحقيقة بأن الجو يجب أن يكون مثل الجو الكنسى ؟ أن رحلاتى وتنقيبى فى الكتب كان مجرد استطلاع ولكنهم القوا اندرومارفيل تحت اسنانى فنقلونى "من تفكير أخضر إلى ظل أخضر" وأثبت تصورى لتهديدات الثعابين المضاد لرؤيتهم للفراغ الشجرى فعاليته وكان من التكافؤ أن تبذر بذور فكرة الخلاء فى القارة الأوربية ولكن فاحت منها بصورة من الصور رائحة الهزيمة لأننى كنت ضعيفا أمام طلبهم لى بالتراجع ..

واقفل ساجو الكتاب بهدوء وظل هو وماتياس فى صمت وتأمل بضع دقائق ثم قال :

- اعرف جيدا ياماتياس أنك انسان طبيعى ، أنت فى الحقيقة انسان نافذ البصيرة ، ولايوجد الكثيرون ممن لهم أصابع حساسة مثلك تلمس بها مايمس النفس .

ـ هل ترى ذلك ياسيدى ؟

ـ أرى ذلك ياماتياس ، انه الصمت ، ان تفتح الكتاب بذلك الصمت يعتبر نوعا من العبقرية ، ياماتياس ، ياصديقى العزيز ماتياس لقد هيأك القدر لكى تنقذنى من الدخول إلى مستشفى الأمراض العقلية ، آننى آسعد حظا من صديقى الشيخ الذى هو فى طريقه إلى الدخول هناك ..

ـ وقانا الله الشر ...

ـ الله لايقى من الشر ياماتياس هل تعرف ؟ حتى أنا لاأعرف أن نفسى وجسمى قد بيعا لرئيس هذا المكان ، فبعد اسبوعين من العمل المخلص عند الوحش قالوا لا ، بل لم يقولوا شيئا لقد مسحوا وجهى بهدوء شديد ، قالوا أنك من أملاك الشبح ، عد الآن إلى عملك .

ـ لاتهتم بمايقولون يا أوجا .

ـ لأنهم يريدون انقاذ الفارس الشجاع ، ولابد أن تتم شواية الشيخ سيكونى . ماتياس لاتعرنى التفاتا ، أعرف أننى آسف على نفسى ولست أسفا على ألا أساعدهم على بناء الشواية .

قال ماتياس بعد أن انتهى من احتساء زجاجته :

ـ هكذا الدنيا يا أوجا .

ـ صمتا ياماتياس صمتا ، فأنا أعرف كل أنواع الصمت ، قد آن الآوان لكى أعرف المزيد منه .

نذر الصمت تطغى على كل شىء ، لابد من أن يبقى الصمت ويسود ، ضد الحب ، ضد الحاجة ، وضد الرغبة فى العطاء ، والندم ، حتى الندم ثبت أنه عاجز أمام مثل ذلك الصمت الذى أخذ والد سيكونى بعيدا إلى الموت . تزوج من فتاة مسيحية ، أنها خطيئة ، عار ، خيانة للبنوة وعقوق ، أدت إلى ذبول الحاج سيكونى حينما شعر بالعطش إلى الحب ، انها النذر والتهديدات فمنذ خمس سنوات وقف على باب مكتب الزواج المدنى ، وتحدى ثورة الغضب التى انصبت من أبيه وهو يقول له : لن اخاطبك مدى حياتى ، وليلعننى الله إذا التقى لسانى بلسانك بكلمة واحدة حتى أموت .

والآن تلقى الصدمة الثانية حينما علم أن أباه مريض فاتجه من فوره إلى المستشفى وخطا نحو الباب وسأل الطبيب : كيف حاله يادكتور ؟ هل هناك خطر ؟ إذا لزم الأمر يمكننا إرساله إلى الخارج ، ألا يقولون أن سويسرا بها علاج لمثل هذا المرض ؟ ويوالى أسئلته للطبيب : ماذا يقول

وهو فى فراشه ؟ هل يتحدث إلى أحد ؟ هل يذكر أسماء معينة ؟ هل يطلب رؤية أحد بعينه من أصدقائه أو أقاربه ؟ يقول الطبيب : انه يذكر أسماء ، واسمعه أحيانا يقول إنه يريد أن يرى بعض الأشخاص ولكن عليه ألا يطلب رؤية أحد من أقاربه أو أصدقائه دون أن نعلم بذلك.. ويحيله الطبيب إلى الممرضة التى تقيم معه فى الغرفة .. ويستمر الحديث .. ليس له اخوة أو أخوات ، ربما يحتاج إلى تغيير هواء .. ماذا ترى يادكتور ؟ أليس تغيير الهواء مهما يادكتور ؟

ويعلم الطبيب تماما انه يحتاج إلى تغيير ، عندما اقترب الحج وادرك سيكونى الكبير أن هناك طريقا للشفاء ، لا الاتجاه إلى لندن لقضاء الصيف أو إلى چنيف لقضاء أسبوعين ولكن إلى مكة لآداء فريضة الحج ، وامتلأ الحاج سيكونى بالأمل فى الشفاء حينما توجه إلى مكة ، ودار حول الكعبة وقبل الحجر الأسود ، وشاهد كل تلك الآثار .. آثار الماضى ، ملأته التقوى والرهبة وغمره الرضى بالقضاء .

ولما عاد سيكونى من الحج بدأ يعمل بفن النحت ، وكان أول عمل له نحت تمثال من الخشب اسماه « المصارع » لم يطلب من بانديلى العملاق أو غيره أن يجلس أمامه كنموذج بل استوحاه من شخصية الانسان فى لباس الحج ، ولكن وجه بانديلى لايخطئه أحد .. أوتار مشدودة تناضل لشدة ذلك التوتر ، وثعبان متحفز للقفز ، توازن الاختناق قبل التحرر منه ، يحوى المرونة والصلابة ، أما الباقى الذى كان اشبه مايكون بعملية الابداع التى استغرقت شهرا فقد كان سعارا ويأسا كما لو أن الزمن يعترض طريقه . أعطاه كولا مساحة مظللة خارج مرسمه الخاص ، وظل كولا يراقب سيكونى باعجاب يتزايد يوما بعد يوم وهو يحيل الخشب إلى روح حية كان لاستئناسها سحر محبوس . أما وجه بانديلى فمن الواضح انه ضرب من الغموض المتعمد ولكنه امر لازم وجاء وجه بانديلى الفريد ملائما بطبيعته الغامضة مع ملامحه ، ونادى كولا على جوجولدر الذى يجلس فى قاعة الرسم الزيتى ، ونظر جولدر الأمريكى بشغف وصمت إلى التمثال وعرض أن يشتريه .. هز سيكونى رأسه ببساطة وعدم اكتراث وواصل عمله ، وكان فى وضع اللمسات الأخيرة ، بتركيز ومهارة ودقة بالغة الحدة بالنسبة لعمله فى المراحل السابقة ، وتميز فى هذه المرحلة النهائية بثقته البالغة فى نفسه إلى الحد الذى جعل كولا يشك فى انه يعرف الرجل من قبل ويشك فى أن هذا هو أول عمل لسيكونى فى حياته .

وقال كولا :

ـ هيا بنا يا جو ، لنرجع إلى المرسم .

وهمس جو فى أذن كولا وهو ملىء بالشغف وبلهجة لاتخلو من حسد :

ـ هل تعتقد انه لن يبيعه ؟

فرد عليه كولا غامزا :

ـ اللعنة على شغفكم بالاقتناء أيها الامريكيون .

واكتشف كولا أنه فعلا يحسد سيكونى ، فإذا لم يكن تمثال المصارع سوى العمل الوحيد فى حياة فنان فإنه يعتبر تأكيدا للخبرة وانتاجا قياسيا يجعل سيكونى فنانا ظل طوال حياته ينتظر ليكتشف نفسه ، فاكتشفها ولم يترك مجالا للشك ، ومن المؤكد انه لم يكن هناك شك فى قدرة سيكونى ولا مايشير إلى أن ذلك التمثال هو المحاولة الأولى . وكان حكم جوجولدر مماثلا لحكم كولا الذى عاد إلى اللوحة الزيتية التى يعمل فيها ثم توقف عن العمل وتحدث إلى جولدر قائلا :

ـ لقد احبطنى مصارع سيكونى فلنكمل العمل غدا .

ـ لماذا احبطك ؟ هل اكتشفت نفسك ؟

ـ اتمنى أن يكون الأمر كذلك ، لا بل هل هو حسد بسيط .

ثم انفجر قائلا :

ـ لا انها لعنة ، فأنت نفسك تعلم كم من وقت امضيته اعانى مع هذا العمل الذى بين يدى .

ـ لكنك لم تكمله حتى الآن ؟

ـ ليس هذا فقط ، ربما كنت تراقب سيكونى أثناء العمل ، وتكون النتيجة ان تفكر فى هذا الرجل الذى لم يمارس سوى اعمال تافهة فى محطات توليد الكهرباء وتقارن نفسك به .

ـ لا تكن غبيا إلى هذا الحد يا كولا ، فأنت فنان ممتاز ...

ـ لاتقل ذلك

وتحرك جوجولدر نحو اللوحة التى يرسمها كولا ، فاستوقفه كولا قائلا :

ـ لايمكنك أن تراها الآن ، اعلم أن جزءاً منها جميل ، لكن انظر ياجو إلى هذا الشىء الذى يلفت نظرك ويسترعى اعجابك مثل الضربة المفاجئة تحت الحزام ، مما جعلنى أعود أثناء الليل وأنظر إلى عملى محاولا أن أجد فيه شيئا فلا أجد له رأسا من ذيل ..

ـ هل تتصور أن ذلك ممكن ؟ يا كولا انت الذى رسم هذه اللوحة فكيف تنظر إليها كما تنظر إلى عمل قام به شخص آخر ؟

ـ اعلم ذلك ، لكن هناك مايدهشنى حينما أراقب الفرس الذى لاينطق إلا فأفأه وتأتاه أثناء عمله ..

ـ اعتقد يا كولا أنها مجرد غيرة .

ـ وهل انكر ذلك ؟

وأراد جولدر أن يداعب كولا ويستفزه ولأن هذا التمثال قد يثيره كما يثير النساء ، وكانت مداعباته فى أول الأمر مجرد اختبار لحساسيته ثم عرف أن الغيرة أدت إلى شعور كولا باحباط ، أراد أن يستغل الموقف ويهدد بما يثير كولا ويزيد فيه من إحباط فقال :

ـ إذا لم تحصل لى على هذا التمثال فلن اجلس لترسمنى بعد ذلك

ـ لست رائق المزاج الأن للمزاح .

ـ أنا لا أمزح .

ولم يأت جوجولدر إلى الاستوديو فى مساء اليوم التالى فجرى كولا إلى المكتبة ثم إلى نادى هيئة التدريس فلم يجد جوجولدر هناك كما لم يجده فى حجرته ففكر فى البحث عنه فى حجرة الموسيقى ، وعندما أقترب منها سمع صوتا يدل على وجود جولدر ، توقف جولدر بمجرد أن رأى كولا فى الحجرة وقال له :

ـ عندى تدريب الآن .

ـ لم يكن عندك تدريب فى مثل هذه الساعة أمس .

ـ لا ولكن اليوم هناك تدريب .

فصاح كولا :

ـ لا تكن مهزارا ، تعلم ما أقصد ؟

جمعت السيدة الانجليزية التى تصحب جو فى التدريب كل أوراقها وقالت :

ـ على أية حال نحن على وشك الانتهاء إن لم نكن قد انتهينا ، وجز كولا على أسنانه من الغيظ حين أدرك ماتفكر فيه تلك المرأة خاصة أن الجميع يعرفون من هو جوجولدر ، وسأل جو بعد أن خرجت المرأة :

ـ هل ستأتى معى ؟

. فرد عليه جو بسؤال مقابل :

- هل اقنعت صديقك ليبيع لى التمثال ؟
ألقى كولا بنفسه على أقرب كرسى وقال :
- بالله عليك ، ماذا تقصد من ذلك ؟ ألم تر أن وجهك ظهر بوضوح وانه لا فائدة من جلوسك بعد ذلك ؟

كان جوجولدر ذلك الأمريكى الملون الذى يعتبر ثلاثة ارباع أبيض يكره وجهه القبيح ويقوم بعمليات رهيبة لتشويه وجهه أكثر فأكثر . وفى يوم من الأيام بينما كولا عاكف فى مرسمه وأمامه شخص يرسمه يسمى ايرينلى جاءه جولدر ووجهه أشبه بأوراق الجرائد المكرمشة نتيجة لتعرضه لأشعة الشمس المحرقة بعد الظهر ، فقال له كولا وهو يكاد يجن :

- بالله عليك ماذا أصابك ؟
- شمسكم أقوى مما كنت أظن .
فوضع كولا لوحة الألوان وقال له :
- هل تظن أننى سأرسم وجهك بهذه الحالة ؟

ثم صمت حين رأى وجه جولدر بتركيز أكثر ، رأى فيه صرامة غريبة تنم عن شخصية جديدة ، كان وجه جولدر القبيح يظهر كل أنواع التغيرات .. عيناه متورمتان جاحظتان ، وتبدو رأسه أشبه بكرة خيط مغطاة بطبقة رقيقة من الجلد فتظهر خيوطها غير واضحة ، وأحيانا يبدو كالحصان المذعور أو المصاب بالصرع ، وكان القبح باديا دائما على وجهه بسبب غضبه من نفسه وبالاضافة إلى تأثير الشمس الذى لايستطيع تحمله كسائر الزنوج الافارقة فقد أضاف ابعادا جديدة على ذلك الوجه . وقبل أن يبدأ كولا بانشاء هذه المرسم الضخم لاحظ أنه بالامكان ترجمة هذا الوجه إلى صورة أحد الأرباب أو الآلهة ، وحينما اتم إنشاء المرسم سقط جولدر ليجلس فى نفس المكان الذى يجلس فيه ايرينلى ، والذى سقط فيه من قبل ايجبوواوجون ، ويجلس جولدر الآن بوجهه المكرمش المتسلخ الذى تتوسطه دوائر وتضاريس مساحات من الأراضى القاحلة ونقط بيضاء أشبه بالريش المندوف . هنا أخذ كولا لوحة التلوين والفرشاة وأضاف ألوانا جديدة واتجه إلى اللوحة ليواصل العمل فيها وقال له :

- ألن تكرمش وجهك كالمعتاد ؟ أرجوك .
- لا أستطيع أن المسه ، لايمكن أن تتصور الالم الذى أشعر به .
- لكن متى ستتوقف عما تفعله لتبدو أسود اللون ؟

- حينما أبدو بلون يعتبرني الناس به ثلاثة ارباع زنجي ، أشعر بأنني مثل عيسو تؤام يعقوب الذى لم يعترف به .

- لا بل أنك تشبه يعقوب نفسه بذقنه البيضاء الكبيرة .

كادت الأيام التالية توصل الأمور كلها إلى درجة اليأس ، تحسن وجه جولدر بسرعة ، وتهب الرياح على الاستوديو فتنزع طبقة من جلد الوجه وتطير بها حول حامل اللوحة ثم تخرج بها من النافذة بينما يرقبها جولدر باهتمام ويتابعها كولا بنظراته وهو عاجز عن أن يفعل شيئا . واستمرت الرياح تهب حتى انفصلت من الصورة قطعة من جلد السيبيا المجعد فى منطقة الخد ثم كادت تسقط لولا استطاع كولا أن يمسك بها على طرف فرشاته ووضعها على الرسم وسوّاها وتركها لتمثل فى الصورة بروزا فى أذن ايزنلى .

كان عليهم أن يعملوا على علاج جولدر بالفازلين إذ كان يتألم أحيانا ويتأوه كالأطفال وكان لابد من وضع الفازلين ليخفف الجفاف "التقشير" وبينما يقوم كولا بدهان وجه جو يقول :

- انها مؤلمة جدا .

- طبعا ، أنها تؤلم ، بالله عليك من الذى قال لك اذهب واشوى وجهك ؟ ، وفى غرفة الموسيقى أخذ كولا ينظر إلى الجلد المتهدل فى وجه جو وهو يحاول أن يستثير الجانب الطيب منه ويغريه ، ولكن جولدر جلس على مقعد البيانو الذى خلا بخروج السيدة الانجليزية ، أخذ يعزف اللحن الزنجي الرتيب الذى كان يتدرب عليه مع تلك السيدة ، فقام كولا مسرعا واغلق البيانو على أصابع جو دون أن يسبب له ألما شديدا وقال :

- ألن تأتى معى ؟

- لا

- وهو كذلك ، فاياك أن تتجرأ وتدخل أى ناد ليلى فى هذه المدينة بعد الآن ، اعلم أن مالقيته فى المرة السابقة سيكون أخف بكثير مما قد تلقاه منذ الآن .

ارتاع جولدر بعد أن لعب كولا بأعصابه لهذه الدرجة من التهديد باستخدام العنف وهو يقول له أثناء انصرافه من حجرة الموسيقى :

- لاتنس انى اعرف طريقى جيدا وأنت لاتعرف طريقك ، لاتنس ماقلته لك .. لاتخاطر بدخول أى ناد فى المدينة كلها .

ومضى كولا نحو مرسمه تاركا جو فى حجرة الموسيقى يفكر فى امره مترددا ويتصور مدينة ايبادان بدون فرقته ... وبعد قليل تبع كولا إلى الإستوديو .

(٧)

الآن وبعد أن مات السير درين شعر كولا بأن أقدامه ثبتت وعجب لرغبته الشديدة فى أن يحضر مراسم دفنه فربما يُطلب منه تقرير صحفى كبير ، ولكن ليس هذا هو السبب فالمصور الصحفى سوف يحضر ، والخطيب الذى سيؤبنه سوف يسره أن يعطيه نص الخطبة التى سيلقيها ، ويستطيع ساجو بذلك أن يملأ صفحة الوسط المزدوجة وهو نائم فى سريره ، ولكن ساجو شعر بحاجته إلى الحضور بنفسه . ورفع نفسه قليلا لينظر من النافذة فرأى أن الجو غير مناسب فالمطر المتهمر جرد الشوارع من كل انشطة وحياة ، ثم سمع صليلا معدنيا عند الباب فعرف أن ديهينوا عادت من عملها .. وصلت اللعينة بصليل المفاتيح فأيقظته فشعر ببعض التحسن بعد ذلك النوم العميق ، فتحت باب الغرفة وقالت له :

ـ آه أمازلت حيا ؟

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ تقترب من الرابعة ، هل تريد أن تأكل ؟

قام ساجو ووقف ليختبر رجليه الواحدة بعد الأخرى ثم أعلن أنه يستطيع أن يقف على قدميه فكررت ديهينوا سؤالها :

ـ قلت أتريد أن تأكل ؟

ـ إذا كنت ترين ذلك فلامانع عندى ، لكن يجب أن آخذ دشا قبل الأكل .. ودخل ساجو إلى الحمام وتغيب فيه لفترة طويلة وهو ملىء بمشاعر غريبة من عدم الرضى والقلق ، وشعر بأنه لا يريد أن يرد على نداءات ديهينوا المتكررة ، فتحت عليه باب الحمام فجأة فوجدته جالسا وسط الحمام الخالى وبيده خرطوم من المطاط يتأمله ، فأغلقت عليه الباب ثانية وقال لها بصوت عال وهى خارج الحمام :

ـ لماذا تسكنين فى شقة كهذه بحمام بدون شطاف ؟

ـ الدش المعلق فى يدك .

ـ ولكن هذا ليس بدش ، بل خرطوم رش ، الاتعرفين ماهو الشطاف ؟ الم تذهبى إلى مدرسة داخلية ؟

ـ لست أنا الذى بنى هذه الشقة .

ـ بالامس قلت إنك لم تبن الطريق ، واليوم لم تبن الشقة ، أظن آنك لم تبن دولاب الأحلام أيضا !

ظلت صامتة مليئة بالغبطة ، وهو يتابع كلامه :

ـ فى كل بيت جديد مرتفع مثل هذا يوجد هذا الخرطوم اللين الذى لايثبت جيدا فى الصنبور فيخرج الماء من جانبيه ثم ينثنى ويتلوى فيكتم تدفق الماء ، نعم أعرفه ، وعلى كل حال هو قصير جدا ، لايمكننى من الاغتسال جيدا .

توقف عن الكلام فجأة وقال :

ـ هل كنت تستمعين إلى ماأقول ياامرأة ؟

ـ أراك فى شيخوختك انسانا غير محتمل .

ـ حسنا مادمت تعرفين ماتكمنينه

ـ لاتخف فأنا أعرف .

ـ ولكن هناك شيئا تكمنينه .

ـ عم تتكلم بحق الاله ؟

ـ عن فتحك باب الحمام لتشاهدينى وأنا عار .

لم ترد ديهينوا عليه ، قهقه ضاحكا وقال :

ـ أنا لا أفهم كيف تتصرف بنت متعلمة مثلك هكذا ؟

ـ إن ذلك ماتفعله فتيات المدارس الثانوية فى أمريكا كما ذكرت لى

ـ لا تتهميهن ، فإنهن لايفتحن باب الحمام على خطّابهن ، ويردن الإمساك بهم علنا هكذا

ـ إنهن لايفعلن ذلك مع خطّابهن ، أم أنك خطبتهن جميعا .

ـ على كل حال فأنا أحذرك .. سوف تُغتصبين فى يوم من الأيام إذا تجاوزت الحدود ، وستغتصبين بالطريقة التقليدية القديمة ، عندئذ ماذا تقول أمك ؟

وبعد لحظات ضحك ضحكة عالية وقال :

ـ يا إلهى . ياربى ، إنى أسمعك تقولين إننى حامل ياماما ، ولكنها ليست غلطتى ، لقد اغتصبنى ذلك اللعين ، وأمك تقول "ذنبك على جنبك ، ألم اقل لك الا تسيرى مع ذلك الشمالى ؟ وبالمناسبة لم تخبرينى من هو ذلك الشمالى ؟" . "انه وزير جميل وعنده يخت خاص" وترد أمك "قولى كلاما معقولا" إن إمرأة من الهاوسا ممن تنتهى كلماتها دائما بعبارة سَىْ جوبى

(إلى اللقاء غدا) سمعت اسمك وظننت أنك من الهاوسا .
: "ليت الأمر كذلك حتى إذا تزوجت ابنها واكتشفت أمرى ستموت بالسكتة القلبية"
قالت ديهينوا :
ـ حسنا ، أنا لا أقول مثل هذه الأشياء عن أسرتك .
ـ لا قولى ماتشائين ياعزيزى ، فأنى أكره ثرثرتهم وأقول ذلك فى وجوههم .
ـ على كل حال لاتذكر أمى .
ـ أخبريها أيضا أن تتركنى وشأنى .
ـ ماذا فعلت معك ؟
ـ قطعت كل تلك المسافة من ايبادان فقط لتحتج علىّ ، إن ذلك تدخل فى مصالحنا ، بالمناسبة أرجو ألا تكونى قد خدعتيها .
ـ لا .. ولماذا أخدعها ؟
ـ الانسان معك لايعرف الحقائق فربما قبلت بعض التنازلات تحت تأثير ابتئاسها وحزنها ، انك ترتشفين دموع أمك ، أليس كذلك ؟
وانتظر ديهينوا لترد على تساؤله فلم تفعل فقال :
ـ اعتقد أن من الأفضل أن أقول لجدتك لتتكلم معك فانها الآن امراة محنكة اكتسبت خبرات السنين وتقولين "نعم ، اعتقد أنها سوف تستمع لك وتستجيب"
تنظر الجدة إلى ديهينوا نظرات فاحصة طويلة .. "لماذا انت نحيفة هكذا ؟ لقد كنت ممتلئة الجسم حينما عدت من ايلواوينبا" وتحدق فى عينيها ثم تهز رأسها معبرة عن الرضى والآسى فى وقت واحد ثم تقول : لا أعتقد ذلك ولكن استمعى إلى يابنت ، أعرف عادات للفتاة العصرية فلاتتبعى تلك العادات السيئة ، إذا كنت تتوقعين طفلا فلتضعيه ، فالطفل شىء جميل ، ونحن لانخجل من الأطفال أبدا ، مهما قالت أمك فانك كبيرة وناضجة ، وتغضب ديهينوا بخبر جدتها عن وجود ساجو وتقول : هذا الكلام لايصح أمامه .. وترد الجدة : ولِم لا ؟ انه رجلك أليس كذلك ؟ يجب أن يكون كذلك مادام جاء معك كل هذه المسافة إلى ايفو ، انظر يابنى أمل أن تكون أعقل منها ، إذا رزقنى الله بطفل إرسل لى فسوف اباركه ، تتوقف الجدة عن الكلام فجأة وتنظر إلى الأثنين وتقول : ماذا تنتظران .. أريد أن

أعرف لماذا لاتتزوجان وتمنحانى أحفادا ؟

وخرج ساجو من الحمام بعد أن لف نفسه فى منشفة كبيرة وقالت له ديهينوا :

ـ طعامك جاهز .

ـ لا أعتقد أننى قادر على ابتلاع شىء الآن ، ابقيه ساخنا وسوف اذهب لاتمشى قليلا .

ـ وهو كذلك .

وقبلها ساجو على كتفها وانتقل إلى رقبتها ليعضها ففرت منه وهو يقول لها :

ـ أنت أجمل سكرتيرة خاصة وقعت ...

ـ ماذا .... ؟

ـ وقعت عليها عينى

ظلت الشمس مختفية وراء السحب لمدة أربعة أيام وساجو يعانى من البرد ويبحث عن أى شىء يبعث فيه الدفء وبدلا من الدفء صعقته الكهرباء مرة حينما لمس أصبع قدمه بالوعة الحمام المعدنية ، ومرة حينما لمس أصبعه قرص التليفون وعندئذ اخبر ماتياس بذلك ، علق بقوله :

ـ انها مسألة واضحة ، ألا تريد الحكومة ضم الوزارات الثلاثة مع بعضها .. الأشغال والكهرباء والمواصلات .

وضحك ماتياس ومضى ، فاستغل ساجو الفكرة فكتب عموداً فى الجريدة يراهن على أى الوزراء الثلاثة سيقتل الآخرين ليستولى على ثلاث وزارات فى وزارة واحدة ، وقد أدى هذا المقال القصير إلى ان خاف اهله على مستقبله وارسلوا له وفدا مختارا من ابناء عمه الأذكياء لينصحوه بالحذر ويرجوه ألا يكون أعداء بمثل هذه الطريقة

واقترب وقت جنازة السير درين ، ربما تكون المراسم قد انتهت أو قاربت على الانتهاء ولكن لابد أن يمضى حتى لو انه استطاع أن يلحق باجراءات الدفن فهذا يكفيه حتى لو لم يسمع الخطبة ولحق بالحفارين يهيلون التراب على الصندوق وربما شارك فى هذه العملية بحفنة أو حفنتين .

وفى الطريق مرت به سيارة مسرعة فرشته بالوحل واتسخ سرواله ، فأخذ يسب ويلعن تلك الفئران الحقيرة التى تركب السيارات ، ومرت به

سيارات متعددة ، ثم مرت به حافلة كبيرة أراد أن يركبها وجرى وراءها وسط الطين والوحل ومستنقعات الماء .. لم يلحق بها ووقف يسب ويلعن السماء ويقول إن فى السماء نشاطا ، وأنهم ينظفون دورات المياه فوق رءوسنا .. قد طفت طبقة من الزيت فوق مستنقع من الوحل رآها ساجو فقال أنها طبقة من زيت الخروع الذى كان يشربه وهو صغير .

عندما اقتربت الساعة من الخامسة ، بدأ ساجو يقابل الرجال الذين يجمعون المخلفات الآدمية من الحفر وجوانب الطرق فقال فى نفسه أن البراز بعد الموت هو الجو الحقيقى لوطننا المحبوب ، وكان ذلك بعد مضى شهر من وقوع حادث رآه ماتياس الساعى وهو فى طريقه إلى مقر الجريدة فى الصباح وقال له :

ـ أوجا .. لابد أن تذهب وتشاهد بنفسك .

وقع ذلك الحادث قرب مدرسة رينسانت الثانوية قرب موقف الحافلات ، وهناك رأى ساجو الخزان الذى تجمع فيه المخلفات وعلى بعد عشرين ياردة منه أكوام ضخمة من المخلوط السميك متروكة وسط الشارع حيث يقف ويسير أبناء الشعب والسياسيون ، والوطنيون والأجانب ، هناك فوق الاسفلت مباشرة ، وقد رفض رئيس التحرير انوابوزور نشر الصور لسبب فى نفسه مبرراً ذلك بأن الصور قد تضايق القارىء العام فقال له ساجو :

ـ لكن أكوام ذلك البراز مازالت هناك أمام المدرسة يراها الناس جميعا فى الشارع الرئيسى .

وكان ساجو قد مر بالموقع بعد الحادث بخمسة أيام ليلتقط المزيد من الصور كى يراها انوابوزور وكان واضحا فى الصور أنها مازالت موجودة وإن كانت قد تصلبت بعض الشىء ، وتجمع حولها الكثير من الكلاب التى تهوى الرائحة .. كما ظهرت بها بعض عجلات السيارات مطبوعة فى ذلك العجين الذى انتشر فى الشارع من جانب إلى جانب وبدأ يجف ويتغير لونه إلى البنى الغامق .

وفى الشوارع الفرعية من حى يابا رأى ساجو ماجمعه الكناسون من المخلفات الآدمية وكوموه تحت نوافذ المنازل التى تحف بتلك الشوارع والحوارى وتخمرت وأصبحت تصدر روائح معتقة تملأ الجو كله ، وهنا تداعى له منظر نعش السير درينولا محمولا وسط حرس من حملة المقشات

فى طريقه إلى القبر ، وهنا ارتبط عنده المنظر بالخلاء الحقيقى الذى يقضى فيه حاجته .

وفجأة شعر ساجو بالتعب فاستوقف تاكسى وجلس فى المقعد الخلفى مسترخيا فلمح رأس السائق ورقبته الطويلة التى تمتد فيها العروق السميكة مثل كابلات التليفون المغطاة بالقار ، تحسس ساجو محفظته فلم يجدها وبدأ يتذكر ، ربما نسيها فى منزل ديهينوا وهو يضع ملابسه بعد الحمام وتحسس جيوبه فلم يجد نقوداً .. سأله السائق أين يريد أن يذهب ؟ فقال :

ـ مركز الشرطة .

يعرف هؤلاء السائقين ، ومايسببونه للركاب من مشاكل ، فلما وجهه إلى ذلك المكان أخذ السائق يتلفت يمينا ويسارا وهو شديد الانزعاج والقلق وقال له بلغته الانجليزية الدارجة :

ـ أوجا .. ألا تستطيع شرطة نيچيريا أن توقف هذا المطر السيىء ؟

فكر ساجو فيما قاله قليلا ثم قال له بايقاع بطىء :

ـ هل تعمل مساحات الزجاج فى سيارتك ؟

قال السائق :

ـ اتقصد مساحات المطر ؟

ولكى يؤكد ساجو موقفه لم يعد عليه السؤال وبعد لحظة قال السائق :

ـ أوجا ، تلك الشركة اللعينة التى أصلحت عندها السيارة .. فاليوم فقط أخذت سيارتى من مركز الخدمة ، ثم بدأ المطر بعد أن غادرت المحطة ، وانظر الآن يا أوجا كيف أعانى فى الطريق فالمساحات لاترضى أن تعمل

ـ وعداد السرعة ايضا لا يعمل ؟

ـ آه يا أوجا ، كم يعانى الانسان هذه الايام ، لقد دفعت ستة عشر جنيها فى مركز الخدمة اليوم ، إذا لم تطرد كل هؤلاء الأجانب الغشاشين فلن تفلح أفريقيا ابدا .

ـ قف .

ـ أوجا هل تريد أن أقف هنا ؟

ـ قلت لك قف .

ـ أعف عنى ياسيدى ، كانت عندى قضية انتهيت منها منذ أيام بسبب سيرى بضوء واحد .

ـ هل أنت أصم ؟ قف هنا فورا .

وقف التاكسى ، وأخذ الرجل يعتذر لأنه لم ينفذ الامر فورا . ونزل ساجو ووقفا يتبادلان النظرات وأخيرا بدأ يسير فى الاتجاه الآخر فمضى السائق بسيارته ببطء وهو لايصدق المعجزة التى حدثت فالورقة ذات الخمسة شلنات مازالت فى يده ولم يمد الضابط يده ليأخذها ، انها معجزة حقا ، فكم امتدت أيد لتسلم عليه وتتسلم الورقة المطلوبة فى كفه .

عند الناصية لمح ساجو محلا كبيرا .. محلا قريبا من منطقة المدافن المهجورة المعروفة باسم الوجوميج ويفصل بينه وبين تلك المدافن شارع ضيق غير مرصوف ، وفى نفس المكان بالتحديد يوجد صناع الدواليب الذين صنعوا ذلك الدولاب لصاحبة العظمة ديهينوا السكرتيرة الشخصية .. الدولاب الذى يعتقد ساجو أنه ترك نقوده به ، وقد ازدانت مقابض تلك الدولاب مثل مقابض دولاب ديهينوا مزينة بنفس اشكال الزهور الميتة ، وحينما اقترب من المحل قال له صاحب المحل :

- تحت امرك ياسيدى .. أى خدمة ؟

- لا .. لا أريد أن أشترى شيئا .

- لدينا كل شىء ياسيدى ، لو أردت أثاثا من أى نوع يمكننا أن نصنعه لك .

- لا . اريد فقط أن أرى البضاعة .

وجد ساجو الى جانب الدواليب وخزانات الملابس والمكاتب الكثير من التوابيت بعضها مصنوع من الخشب الخام ، وبعضها مطلى وبعضها عليها زخارف من نحاس على اغطيتها . والقى نظرة عبر الطريق حيث توجد المدافن القديمة وعليها اكاليل الزهور الجافة فعرف من اين استوحى النجارون فكرة تزيين مقابض الدواليب بدوائر من الزهور على ذوق صديقته ديهينوا .

ومشى ساجو عابرا كوبرى كارتر قبل ان يدرك أنه يعبر فوق المستنقع فرأى ماء البحيرة والزبد يغطى سطحه ، واعشاش الصراصير والحشرات تحف بجوانب الماء ، وكان هذا المعبر مهجورا ، قليلا مايسير عليه أحد ، وتراءت له فكرة ان نصف هذا المكان قد خلق خصيصا للانتحار غرقا ونظر الى الماء مدفوعا بغريزته ليرى نصف الجثه طافيا فوقه تحتجز جريان الماء .

فجأة رأى شيئا كالمعجزة أو لعل المطر توقف فجأة وجفت الأرض من زمن طويل ، وانتهى الكوبرى ، وبمجرد أن غادره تراءت له السماء وكأنها

تفتحت عن شمس ساطعة تتدلى أشعتها الى الأرض كأن طفلا مات من اللهاث ، ووصل الى قسم الخمور المعروضة فى واجهة المحل الفرنسى وهو مفتون بالمعروضات الغالية التى فيها ، ولمح من خلال كأس النبيذ انعكاسا لمنظر الموت فاستدار خلفه وقال :

ـ انها فعلا فكاهة .

رأى سيارة قديمة قد ترجع الى أكثر من عشرين عاما مضت ، تتحرك ببطء حتى يكاد الرجلان اللذان يسيران وراءها مباشرة أن يصطدما بها بين خطوة واخرى والباب الخلفى مفتوح يطل منه تابوت مصنوع من خشب رخيص وفى الجنازة يسير احد عشر رجلا ، استطاع ان يعدهم بسهولة ، وكان الحزن باديا على وجوههم جميعا ، وأثر الدموع مازال فى اعينهم بل كان البعض منهم مازال دامع العينين . وكان قائدا المشهد ملتصقين بالرفرفين الخلفيين للسيارة ملازمين لها على جانبى الجزء البارز من التابوت ، رآهما َفى اسوأ نوع من العمل يمكن للانسان ان يقوم به وكان التابوت اسوأ صنعا من الدواليب التى رآها في ذلك المحل عند جبانة الوجوميج ، دهانه لامعا يميل الى الحمرة مثل لسان مدمن الكولا .

تمتم ساجو قائلا :

ـ رحم الله المغفلين ، لماذا لايضعون التابوت فوق السيارة ويركبون هم ؟

لايضير الميت أن يحتقر الانسان الموت .

يلبس المشيعون جميعا حللا ذات ستر بيضاء غير مهندمة ، ياقاتهم معوجة والاربطة معلقة فى اهمال ، الاحذية متسخة مفكوكة الاربطة وعلى وجه كل منهم يبدو التجهم الممزوج بالشعور بالذنب كأنه لم يستطع أن يقدم للميت المزيد ، وخاصة حين ارتسمت عليهم ملامح الخجل وهم يدخلون الى جبانة ايكوى بالميت مطلا خارج السيارة كأنما يخرج لهم لسانه ، ويترنح مما جعل المشيعين يسقطونه فى الحفرة بسرعة .

حدق ساجو بدقة فى السيارة التى تحمل التابوت فظهر له رجل أبيض امام عجلة القيادة فأخذ يفكر فى التناقض الذى يقبع خلف السيارة ، وشاهد الجنازة تتحرك لتعبر الجسر الذى يفصل مساكن الاحياء عن سكن الموتى ، وان كان ساجو يعتبر سكان منطقة ايكوى جميعا أمواتا لان الاحياء فيها اما بقايا البيض الذين ظلوا فى البلاد بعد اعلان الاستقلال أو

السود الجدد الذين حلوا محل البيض .
ومرت على ساجو لحظات اخرى هامة اثناء مسيرته ، عربة نقل موتى فاخرة تتقدم وخلفها الف رجل أو أكثر يسيرون ببطء وهدوء احس به ساجو بصعوبة ولم يحس به الآخرون ، ففكر في أن يسرع الخطو وينبه السائق الابيض الذي يقود السيارة ببطء لتهديد الزحف القادم وراءه ولكنه فضل أن ينتظر ويرقب ماسوف يحدث . احتراما للثراء توقف الفقراء ليمر الأغنياء في قطارهم الطويل الذي يناهز الميل ويتكون من آلاف المشيعين من السائرين على الاقدام ، واربعين سيارة أو أكثر تسير خلف عربة النعش التي يجرها آدميون ، وجميع السيارات تحمل اكاليل الزهور ، والباقي يحمله المشيعون السائرون على اقدامهم .
تنهد ساجو وحمد الله لانه عرف مكانا جديدا يذهب اليه حينما يكون لديه فراغ ليعربد مع الطقوس الجنائزية ، قد يذهب الى حفلات العرس ، واسابيع المواليد وحفلات الخطوبة وحفلات الاستقبال ، ولكن يفوق كل ذلك مسيرة الجنازة التي تستمر ليلة بكاملها ، والخروج الاسبوعي خلال اربعين يوما انتظارا لعودة الروح الى الجسد ، ومايتعلق بها من حفل تأبين يتم بعد بضعة أسابيع من أجل العودة الثانية للروح ، والولائم التي تقام لذكرى الميت ويمكن للانسان بذلك أن يقضي كل حياته في احتفالات بالميت .
في أحد سيارات الموكب كان هناك وجه منغمس في ورقة مكتوبة ، لاشك أنه المؤبن الذي يكرر مافي تلك الورقة من مواعظ طيلة مسيرة الخمسة اميال بسرعة لا تزيد على أربعة اميال ، ويبدو ان المشيعين لم يتعظوا اثناء المسيرة الطويلة ، فلما مر موكب الجنازة بالموكب الذي سبقهم وتوقف ليفسح الطرق أخذ المشيعون يطاطئون رءوسهم خجلا من مشيعي الجنازة من الفقراء وتركزت انظارهم على الأحذية التي يلبسها هؤلاء الرجال غير المهندمين .
وكان شعور الآخرين ، مغايرا فاستلفتت هيبة الوداع الأخير للسير درينولا انتباهم وجعلتهم ينظرون وملؤهم الأمل ، ويشكرون الرب ان اصبح لجنازتهم الصغيرة وفقيدهم الفقير مكانا الى جانب تلك العظمة البالغة .
وعرقلت جنازة السير درينولا المرور قرابة ثلاث ساعات ولم يحضر رجل المرور الا بعد أن مر نحو نصف المشيعين ، فأخذ يوجه السائرين على الأقدام الى المعبر الآخر المؤدي الى منطقة الجبانة منعا للتزاحم . اما في

داخل الجبانة فان الجسدين لقيا نفس المصير فى ارض واحدة ولكن يفصل بينهما بعض المقابر الاخرى .

كان ساجو قد انضم الى موكب السير درنيولا ، وأخذ يشق طريقه وسط الزحام ليصل بسرعة الى حيث كومت اكاليل الزهور قرب المقبرة ، وامام انظار الجميع امسك اكليلا وصلى للروح المقدس ، ثم امسك اكاليل اخرى وقال وهذه للأب والابن ، ثم اندفع يشق طريقه مرة أخرى الى خارج الزحام بعد أن ألقى نظرة على تابوت السير درين وقال اعتقد أنك مدين لى بهذه ، انك لاتمانع ان آخذها .

ثم اتجه نحو المشيعين الآخرين فوجدهم يحاولون اخراج التابوت من السيارة الضيقة ، فأعطى الاكاليل لأول شخص قابله منهم دون أن ينطق بكلمة ، ووقف قليلا ، فلمح سائق السيارة وتبين أنه أصهب وليس رجلا أبيض ، وادار لهم ظهره ثم مضى لأن رأسه دارت فجأة ونسى أن يرى ذلك الاصهب الذى اسرع خلفه ليشكره على اكاليل الزهور .

اسرع ساجو مبتعدا عن المقابر ، وهو يهرب من كلمات المؤبن فى مكبرات الصوت العالية المليئة بالشعارات .... ان دوافعنا فى الحياة .... ان مثالية ان آمالنا ... روحه باقية بيننا .. الامل فى مستقبل افضل لنيجيريا ... من أجل القوت والخلاص فى سبيل الاحياء الوطنى .

اجر يازنجى يامسكين اجر

(٨)

كان هذا ختام قصيدة « شعرية » قرأها ساجو منذ فترة فى إحدى المجلات المحلية ونسيها ، ولكن لمع به ذهنه الآن نتيجة للتجمع الهستيرى من الناس تحت شرفة حجرته فى فندق اكسلسيور . بدأ ذلك التجمع خلف سوق أوينجبو حيث وقف العاطلون يحتمون من المطر تحت مظلات السوق التى يتسرب الماء بين اجزائها . ولقد جرهم الصيد وراءه ثم انضم اليهم كثير من الدهماء ، وأخذ بندول الساعة يتحرك ويحرك معه الكثير ، يجرون على ايقاع البندول الذى يدق دقاته المنتظمة السريعة ـ اجر يازنجى يامسكين اجر ـ وجعل من الضحية مسيحا يلتمس الخلاص لكل لص . واستطاع رجل المرور النصف نائم أن يوقف المسيرة لحظة ثم عجز ونفض يديه عن المهمة حينما غمره فيض المتجمعين يتجهون الى موقف السيارات ويتزايدون وهم يجرون ويتسابقون حتى وصل التجمع المتضخم أمام فندق اكسلسيور .

قفز ساجو من الحافلة التى يركبها متجها ناحية الفندق وانضم لذلك الجمع الكبير وهو يهدر صياحا .. حرامى .. حرامى ... !! وتبع ساجو ذلك الجمع الذى تصور أنه سيتجمع فى اليوم التالى مرة أخرى ليهتف للص الكبير وهو عائد من بعثته الاقتصادية العشرين ويحيطون بقطاره ويقذفونه بالطين ويكشرون له عن أنياب كلاب مسعورة .

تشهد لاجوس كل يوم مثل هذه المطاردات من جموع غاضبة خلف خطاف سيىء الحظ ، انها مظاهرة اخلاقية تنتهى بشجار قد يضرب الناس فيها بلاتحفظ ولاتمييز فيخشى الشاب او الرجل ذلك ويدفعه الخوف الى الاسراع بالجرى فى اى اتجاه حتى يلاقى جمعا آخر فيطير الى اتجاه آخر ، وينتهى الأمر به الى بحيرة من البحيرات فيصيح صيحة الخلاص ويلقى بنفسه فى مائها .

« ... لم آخذ شيئا .. اقسم اننى لم آخذ شيئا ... »

كان صاحبنا الحرامى رمزا للخلاص فى هذا الصباح الغائم وهو يجرى

مسرعا فى لباسه البسيط المكون من قميص حريرى أبيض وسروال ضيق بدا وجيه المنظر وسيما ولكنهم حينما اخرجوه من البحيرة كان عاريا الا من لباسه الداخلى الاسود . قبل أن يجرى أوحى منظره ببعده عن الشبهات . وحينما جرى أمام المطاردين كان المنظر يوحى بانعدام العدالة أو غيابها ، وبأنه انسان بشع وعداء شديد المراس ، وربما حدث ذلك نتيجة للخوف والهلع بينما اتجه الى مياه البحيرات يحمل قميصه الابيض الحريرى تحت ابطه ظنا انها الملجأ أو الملاذ ، وبدت عودته مشينة لان قميصه ضاع ، ازال الخوف عن وجهه وخرج عاريا الا مما يستر عورته .. ذلك اللباس الاسود .

ولربما سالت دماؤه أول الأمر ، ناور هذا الحرامى أو اللص الهارب فى اول الأمر مع مطارديه واتجه سائق سيارة بمقدمة سيارته ليصدمه ويرديه قتيلا ولكنه قفز من امامها ، فتابعه السائق ليلحق به وصاح ساجو :

- هذا السائق يريد قتله .

وصاح رجل آخر يقف بجوار ساجو :

- اقتل هذا اللعين .

كان من السهل قتل هذا الهارب بالسيارة فغضب ساجو لذلك الاهمال ولم يكن يريد أن يلقن هذا الجمع درسا لانه يشك فى قدرتهم على الاستيعاب ، ولكنه اعتاد المواجهة الحازمة العنيفة لمثل هذه المشكلات مثل هذه البربرية التى تظهر من وقت لآخر فى هذا الجمع من الناس ، وتآمرهم ضد من يظهرون أحيانا بأنهم أقل مرتبة .

جرى داخل الفندق وواصل جريه إلى الشرفة حيث يستطيع أن يشهد المنظر من فوق رءوس المطاردين ، ويرى اللص المطارد الذين يسمونه باراباس بلغة اليوروبا وهو يزوغ منهم ، فزاغ من أحد المهاجمين وتركه يسقط مما جعل ساجو يصفق لانه ترك هذا المهاجم على الأرض . ولم تلفت هذه البراعة الرياضية أنظار الجمهرة المحتشدة ، كما أن عداوة الجمهرة واصرارها لم يفقدا الباراباس ثقته فى مهارته فى الزوغان . ثم أصبحت تلك الغوغاء مثل الاسماك الصغيرة التى تتجمع حول سمكة مجروحة أو ميتة ، أخذوا يقذفونه بكل مايقع فى أيديهم من حجارة وزلط وعلب صفيح وزجاج ، وأدى هذا الى أن فكر فى الخلاص بأى طريقة فصاح فيهم .

- ماذا فعلت ... ماذا فعلت ؟

وبعد هذا الالتماس بالخلاص قفز الى الماء ، واقترب الجمع من خط الشاطىء فحجبوا الرؤية عن ساجو الذى وصل الى سطح الفندق بعد أن جرى صاعدا اربعة ادوار كاملة ، وكان هناك رجل مستند الى السور يرقب المنظر ، اثار وجود هذا الرجل دهشة ساجو لانه كان يقف بجانبه فى الدور الاسفل ، انه نفس الرجل لم يخطىء ساجو الظن ، لم يكن لونه الاصهب هو الذى استرعى نظر ساجو بل أيضا ملابسه المكونة من قفطان ، وطاقية جوخ حمراء هى طربوش عمامة . سمع من اسفل صيحات تقول : ... « لاتتركوه يقفز فى الماء .. لاتدعوه يقترب من الماء ... »

يستطيع اللص العادى أن يقفز من الدور السادس ، وأن يحبس انفاسه تحت الماء وهو يعبر البحيرة ، ولذلك لم يشك أحد فى انه سيفلت منهم اذا ماقفز الى الماء .

وانزلق اللص على الشاطىء المنحدر الى الماء واتخذ طريقه يخوض فى الماء ثم اختفى عن الأعين بضع ياردات ، وبعد ذلك لمحته العيون ثانية يتجه الى الجانب الآخر من المستنقع ، وهنالك خلع ملابسه المبللة وسط جزيرة صغيرة لإتتسع لاكثر من شخص واحد ، ووضع ملابسه مطوية فوق رأسه وجلس على مسافة من الشاطىء بعيدا عن أيدى هؤلاء الدهماء . وقد بدا عليه التحفز والاستعداد للقفز عند ظهور أى علامة خطر .

وفجأة سمع ساجو صوتا قرب اذنه يقول :

ـ ربما يكون هذا الصبى بريئا .

انه صوت الرجل وقد اقترب منه ، واتخذ مكانه بجانبه مباشرة وتردد ساجو فى اول الامر عن الرد لكنه آثر أن يكون متحضرا فرد عليه قائلا :

ـ لا اعتقد ذلك .

وصمت الرجل الأصهب لحظات ثم قال :

ـ ارى أنك لاتتذكرنى .

نظر اليه ساجو يستجمع ذاكرته وعاد الى الحديث عن المنظر الذى يشاهدانه وقال :

ـ يصاب الانسان بالرعب حينما يوجه اليه اتهام خاطىء ، وهو أمر قد يتعرض له أى شخص ، أليس ذلك احتمال علينا أن نأخذه فى الاعتبار ؟

ـ الجماهير قليلا ماتخطىء الحكم على الرجل ، ربما يكون برئيا .

وبدأ التجمع يفسح مكانا لرجل يشق الطريق نحو البحيرة ، فقال الرجل الاصهب :

ـ ربما يكون رجل الشرطة ، يأمل اللص ان تصل الشرطة . والا فلن يغادر مكانه .

تضايق ساجو من اصرار الرجل الاصهب على التحدث معه فقال له :

ـ يبدو انك تعرف الكثير عن عادات اللصوص .

ـ نعم بالتأكيد

وبدأت المساومات والمفاوضات بين الرجل الذى حضر أخيرا وبين الهارب ، ثم صاح الرجل فى الجمع ان ينفضوا ويذهب كل منهم الى عمله . وبدت صيحات وثغاء تعبر عن الاحتجاج وعدم الرضى وبدأ التراجع الى الخلف قليلا . وظل البارباس يرقب الموقف والمناورات ، ولما تأكد أن للرجل سلطة عاد من الجزيرة وتسلق المنحدر وسلم نفسه .

أفسح الجمهور طريقا للرجل فأمسك بالصبى من سرواله وفقد المطاردون اهتمامهم ، وبقيت شراذم من المصرين على مواصلة المطاردة ولكنهم لم يجدوا لهم مؤيدين ، وانتهت التهديدات التى كانت تنطلق من دقائق ووقف الجميع ليروا وجه اللص المتهم لأول مرة .

لم ينس ساجو وجه السائق الذى اراد أن يصدم البارباس ويحطم ساقه أو يرديه قتيلا ، ورأى الوجه واضحا وسط الجمع يشق طريقه وقد امتلأ بالغضب لفشله فى ارضاء رغبته فى سفك الدماء ووقف منتظرا اقتراب اللص منه وصاح « اوموأولى » ها انت ذا ... لن تهرب منى ، وصفعه صفعة عنيفة ، وانتهت لحظات ضبط النفس وانطلقت الرغبة المكبوتة داخل المئات توسع اللص ضربا ، وبينما ساجو ينزل جريا تذكر أن الرجل الاصهب قد اختفى من جانبه فعاد الى سطح الفندق منتظرا ظهوره . ووقف يرقب الضرب ويستمع الى الصيحات :

... هل رأيت صفعتى له .. لقد لكمته لكمة لن ينساها ... خذ هذه اعطنى عصاك لاضربه على وجهه ....

وظهر الرجل الاصهب بعد دقيقة وامسك بالصبى ، وامكنه بمساعدة الرجل الآخر أن يحمياه من الجمهور ، وأخذ الأصهب يصب الشتائم على كل من يحاول الاقتراب ، لم يسكت الجمهور وأخذوا يتغامزون عليه ويلمزونه ويسخرون منه ....

ـ يا ابو الخفاش .

ـ هكذا يتجمع اللصوص معا .

ـ هل تخجل من لونك فتلبس النظارات ؟
ـ اخلع النظارة لترى وجهك .
ويصحب كل تعليق من هذه التعليقات ضحكات عالية ، لكن لم يجرؤ أحد على مد يده ليلمسه أو يلمس الصبى .
وتوالت التعليقات :
ـ كانت عندهم ازمة وقود حين ولد .
ـ نسيت امك أن تسويك جيدا فى الفرن .
وأخذ اللص معه نحو مصعد الفندق ودفعه داخل المصعد ووقف يسب الجمهور أقذع الشتائم ويرد عليهم بأفسق التعليقات عن فساد امهاتهم واخواتهم وانحرافاتهم الجنسية . ثم اقفل باب المصعد .
واسرع ساجو الى بهو الفندق ليرى الى اين سيؤخذ الصبى ، وظل الغوغاء يصيحون فى الخارج غاضبين ، وسرعان مايعودون الى سيرتهم الأولى متفرقين فى جماعات من اثنين او ثلاثة يتسكعون على جوانب السوق ليتجمعوا مرة أخرى فى مناسبة اخرى ليشهدوا زفة عروس أو حادث سيارة أو يتبعون متهما آخر بالسرقة .
وقف ساجو مترددا حينما تذكر أن الرجل الأصهب حاول التقرب اليه ولكنه رفضه ، لكن الرجل اتجه الى ساجو وانفرد به وقال له :
ـ اشعر بالخجل لاننى لم اشكرك فى ذلك اليوم على باقات الزهور التى اهديتها لنا يوم دفنا أخونا الراحل .
ـ لا اذكر ....
ـ هنالك فى الجبانة منذ حوالى اسبوعين احضرت لنا باقات الزهور اثناء الدفن ، كان ذلك الرجل الأصهب الذى يقود السيارة التى حملت التابوت وواصل حديثه قائلا :
أردت أن أشكرك ولكنك غادرت الجبانة بسرعة .
ـ لابد أن ذاكرتك قوية للغاية .
ـ ليس الامر كذلك ورأيت صورتك فى صفحة الجريدة التى تكتب فيها عامودك وعرفت أنه انت الذى اهديتنا الاكاليل .
ـ آه طبعا .
ـ هل كان الميت الذى دفناه اخوك ، أقصد قريبك ؟
ـ لا لايمت لى بأية صلة .

أبدى الرجل الأصهب دهشته وهو يقول :
ـ الا تعرفه ؟ ولكنك ....
ـ لا تضخم الامور ، انها مسألة بسيطة فقد أخذت تلك الاكاليل من الجنازة الاخرى حيث بها أكوام كثيرة منها .
ـ هكذا ، فانت رجل صالح .
ـ هل ترى ذلك حقا ؟
ـ اجل والآن يامستر ساجو أرجو أن تسمح لى بالحضور للتحدث معك فى مكتبك .
ـ مرحبا بك فى اى وقت ، اتعرف المكان ؟
ـ نعم اعرف المكان ، وأود أن اناقش معك بعض الموضوعات الهامة .
تصافح الرجل مع ساجو وتركه ، وكان ساجو مدهوشا كيف أنه لم يتأثر حينما أشاح وجهه عنه ولم يعره حتى ابتسامة وهو يخاطبه واطل يتساءل : من هم الذين وراء التابوت الذى كانت تحمله السيارة القديمة ؟ اما بالنسبة للرجل الاصهب (عدو الشمس) فان الدور الذى قام به لانقاذ الصبى المطارد قد طمأن ساجو من جهته . ولكن تأثير الصهب عليه غير مريح ربما لانهم يختلفون فى تكوينهم الطبيعى ... راقب ساجو الرجل الاصهب وهو يجلس على المقعد الوثير ويمد يديه ليسندها على جانبى المقعد ، ورأى البشرة الباهتة فى مؤخرة رأسه فاتجه خياله الى الخفاش ولكنه سرعان ما أوقف هذا الخيال الجامح وقرر أن ينسى الرجل حتى يأتيه للزيارة .

(٩)

تحول منزل بانديلي الى مكان هادئ أمين يلجأ اليه هربا من زيارات أبناء أوسا الذين يأتون اليه ليسحبوا مما بيده مثلما يسحب الزيت من بئر البترول دون عمل حساب لنضوبه وجفافه في وقت تكون فيه الحاجة ملحة . كان يهرب من اصوات الجراموفون المدوى الذى يلازمه فى طريقه الى مكتبه ومن اصوات ابواق السيارات ونداءات الباعة وضجتهم ، ومن الروتين البيروقراطى الذى يعيش فيه وسط الملفات ومحاضر الجلسات والتأشيرات والردود والديلومات غير ذات المعنى الواضح المفهوم .

وكانت التبرعات التى يطلب الى ابناء اوسا دفعها ، والرسائل المتبادلة بينه وبين الرجل العجوز قد اقامت الصلات القوية مع اتحاد ابناء اوسا الذين يأتون فى وفود ويحملون الهدايا الى ايجبو أونوسا الذى يعتبره الجميع أملهم فى المستقبل ويقولون ان القدر فى يده .... كانت لديه رغبة فى الابقاء على تلك الصلات ، بل ويشعر بلذة حينما يفكر فى المملكة التى تنتظره فى يوم من الايام عن امه التى لم يلمح وجهها ابدا ، ويندهش حينما يقولون انها تشبه عمته .. ويحدث ذلك كلما خلا الى نفسه يفكر فى الشقوق المائية التى تندفع وسطها الرياح فيثير فيه خيالها حافزا لسلطة ثم يدرك انها بعيدة المنال فيستغرق فى احلام وتداعيات كما يحل كل المسائل التى تعرض له وتوقفه امامها عاجزا . فيجلس تحت الكوبرى المعلق يتأمل حركة الماء ويخوض مرة اخرى فى اسطورة الرواسب الباقية فى المجتمع ويتساءل : الى متى ستستمر غيرة الرجل الميت حية بيننا .

هنا يسأله بانديلى :

- لماذا تستمر فى افراز الافكار وانت قادر على أن تصل الى قرار بشأن اتحاد ابناء اوسا ، انك قادر على الاختيار .

لايستطيع ايجبو أن يختار ، فالاختيار درجة من درجات السلطة وموهبة فى حياة الانسان ، ولابد أن يصل الانسان الى مرحلة الاختيار من داخليته وليس من دوافع الماضى .

ويتابع بانديلى مناقشته قائلا :

- أنت دائم الكلام عن الماضى كما لو أن الماضى ليس له مكان عندنا .

- يجب ان يموت ، ولاأقصد بذلك موت الجسد - لا بل الحقائق الموجودة فى داخل المجتمع ، الفروع الميتة على شجرة حية فحينما يموت الناس بطريقة أو بأخرى فلا يهم وضعهم بالنسبة لنا ، ويصبح على الأحياء آن يؤدوا ما عليهم من دين هو النسيان ، نسيانهم بسرعة ، صدقنى يجب الا يكون للموتى وجود بيننا .

فعلق كولا قائلا :

- انك وساجو متفقان تماما .

- ولكن ساجو رجل سياسى .

- مامعنى ذلك ؟ قل لى أن الأفريقى الجديد يتقيأ السياسة .

- ارأيت كيف لاتعرف ماأتحدث عنه ؟ الا تستطيع أن تستوعب فى رأسك أن سياستك العالمية أو القومية تكون لها قيمة ما لم تكن آنت نفسك غير مكترث بالماضى أو غير منغمس فى نسيج الماضى .

فسأله كولا .

- اذن ماشكواك ؟ .

- لاشىء ، لاشىء أبدا مادامت رأسى تعمل ومادمت أفكر .

- ولكن هل لاتعمل رأسك فعلا ... ؟

إلى هذا الحد كان ايجبو قد وصل الى درجة الضيق فصاح :

- لايمكن ان نلغى الماضى بجرة قلم ونتخلى عنه ؟ فليبق ما ينطوى عليه من مفارقات حتى يمكننا الخوض فيه بارادتنا وتركه بدون أى شروط مسبقة يحتاج الانسان لذلك خاصة حينما يتفكك الحاضر نتيجة لنقص أدنى قدر من الشجاعة .

ودخل بانديلى ثانية فى النقاش فقال :

- اليس الذى يعيدنا الى أوسا هو ذاك ؟

- الآن أنا .اتكلم كلاما بصفة عامة .

فضحك وقال :

- بالتأكيد هو كذلك .

واتجه ليفتح الباب للطارق وعاد بعد لحظات حاملا فى يده بعض الأوراق وملوحا بها وقال :

- انظروا .. هدية من تلاميذى ، فقد كان أمس آخر موعد ، وهذه هى أول مقال يصلنى ، كل انسان يريد أن ينظم الكون على هواه ، ولكن الى أين يأخذنا الرجل الثانى .

نظر اليه كولا وقال له :

ـ لاتنظر الى هكذا ، لم احملكم على رحلة من رحلات الارتياد عبر منطقة الشقوق المائية التى تأكل لحوم البشر .

ـ أقول إن من الواجب ترك الموتى وشأنهم ، يجب الا نتدخل فى شئونهم ، والا خرجوا علينا يسببون لنا كوارث رهيبة ، انهم لايفرضون علينا شيئا .

ـ لم تناقش ابدا موضوع فرضهم شيئا علينا .

ـ واكرر القول بوجود أشياء تفرض علينا أشياء يمكن المناورة لاختيارها بصرف النظر عن القوى او الظروف التى فرضتها علينا .....

فقاطعه كولا :

ـ تعمد القاء المسئولية على الغير ، من الافضل ان تلقى المسئولية على رأسك أنت .

ـ ودق الباب مرة اخرى فقطع حديثهم وقال بانديلى :

ـ مزيد من مقالات الطلاب على ماأعتقد ، فالافضل أن نخرج من هنا والا تأخرنا على دعوة جو .

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ التاسعة .. هل يحضر الشيخ معنا ؟

ـ الشيخ هنا ؟

ونظر ايجبو حوله فرأى سيكونى جالسا الى جوار البيك آب فقال :

ـ أتعلم ياشيخ أنك احيانا تكون أكثر الناس اختفاء عن العالم ؟

ـ كم الساعة الآن ؟

ـ التاسعة .

ـ فلنمض ونكمل حديثنا فى الاستراحات .

واندفع سيكونى بمجهود شديد لينطق الكلام قائلا :

ـ فى قـ قـ قبة الكون تتوحد الحياة .... حـ حـ حياة مثل الالوهية ... مظاهرها التعددية لاتخرج عن كونها وهم ... الاله واحد ... وهكذا الحياة والموت كـ كـ كلاهما موجود فى قـ قـ قبة الوجود ...

وتوقف ليلتقط انفاسه بعد هذا المجهود ، ووقف كولا وقال له :

ـ تعال ياشيخ هيا بنا ولنكمل حديثنا فى الطريق .

فصاح ايجبو :

ـ لا لا ، لم يكمل حديثه فلننتظر .

ـ سيبدأ تقديم الحفل اذا لم نسرع .
ألقى بانديلى مقالات الطلاب التى بيده على المائدة وقال :
ـ هل ستذهب ؟ وماذا عن سيمى ؟
فقال ايجبو :
ـ سأنتظرها هنا .
ـ معنى ذلك أنك ستتأخر .
فضحك ايجبو وقال :
ـ ذلك يعتمد على حضور سيمى .
ـ وانت ، اعتقد انك ستحتضنها فى الرقص بشدة ؟
ـ فعلا ، فانا لم اقرب امرأة منذ اسابيع .
ـ وماذا عن اووليبى ، هل مضى على لقائها اكثر من اسبوعين .
فرد ايجبو قائلا :
ـ لقد نسيتها تماما .
ـ هل نسيتها فعلا ؟ كيف تنسى تلك التى عرضت عليك كل بضاعتها ؟
ـ اغرب عن وجهى .
ـ ربما اكتشف ايجبو انها لم تكن امرأة .
ـ نعم انا افكر فيها لم انسها ، فلا تتحدث عنها مرة اخرى .
ـ انك على حق ، لم تكن امرأة بحال من الاحوال ، انها مجرد رمز للأمومة .... والآن هل ستذهب الى الحفل ؟
ـ حاول أن تأتى فى النصف الثانى من الحفل فان جو سيغنى فيه اغنيته اشعر انى يتيم بلا ام .
ـ ياباندیلى اخرج هذا الفنان من هنا ، والا ....
ـ أنا ذاهب فلا تغضب ، ولكن لابد ان تحضر الحفل .
ـ أنا احضره دائما .
وبقى ايجبو وحده يفكر .
كانت اوليبى من الحوادث العابرة المتعددة فى حياة ايجبو بخلاف سيمى تماما ، أصبح ايجبو يشك فى أن الأمور تسير حينما غابت سيمى عن ذهنه ، لأن سيمى هى أول تجربة فى حياته اخرجته من عذريته فماذا يريد بعد ذلك بل انها اول يقظة لضميره وخوف من ارتكاب الذنوب ، جعله الخوف يفكر فى أنه شتته فى أول مغامرة له لم يحس ثانية بذلك الرعب

الذى ألم به وغمر مشاعره فى أول ليلة مع سيمى فى حجرة نومها ففى تلك الليلة حينما آصاب الخوف كل احاسيسه لم يستطع ان يتخلص من ذلك الايحاء الليلى لأن جسمه اصابته رعدة اخرجت الحياة فاهتزت لها آفاق السماوات واعماق الأرض ، ولم يشعر أى رجل بمثل ذلك الخوف الذى مكنه من أن يسيطر على الاحاسيس المتصاعدة وهو مازال تلميذا على أبواب التخرج ...

غفا ايجبو غفوة قصيرة ثم سمعها تقول :

- عزيزى .

افاق فجأة وسألها :

- من الذى لمسنى ؟

- ماذا تقول ؟

- شخص ما لمسنى .

- انك ولد ظريف جدا .

- ظريف ؟ هل تؤمنين بالله ؟

ولم يستطع ايجبو ان ينطق بما على لسانه واخذ يحركه دون ان ينطق بشىء عن ادراكه لتحركه نحو الحياة التى حتمتها الارادة الالهية وتأكد من وجودها خلال الساعة الماضية وسألته سيمى :

- لماذا تسأل هذا السؤال ؟

- هل تؤمنين بالله ؟

- طبعا ، الا يؤمن به كل شخص ؟

- لكن هناك من لايؤمنون ، ففى السنة النهائية من دراستى لم أكن أؤمن به ، ولكننى ادركت بعد ذلك انه كلما اشتدت حاجتى لشىء اتجه اليه بفطرتى فيغمرنى خوف من انه يريد ان يعاقبنى .

- وهل كنت تصر على ماتطلب ؟

- نعم ، وهذا النوع من الاصرار هو الذى اتى بى الى هنا .

فهمت سيمى بعد لأى وبدأت تدلك رقبته فقال لها وهو يحس رقة كفها المتزايدة :

- اريد ان اقول ان بعض الطيبة زالت عنى والآن فانا استحق أن يردينى الله ميتا .

- لماذا ؟

ـ اتسألين عن السبب ؟ اتقصدين انك لاتعرفين من قال ذلك ؟
ـ ومن الذى يعرف ؟
ـ على العموم لاتجعلينى اجرك الى مثل هذا الموضوع رغم اننى اعتبره موضوعا هاما .
ترتفع الكلمات ترتفع الى عقلى والتفكير فى الخطيئة مثل فعلها تماما ، والحديث عنها لايخرج عن كونه ذنبا ولكن أقل من الفعل ، أليس هذا هو ما تعلمته فى المدرسة ؟ حقا لاأعرف ؟
فى تلك اللحظة امتلأ ايجبو بالرغبة فى العودة الى بيته ولم يكن لديه شك فى تلك الاحاسيس ولم يستطع ان يفكر أنه يحس بالخوف أبدا واحس بالفراغ تحت قدميه يهدده بالتسامى إذ أن الرغبة أصبحت بلا دافع واصبح لايتذكر وجودها فيه ، واصبح كل نظره موجها نحو لاجوس مرة اخرى ليعود الى حجرته التى اجرها ، الى دفاتره فى المكتب حيث يقوم بحساب الايرادات والديون ، وأخذ يفكر فى الرحلة الخطرة على الدراجة فى حجرته الى مكتبه عبر كوبرى كارتر فسألته سيمى :
ـ ماذا تفعل ؟
ـ ألبس ملابسى لاعود الى بيتى طبعا .
وضعف صوته فجأة وهى تأخذ منه الملابس وقال :
ـ هل تتوقعين ان ابقى معك طوال الليل ؟
ـ اذا اردت ان انام وحيدة ، فلماذا اصطحبتك معى ؟
ولم تعد امام ايجبو أية حجة فقال لها :
ـ ولكننى مستهلك .
ـ قلت لك الا تجهد نفسك .
ـ افلتت الامور من يدى الآن ، ويجب ان استريح .
وبصوت رقيق فيه دعابة قالت سيمى :
ـ ماذا حدث ؟ لقد كان ذلك الذى فعلت كبداية ، مازال هناك الكثير ليعرف كل منا الآخر ، لدينا الليل بطوله وغدا ايضا يمكنك الا تعود الى لاجوس الا مساء الغد ؟
ـ ليس لدى وقت لهذا ، لكن هل تتوقعين منى المزيد هذه الليلة ؟ ومن اين لى القوة التى تمكنى من ذلك ؟
ـ انك شخص شديد الهزل ، هل تظن انك اذا نمت مع اى امرأة اتتركها

وتمضى لحالك ؟ الا تعلم ان ذلك يكون بالنسبة لها بداية فقط ؟
ـ هكذا ، تريدين القضاء علىَّ تماما ، طبعا لايهمك أن أعيش ولو سنة اخري بعد اليوم .
ـ لكنك لاتعرف شيئا ... تعال لأريك .. اترك نفسك بين يدى وسترى .
عندئذ ، اصاب ايجبو ذهول شديد حينما اشعر بشيء لم يصدقه أول الأمر ، احس فى اعماقه قوة شديدة تتولد فى بدنه بعد ساعتين من أول تجربة له فى حياته مع امرأة ، تكررت التجربة فى تلك الليلة مرتين ، وفى كل مرة يشعر كأن هناك شيئا يندفع من داخله فيفجره مثلما تفجرت جبال الجرانيت فى منطقة ابيكوتا وانسابت المياه على نفس الأرض التى كانت جبالا صلبة تجرف الطين من تحت كتل الجرانيت المحطمة .
وفى القطار الذى يقطع المسافة بين ايبادان ولاجوس فى بطء شديد بدأ ايجبو يرى نفسه ويفكر وهو عائدا الى لاجوس وقد لفه الشعور بالضعف والعصبية والمخاوف ، فربما عرف البعض بليلته تلك ، ربما شاهده البعض فى تلك الليلة الخيالية حينما اخذته الساحرة سيمى من يده وقادته الى داخل دروب ومسالك وكهوف اللذة الغامرة . واخذ ايجبو ينظر فى وجوه المسافرين ويتفحصها ليرى من منهم ادرك التغير الذى حدث له نتيجة لتلك الليلة . ولكن كل الوجوه منصرفة عنه تماما ومن بينهم امرأة معها اربعة اطفال بملابس المدرسة تقدم له من وقت لآخر بعض شرائح اليام المقلى او بعض الذرة المسلوقة الذى كان يرفضها دائما بأدب شديد ، ومر عليه مفتش القطار ليقطع التذاكر ولكنه يبدو أنه لم يعرف أنه مر عليه .
ولم يفت ايجبو أن ينتبه اثناء عبور القطار للكوبرى الذى يعبر نهر أوجون عند موقع اولوكوميجى ، ونظر من النافذة ليشاهد تلك الصخور الممتدة كأصابع ارجل الاله اولومو الذى نزل من عرشه فى ايكير نكو ومشى عبر الغابات الى ان وصل الى نهر اوجون وقد تورمت قدماه فوضعهما فى مياه النهر التماسا للراحة . وترك ايجبو القطار عند اولو كوموجى وقد بدأت رائحة الدخان المتخمر تملأ رأسه بثقل شديد جعله يغادر القطار عند ايكيرنكو وهو يفكر فى لاجوس البعيدة والشعائر التى ابتذلت فيها وضاعت فى مجالات الحياة الجديدة .
من تحت الجسر يستمع الى صوت عجلات القطار وهى تدق مارة على الأكتاف ويسير القطار منحدرا على شط النهر ويمتلىء القطار بالماء .

وتتساقط عليه الحجارة والزلط وتضيع من رأسه المعلومات ولايميز بين المكسب والخسارة وهو فى حالة الضعف والوهن التى أسلمه اليها ذلك الحفل الذى كان ليلة الأمس .

وتبكى سيمى بعد ذلك حيث الأضواء تملأ الماء بدموع سيمى المتساقطة ، وايجبو مستلق فوق الصخور ينتظر القطار ليسير فوقه ، وهنا تحت الجسر تنطلق أصوات كأنها ضحكات الآلهة ، ثم يدرك من خلال النعاس انه يستطيع ان يصل الى لاجوس فيركب احدى سيارات الشحن ، ويلحق بالقطار الذى فاته فى احدى المحطات التالية وقد يصل الى لاجوس مباشرة بسيارة الشحن .

ويخلع ملابسه فى نومه ، لينزل ويستحم فى دموع سيمى ، ويعوم فيها فترة قصيرة لأنه خائر القوى فيعود مسندا ظهره الى احدى الصخور القائمة فى وسط النهر ليجفف جسمه . وبعد ان تركه القطار ومضى ظلت اهتزازاته تتردد فى اذنه وهى تنتقل من صخرة الى صخرة عبر النهر ثم تهدأ الاصوات بعد ان يمضى القطار بعيدا او تسلمه دموع سيمى التى لاحت له اضواء فى الماء الى حلم مزعج حيث تركه القطار وسط الصخور والغابة المغلقة عاريا والليل زاحف بظلمته .

ويصحو فى منتصف الليل لا يعرف أين هو ، فى لامكان ولانجوم ولا أضواء حيث عبر القطار النهر الى الجانب الآخر الذى أصبح مظلما اظلاما كاملا حيث اصبح الماء اسود مثل حوض الصباغة والاقمشة النسائية المصبوغة معلقة تتساقط فيها المياه كما تتساقط الدماء من ازار الاله اوجون المبللة ويسمع منها نشيد الاجداد ، وقد اختفت اضواء دموع سيمى وتلك الاشياء البارزة وسط مياه النهر وتلك الاظافر الثقيلة من اقدام الاله اولومو .

والآن ولاول مرة منذ طفولته يعترف ايجبو ان هناك شيئا يسمى الخوف ما هو إلا إنسان حى ، ماهو الا ثمرة من ثمار الجنس البشرى اقتربت من النضج او تكاد تنضج حينما احتفل ليلة بتحرر الانسان .

وكان يستمع الى الصيحات والتنهدات والتأوهات التى ملأت اذنيه وهو بين احضانها ... فى ذلك الظلام دعنى استلقى ... واصبح الآن ضاحكا . يضحك من تلك الكلمات التى انطلقت بلا وعى من لسانه ... دعنى استلقى فى ذلك الظلام ... أصيح أيضا ... فى الظلام اصيح ـ الم يقل له مدرسه

من قبل ان الطفل الصغير الذى يضحك كثيرا سوف يسلمه الضحك الى بكاء ؟

لقد احب الظلام واحب السكون المخيم ، ولكنه لايحب ذلك الموات وذلك العمى الذى لايريه الطريق ، هل نام نوما عميقا طويلا فى كهوف الظلام التى تعيش فيها آلهة الانتقام ؟ ومن الذى خطط لذلك ؟

ماأشنع المؤامرة الدنيئة التى اسلمته إلى الخوف وملأته بالغضب .... الغضب الحقيقى ، لمن كانت تلك الضحكات المجلجلة فى الظلام ؟ وازداد غضبه من مؤامرة زرع الخوف .

هل ما حدث خطيئة ؟ انه يعلم ان الضعف الذى اصابه انما هو نتيجة لذلك ، فلتأتى النهاية .. الموت .

ويستلقى فوق الصخور وينام .

ويأتى الصباح فيعرى الصخور ، ويدرك ايجبو ان الليل ماهو الا رحم الآلهة ، ويرى من بعيد قوس قزح ، ويقول فى نفسه تذكر عهدك ، تذكر مخاوف الليل التى تجاوزتها ، وتذكر المعرفة التى يسميها قوة الجمال والادراك الذى ادى به الى الاندفاع نحو المخاوف النفسية ونحو تهديدات الطبيعة .

ومنذ ذلك الوقت اصبح ذلك الموقع مكانا يحج اليه ايجبو من وقت لآخر .

ذهب بانديلى الى محاضراته ، وكان ايجبو وحده فى الشقة حينما دق الباب ففتح وقال للفتاة الواقفة امام الباب :

ـ ادخلى سأريك شيئا عجيبا .

كانت فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها خجولة تحمل فى يدها مجموعة من الأوراق مجلدة فى ملف ، ونظر الى الغلاف فوجد العنوان مكتوبا بخط غير نسائى ، قالت له:

ـ اريد فقط أن اسلم مقالى .

ـ اعرف ذلك ، كان يجب ان تسلميه بالامس ، أليس كذلك ؟

ـ هل اتركه على المكتب فقط ؟

ـ الاستاذ المشرف غير موجود .

ـ اعرف .

ـ اذن انتظرت حتى خرج واتيت بالبحث أليس كذلك ؟

وحاولت الفتاة ان تدفعه من الباب لتضع البحث على مكتب بانديلى ولكنه ظل ممسكا بالباب :

ـ اذن هل تأخذه لتضعه على المكتب بنفسك .

ـ انا لاساعد الطلبة الكسالى .

ـ صديقك ليس افضل منا فسوف لانستعيد بحوثنا الا بعد انتهاء الفترة الدراسية .

ـ يالك من تلميذة غير وفية ، كيف تجرؤين ان تقولى هذا عن مشرفك ؟

ـ سوف اخبره ؟

ـ اخبره ان يحضر سريره الى قاعة المحاضرات ويلقى الدروس وهو مستلق عليه .

انحنى ايجبو وقال :

ـ اوافقك على هذه الملاحظة عن صديقى .

ـ والآن ، هل اترك البحث على مكتبه ؟

ـ بعد هذه الملاحظة اوافق على ذلك .

وافسح لها ايجبو فدخلت ووضعت البحث على مكتب بانديلى فى الصالة ، وظل يراقبها حتى همت بالخروج وقال لها :

ـ اجلسى وتكلمى معى قليلا ، ام انه غير مسموح لك بذلك .

ـ لايحتاج الأمر الى اذن منه ، لكنى لاأستطيع البقاء ... شكرا جزيلا .

ـ ولم لا ، اشرب وحدى وهو امر سيىء والأسوأ اننى اشعر بوحدة قاتلة .

ـ لاتتعب نفسك ، ولاتحاول معى .

ـ يالهى ، هل هكذا تكون التلميذات متوحشات ؟

ـ لتعلم اننى لست غبية كما تظن .

ـ وهو كذلك ...

ولوحت له قائلة :

ـ مع السلامة ـ استمتع بشرابك لكن لاتسرف حتى تسكر .

راقبها وهى تمضى ، وشعر فجأة باحباط شديد وكاد يستغرق فى النوم وهو نصف سكران لأن سيمى لم تأت بعد ، وكان يفكر فيما اذا كانت سيمى اخلت بموعدها تذكر وهو يدعك ذقنه أن سيمى شدت من ذقنه بعض الشعيرات البيضاء ، وضعتها على ورقة كربون ليراها وعجب انه فى سن

الثامنة والعشرين يقترب من الشيخوخة . لكنه اسرع وراءها يقول :
- لماذا لم تسأليني ماذا عن الشيء العجيب ؟
- أي شيء عجيب ؟
- الا تذكرين حينما فتحت الباب انني قلت لك اريد ان اريك شيئا عجيبا ؟
- نعم اذكر انك قلت شيئا هكذا .
- لكنك لم تسأليني عما أقصد .
- ظننت في أول الأمر انك مجنون .
- أحقا ظننت ذلك ؟
- ربما كنت قد وصلت الى درجة من السكر .
- هذا شيء يدعو الى الغبطة ، والآن ادعوك ان تأتي معي كي تشاهدي بنفسك .
- لا شكرا ، الى اى شيء تدعوني ؟
- الى شيء غريب .
قالت له بدهشة :
- ماذا تعني ؟ !
- ببساطة كنت افكر في زيارة أحد الهياكل التي أقمتها بنفسي ، ومنذ صحوت من نومي هذا الصباح وانا افكر في ذلك ، وربما بدأ هذا التفكير منذ أن قمت برحلتي الأخيرة .
- كيـــــــف ؟
- انظري ياصغيرتـي .
- اتناديني صغيرتي .
- أرجوك لاتقاطعيني الآن ، كنت اود ان يصحبني أحد الى هناك افكر في ذلك منذ اسبوع . وعاودتني الفكرة منذ لحظات ، وسنذهب بسيارتي .
- هل تغريني برحلة في السيارة ، لا شكرا الامتحانات تقترب .
- تعالي معي هذه الرحلة ، ام انك لاتثقين في انها مجرد نزهة .
- ليس هذا هو مايمنعني .
- على كل حال لن أؤخرك كثيرا .
هزت رأسها وركبت معه ، وادار السيارة ومضى وفي فكره أشياء ، لقد اراد بعد ان زالت عذريته في تلك الليلة المشهودة أن ينقل التجربة الى

احد ، ويريد ان يشاركه احد تلك التجربة تحت جسر الذكريات الذى كان يحج اليه من وقت لآخر ، ويقضى فيه اوقاتا مستلقيا على ظهره يقرأ . لم يستطع أن يأخذ سيمى معه الى ذلك المكان لان صحبة سيمى والاجتماع بها يقتضيان اربعة جدران وراديو جرام وسجاد فاخر ، ومقاعد وثيرة ، لاتصلح معها تلك المناظر التى على صخور الجرانيت والمياه الجارية ذات الخرير والنباتات التى توخز باشواكها عند الاستلقاء فوقها ، واثناء الرحلة سألته الفتاة :

- ماذا تعمل ؟

- اعمل فى مكتب الشئون الخارجية حيث لايوظفون الا رجالا ذوى مواصفات معينة .

- ماهى تلك المواصفات ؟

- اذا اردت ان اجيب عن هذا السؤال فسأضيع ليلة بأكملها .

وقطعت السيارة مسافة اثنى عشر ميلا فى طريق ايلوجون الذى اخذ يلف حول نفسه ، ويتثنى ويتلوى داخل الغابة ، وهو صامت يقول فى نفسه سوف أريها المكان كأجنبية ، ولن اصحبها مرة اخرى اليه . وسمعته فقالت :

- هل هذا شرطك لاتصحبنى الى هنا مرة اخرى .

- طبعـــــا لا .

- ونظرت اليه وهى تتعجب لهذا التسليم .

ووصلا الى ايلوجون ، فنزل واشترى بعض أسياخ اللحم المشوى الساخن ، وأخرج من تحت كرسى السيارة زجاجة كبيرة فارغة وبينما هما يسلكان الطريق داخل الغابة كان يتلفت يمينا ويسارا وينظر حوله الى اشجار نخيل الزيت ، وتعجبت لذلك فسألته :

- هل تنتظر احدا هنا ؟

- نعم ، ولكنه لايعرف انه سيقابلنا انتظريه حتى ينزل .

- من اين ينزل ؟

- من رقبة الاله ، من ملك الخمور ، شجرة النخيل .

سرها ما قاله ، ولم تستطع الامساك عن الضحك فقال لها :

- الافضل الا تضحكى فى وجهه ، والا فلن تشربى من لبنه .

- انت تحمل هذه الزجاجة الكبيرة معك .

- يجب ان تكونى مستعدة دائما لنزول الاله ، ففى هذه الدروب لايعرفون الماء لان الماء من اختراع اهل المدن ، وبكل اسف وصل ايضا الى القرى ، ان نبيذ النخيل هو الذى ينزل من هذه الشجرة شجرة نخيل الزيت الذى تقف هنا لايفصلها عن الاله الا الهواء ، وهو ينزل ذلك النبيذ لنشربه .

صفقت فى سرور شديد وقالت :

- انها محاضرة شائقة .. كفى .. كف عن هذا .

- زجاجة نبيذ ولحم مشوى كتاب مثل لغز ... وانت بجوارى فى هذه المجاهل التى املكها .

- هل تحب عمر الخيام ؟

- اعرفه واحب منه تلك الرباعية التى ذكرتها .

- لكن ماذا تقصد بكلمة اللغز ؟

- اذا عرفتها فلن اصفك بهذه الكلمة .

واختفت معالم الممر الذى يسيران فيه واتجه ايجبو الى جانب تملؤه حشائش عالية وأخذ يضرب الحشائش يمينا ويسارا بالزجاجة التى فى يده ليفسح الطريق وهى تقول :

- احترس والا سقطت منك وانكسرت .

- نبيذ النخيل لايخون شاربيه وعشاقه .

ثم وقف وقال :

- انظرى ...

- هل نحن بجوار النهر ؟

- انه على بعد خطوات منا ، وهنا يوجد شىء لابد أن تشاهديه وازاح الحشائش جانبا كأنما يفتح ستارا ليكشف عن عمل فنى ابدعته يداه ، وقال لها :

- اتبعينى بحرص فانى لااريد ان نترك أثرا هنا .

وبعد عدة خطوات وصلا الى منكشف من الارض فيه تل نمل كبير يرتفع عن الأرض بضعة امتار بنهايته التى تستدق الى اعلى مشيرة الى السماء مثل ابراج الكاتدرائيات او القصور القديمة ، وبجواره النمل الابيض يبنى قصورا اخرى ، فنظرت بدهشة وقالت :

- انهم أشبه بالرهبان المتجمعين للصلاة .

- يبدو ان ذلك غير ذى جدوى مادام‌وا يهجرونه بعد ان يئسوا بناءه وبعد مسافة ازاح اوراق الشجر لينكشف عن شيء قال عنه :

- هذا ماأريدك ان تشاهديه ... الأم والطفل .

واذا به شكلان نحتتهما الرياح في الصخر محاطان بتركيبه من فروع الاشجار والمتسلقات اشبه بمظلة مستديرة تحوطهما من الخلف وتظلل عليهما من اعلى .

قـــال فـــى نفســـــه :

- يجب ان ادعو الشيخ .

- تـــدعـــو مـــــن ؟

- الشيخ ، صديق اسمه سيكونى ، من هواة النحت .

- مادام كذلك فواجبك ان تحضره هنا .

- اذا كنت لاتخافين ان نتأخر فيمكننا انتظار مطلع الشمس لتشاهدى الخلفية الجميلة لهذه المظلة اثناء الشفق .

سارا خطوات اخرى فوصلا الى النهر فى وقت بدأت ظلالهما تطول وهنالك على قطعة ارض ممهدة جلسا حيث اعتاد ايجبو ان يجلس وينام ، واخذت تأكل اللحم المشوى ، واخذ بعض جرعات من زجاجة النبيذ ثم قال لها :

- سأساعدك لتشربى .

وقربها من فمها فأخذت تعب منها وسال النبيذ على صدرها وبلل ثوبها وهو يتابع سيلانه بنظراته فشهد مابين نهديها الصغيرين ، واخذ قلبه يدق بعنف ويداه ترتعشان من لهف . وتوقفت عن الشرب وقالت :

- لم اشرب نبيذا أحلى من هذا .

- لن تشربيه ابدا وانت جالسة فى المكتبة .

نظرت اليه بعيون لامعة وقالت :

- بالامس وحتى صباح اليوم لم اكن اتصور ان اجلس فى وسط نهر اوجون وأشرب النبيذ وآكل اللحم النصف مشوى ...

اخذ ايجبو يتأملها فى صمت ثم سألته :

- كيف اكتشفت هذا المكان ؟

فاخذ ايجبو يصف لها ليلة الرعب التى تصورها تحت الجسر ، وهى تدلى برجليها فى البحيرة وتحركهما لتثير الماء وتستمع الى حكايته الطويلة ثم سألته :

- الم يأت احد معك الى هنا ولاحتى المرأة التى تسمى سيمى ؟
- لا ، ابدا ، اكتشفت هذا المكان وحدى ، واحب السير فيه فى الصباح مستشعرا مابداخلى من مواهب ، واريد المكان دون اى نوع من المضايقات . شعرت بأننى احتاج هذا المكان أكثر مما احتاج الى اصدقائى جميعا .
- لكن لماذا فكرت هذه المرة ان تصطحب معك احدا ؟
- انها محاولة لاثبات الذات ... قلت كلاما قبل اوانه .
- لاتظن اننى لاأفهمك ، بعض الناس يلجأون الى آخرين لاثبات ذاتهم .
- هذا هو ماقصد ، لأنهم اعظم كفاءة منى
- انت ذو طبيعة رقيقة ، ولكنك مخطىء فمن هو صاحب الكفاءة الكاملة ، هل يجرؤ احد ان يدعيها ؟
- يمكن للإنسان ان يكون كامل الكفاءة بل يجب ان يكون كذلك .
- لايمكن ولاحتى بعد ان يحصل على شهادته بمرتبة الشرف .
- ولكنه على الأقل سيكون قادرا على الاعتماد على نفسه .
- لايصح ان تقول ذلك .
- قد شعرت بهذه الحقيقة فى شخصيتك حينما قبلت الخروج معى .
- ارجوك يكفى كلاما فى هذا الموضوع ولتخبرنى عن عملك فى مكتب الشئون الخارجية ، وعن ملفاتك الدبلوماسية ، حدثنى عن شىء آخر ارجوك .

عندئذ مد ايجبو ذراعه وجذبها نحوه بشدة فالتصقت به وحاولت الافلات من بين ذراعيه القويتين ، ولكنها استسلمت ، وسالت بعض نقط من الدماء الى النهر واعترف لها ايجبو بأنه لم يشعر بمثل هذا الاضطراب الذى اصابه اليوم منذ ان قضى تلك الليلة المشهودة مع سيمى .

قالت له :

- امتحاناتى الشهر القادم ، ارجوك لاتحاول ان ترانى مرة ثانية حتى انتهى من الامتحان .

(١٠)

استند بانديلى الى الحائط وهو يهز سلسلة مفاتيحه وقال :

ـ نسيت ان اخبرك ان لدى ضيفا قد لاترتاح له .

رد عليه ساجو قائلا :

ـ يهون كل شىء فى سبيل البعد عن لاجوس ، من هو ذلك الضيف ؟

ـ صحفى يجوب انحاء القارة ، المانى الاصل ولكنه يحمل جواز سفر امريكى ، وربما نجده انسانا غير محتمل .

ـ اذا كان الأمر كذلك فسأذهب للاقامة مع كولا .

ـ لاأنصحك لان ذلك الشخص قد اصبح مجنونا بالمرسم ، اصبح غير محتمل كحيوان اجتماعى .

وسمعت خطوات ثقيلة على السلم ، واشخاص يصيحون « هذا منزلك يابانديلى » وبدأ الدق على الباب وضجتهم تقترب وصياح « ماذا هناك ايها الرجل » ويفتح الباب ويدخل مجموعة من الرجال يقذفون بحقائبهم ويهرجون وسأل احدهم :

ـ اهذا صديقك الذى يعمل فى مكتب الشئون الخارجية ؟

وقادهم الى حجرة الاستقبال وبيد كل منهم زجاجة بيرة واخذ القطيع يتحرك الى الطابق العلوى فى ضجة وهرج وقال احدهم :

ـ حينما تأخرت علينا ظننت انك لن تأتى الليلة ، مارأى صديقك فى امريكا ، ذلك الشخص الذى لم يذهب الى شيكاغو ابدا ؟

فرد عليه ساجو قائلا :

ـ هل تلقى بنكتة ؟

ـ لااعرف بالضبط .

ـ ماذا تقصد بقولك لااعرف ؟ على كل هذا بيتك تتصرف فيه كما يحلو لك .

وظل بانديلى صامتا حتى صعد الرجل وقال :

ـ قابلته فى الجامعة مع جوجولدر .

ـ ومن هو ذلك اللعين جوجولدر ؟

ـ بكل اسف محاضر امريكى فى التاريخ ، سوف تقابله يوما من الايام ،

اعلم ان هذا الامريكي اللعين قد نفض يده وترك لنا هذا الرجل .
ـ هل دعوته للاقامة معك ؟
هز باتديلى رأسه آسفا وقال :
ـ لاتذكرنى بما فعله ، ولكن ها هو قد أتى .

عاد بيتر فنزل من الطابق العلوى بنفس طريقة الهرج السابقة وفى هذه المرة قدم نفسه متحدثا بلغة إنجليزية منطوقة بلكنة المانية :
ـ انا بيترهاى .
فسأله مساجو وهوجالس :
ـ هل أنت أمريكى ؟
وجلس الرجل على كرسى امام ساجوو ووضع يديه على مساند المقعد وحدق فى ساجو ، وأخذ يتكلم بلكنته التى مزج فيها اللغات ببعضها :
ـ نعم ، ليس بالضبط ، فانا أحمل جواز سفر أمريكى . وأسف لانتى لم استطع ان اذهب مع الآخرين الى لاجوس لان لدى موعدا مع الوزير ، فانا صحفى لعل بانديلى أخبرك ان الوزير قد دعانى لقضاء عطلة نهاية الاسبوع فى قريته .
فسأله بانديلى .
ـ وهل أنت ذاهب ؟
ـ نعم أريد أن أذهب كى اكشف بعض الحقائق فى الصحف .
قال ساجو وهو بقرب الثلاجة يتحدث وملؤه الغضب .
ـ هكذا نحن ، ماهؤلاء الرجعيون خونة ! ... يسيئون الى كرامتنا لأنهم يهاجمون الاستعمار الجديد والراسمالية الجديدة ثم يسيئون الى كرامتنا فيصفقون لهم ويرحبون بهم .
وضرب باب الثلاجة بقوة بعد أن أخذ زجاجة بيرة . فضحك بيتر وقال .
ـ صديقك كثير المزاح ، ماذا كان يقول الآن ؟
فهمس ساجو قائلا وهو يجز على اسنانه من الغيظ .
ـ اسكت أيها الاحمق الحقير ، لاارى فيك الا حيوانية آرية ،
فضحك بيتر ثانية وقال له :
ـ نتكلم بصوت عال يرن فى البيت كله ثم تهمس بكلمات لاتكاد تسمع .
ـ تلك طبيعتى .
ـ إذن فكيف تسير الامور فى مكتب الشئون الخارجية ؟

ـ لم نكتشف جواسيس أخيرا ، فماذا عنك أنت ؟

وقد تذكر ساجو وهو ينظر الى بيتر الضحكات التى يطلقها الزعيم وينسالا وعلق بيتر على قول ساجو وهو يقهقه :

ـ ياباندیلی .. ان صديقك هذا هو أكثر الشباب الذين رايتهم فى أفريقيا مزاحا ، تصور انه يعتقد اننى جاسوس ؟

ـ لا يابيتر لااعتقد ذلك .

ـ صديقك يختلف عنك ياباندیلی ، لن يكون دبلوماسيا حتى لو اشتغل فى مكتب الشئون الخارجية مائة عام .

ـ وأنا معجب بنظرتك الثاقبة هذه ، فانا فعلا لا اعمل فى مكتب الشئون الخارجية .

ـ ماذا تقول عن هذا ياباندیلی .. ؟

ـ اخطأت التقدير يابيتر ساجو صديقى هذا يعمل فى الصحافة .

ـ ولكن أعتقد انك كنت فى انتظار ذلك الصديق من مكتب الشئون الخارجية .

ـ ربما تأخرت طائرته ، على كل حال سيأتى فيما بعد .

تعجب ساجو من هذا الحديث ، ولكن باندیلی غمز له بعينه وأومأ له برأسه فصمت ليجد تفسيرا لذلك فيما بعد :

ـ أنت إذن زميل فى المهنة ، هذا يدعونى الى الاطمئنان اننى فى بيتى الآن وتبادل الجميع نظرات الاستغراب ثم استأذن فى الصعود ليأخذ حماما وقبل أن يصعد قال :

ـ كيف سنقضى ليلتنا ياباندیلی ؟ فلنذهب ونحتفل برفقة صديقنا الصحفى .

ـ وهو كذلك ، فلنذهب جميعا .

ـ الحقيقة أننى مدعو الى حفلة .

ـ عظيم لنذهب جميعا .

نظر اليه باندیلی آسفا وهو يقول :

ـ لاتعرف نظامنا العائلى هنا ، انها دعوة عائلية .

ـ فلتأخذونى معكم كفرد من الاسرة ، اشعر بأننى نيجيرى ، اشعر بحق اننى فى وطنى ، لا أشعر باننى غريب عن اى واحد منكم ، وقد كونت فعلا صداقات كثيرة مع النيجيريين .

وصمت حينما رآى ساجو ينصرف من الباب الخلفى ثم عاود حديثه قائلا :
- آين يذهب صديقك ؟ ان هذا ليس باب دورة المياه ، ان دورة المياه فى الطابق العلوى .
- لاعليك عليه أن يستعمل دورة المياه فى بيت الخدم خلف المنزل .
- ياله من شاب عجيب ، احب الشباب الذى يتصرف دون التقيد بالمظاهر ... بانديلى ... لقد اتتنى فكرة .. لنذهب اولا الى الحفل ثم بعد ذلك نتجول بالسيارة لترى بعض المعالم . فماذا ترى ؟
- وهو كذلك يابيتر .
وجلس بيتر يحتسى الويسكى من الزجاجة مباشرة وهو يقول :
- ذلك هو ما احبه فى اليانكى (الامريكيين) اذا ذهبت الى أحد النوادى الليلية تجد الناس يشربون الويسكى فى كئوس ولكن الامريكيين يشربون من الزجاجة مباشرة وأنا أحب أن أشرب مثلهم ، الامريكيون لايضيعون وقتهم فى الكئوس .
- نظر بانديلى اليه ، واعتبر زجاجة الويسكى قد انتهت فانه لن يستطيع ان يقدم منها لاى صديق بعد ذلك . ودخل ساجو مندفعا نحو الطابق العلوى وهو يقول :-
- لقد أدى ذلك الغبى اللعين الى اننى نسيت الصابون والمنشفة .
وقبل أن يصل الى الدور العلوى لحق به بيتر حاملا زجاجة الويسكى فأحس به ساجو وأسرع الى الحمام ليغلقه خلفه ولكن المفتاح سقط وعطله حتى وصل بيتر وقدم له الزجاجة وقال :-
- قد تحتاج الى بعض جرعات من الويسكى وانت تحلق ذقنك
فهز ساجو رأسه رافضا ، ولكن بيتر واصل الكلام :
- ما هذا الذى نراه على الرف . كولونيا ما بعد الحلاقة ؟ الأفضل أن تستخدم الويسكى لتدعك وجهك به بعد الحلاقة .. لابد أن تنتشى قبل أن تذهب إلى اسرتك ، فاننى اعتدت ذلك دائما .
صاح ساجو وهو ضائق :
- ارجوك ابعد هذه الزجاجة عن وجهى .
نزل بيتر واتجه الى بانديلى وقدم له الزجاجة ليأخذ جرعة من الويسكى فقال له بانديلى :
- انى اشرب البيرة .

ـ لامانع ان تخلط البيرة ببعض الويسكى .
وقدم له الزجاجة باصرار ، ولكنها سقطت وانكسرت قبل ان يمسك بها بانديلي جيدا ومن الطابق العلوى علق ساجو على ذلك :
ـ لاشك ان صديقك هذا مختل العقل ، أنظر كيف أراق زجاجة من أحسن أنواع الخمور على الأرض .
وأخذ يتهكم على بيتر حينما قال انه سيجعلها ليلة حمراء ، وسيصبغ المدينة كلها باللون الأحمر ، والآن وبعد جرعات قليلة يصل الى هذه الدرجة من السكر .
واتجه بانديلى وساجو الى الجراج وقال بانديلى :
ـ هل أنت راغب فعلا في الذهاب الى الحفل ؟
ـ اى شىء يبعدنا عن بيتر ففى خمس دقائق سبب لى هذا الرجل عصاب شديد ، وأصبحت لا احتمله .
ـ وهو كذلك فلنذهب .
ـ ولكن ماذا لو فوجىء باننا تركنا المنزل .
ـ لايهمك سنجد اعذارا كثيرة .
ـ ولكن ما حكاية تأخر الطائرة التى اخترعتها ؟
ـ كانت خطة للتخلص منه ، قلت له اننى اتوقع صديقا يعمل فى مكتب الشئون الخارجية نتوقع وصوله من كندا اليوم مع اسرته وأنه سيقيم معى .
ـ هل سيحضر ايجبو ؟
ـ لانعلم شيئا عنه الآن ، فقد خرج مع فتاة صغيرة .
ـ لا أصدق ذلك .
ـ سترى بنفسك .
ـ ودخلت السيارة عبر الطرق الضيقة منطقة مساكن الجامعة ، فقال بانديلى :
ـ لنترك السيارة ونسير على اقدامنا .
ـ لكن الكلاب سوف تضايقنا اذا اعتقدت أننا من الخدم .
ـ لك حق سمعت ان الكلاب هنا تميز بين الخدم والمحاضرين ، فهى تنبح نباحا قصيرا اذا مر بها المحاضرون وتنبح نباحا متصلا اذا مر بها الخدم .

- هذا عجيب حقا .

وبالاقتراب من المنزل بدأت اصوات الضحك والضجة تسمع من بعيد ثم تقترب وتزيد حتى بلغت فى مسامعهما مبلغ الضوضاء المختلطة الصادرة من قبيلة إنجليزية فقد سمعوا وسط الضوضاء كلاما بلهجة مختلفة ، فقال بانديلى وهم داخلون :

- دعنا نذهب ونرى بآنفسنا .

- أعتقد أن رححيالسيدة إلى لندن جاء مفاجأة غير متوقعة .

- ولكن هل سنصل بسهولة إلى مائدة المشروبات الى تلك الزجاجات ؟

- تقدم ولايهمك حينما نقترب سيبتعدون فلنتسلل بهدوء وسوف نرى

- حقا المظهر خداع .

ورأى ساجو وسط المائدة التى تضم اطباق الفول السودانى والبندق واللوز والبطاطس المحمر وقطع اللحم المشوى صحنا كبيرا مملوءا بالفواكه المتعددة ، لعن الله الوطنية ، لايوجد شىء يفوق تفاح أوروبا

فقال له بانديلى .

- أنك نهم ، فلتذهب بنفسك لتأخذ ما تريد .

واتجه ساجو نحو طبق الفاكهة ، فاذا بها نماذج للزينة ، فصاح قائلا :

- انها من البلاستيك ياباندیلی ، بالله عليك ماذا يفعل سكان العالم بهذه الفواكه المصنوعة من البلاستيك .. انتظر لحظة ياباندیلی .

وتوقف ساجو ليبدأ طقطقة بلسانه مثل طقطقة ماتياس وهو ينظر الى السقف فيرى ثريا تتدلى منها الأضواء على شكل الليمون ، وهناك أيضا اصيص زهور معلق على جانب الحائط والسقف مزخرف بفروع النباتات ، ومعلق فيه بعض سباطات الموز المصنوعة من الشمع الأوروبى ، فقال ساجو .

- اشعر بنفسى ضائعا فى هذه الغابة الميتة فما بالك بمن يعيشون فى داخلها بصفة دائمة ، هل لديهم عقول ميتة أو متحجرة تساعدهم على العيش فيها ؟

ودفع ساجو بانديلى بأصبعه ليلفت نظره الى أمرأة تشبه نفرتيتى وقال :

- استطيع أن أترك كل شىء فى سبيلها ، أن أى نفرتيتى مثلها لاتقاوم اغراء الرجل الافريقى ، ترى من صاحبها ؟

ابعد بانديلى يدساجو عنه ، وقال :

ـ لا احتاج إلى دفع كى اسمع ، فانا اسمعك جيدا ، ولكن آخفض من صوتك ،

سارا خطوات فقال بانديلى :

ـ نحن الآن أمام مائدة المشروبات .

ـ ولكن من المرأة التى ترتدى لباس السهرة هناك ؟

ـ لاترفع صوتك ، انها الأستاذة التى يقام الحفل من أجلها ... أنها حساسة جدا ازاء الافريقيين .. آه انها حلوة جدا ..

لاحظت الاستاذة أنهم يعلقون عليها فأومأت لهم برأسها معبرة عن تفهمها .

ـ ولكن اذا كانت تتكلم الى رجل أبيض فاننى أفهم تلك الحساسية .. ولكنها ...

واحس بانديلى فجأة بشعور غريب .. اثاره تبدأ من أصابعه وتسرى فى كل جسده اقتربت منهما سيدة ، فنظر الى ساجو وقال :

ـ الآن ستدفع ثمن مشروباتك توبيخا ، فكان من الواجب أن تلبس رباط العنق .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ تقترب المضيفة صاحبة المنزل فحظا سعيدا .

وصلت السيدة اليهما وقالت :

ـ مساء الخير ياباندیلی .. لم أرك حين وصلت .

فازداد احساس ساجو بالاثارة ورد بانديلى على المضيفة قائلا :

ـ وصلت متأخرا ، عدت لتوى من لاجوس .

ـ هل كنت تقود السيارة فى ذلك الطريق الخطر ليلا ؟

ـ طبعا .. حتى لايفوتنى الحفل

ـ لم تعرفنى بصديقك

وضع ساجو كاسه وقال :

ـ لقد تقابلنا على السلم ... أنا ادوارد أكينسولا .. لابد أنك صاحبة الحفل .

ومدت يدها اليه فامسك بالقفاز الذى يغطى يدها حتى منتصف ساعدها وقبلها .. فقالت له :

ـ لابد أنك جديد فى الكلية طبعا .

ـ عدت من أمريكا اخيرا .

ـ آه الولايات المتحدة ، هذا هو التفسير .

ونظر اليها ساجو فى دهشة ينتظر منها تفسير ذلك .
قالت :
ـ الامريكيون لايتمسكون بالرسميات .
استعاد ساجو توازنه ، وأكتسب بعض الثقة فى وجوده وهى تسأله :
ـ هل بدأت محاضراتك .
ـ لا .. فقط أقوم ببعض الابحاث .
ثم قال فى نفسه : وبداية هذه الابحاث هو معرفة السبب فى أنها وضعت فوق صرتها البارزة تلك الوردة .
ردت عليه قائلة :
ـ آه نسيت أن المحاضرات قد توقفت الآن لاقتراب موعد الامتحانات .
ـ فى الحقيقة الامتحانات وأشياء أخرى .
ابتسمت ابتسامة حلوة وقالت :
ـ على أية حال ستحتاج الى وقت للاستقرار ، فان الانتقال من التلمذة إلى الاستاذية أمر صعب للغاية .. على كل أرجوك يابانديلى أن تصحبه معك لتناول الشاى معنا .
ـ بكل سرور يامسز أوجوازور .
ـ هل استطعتم ان تحصلوا على شىء تأكلانه ، انه مقصف عادى ، فاذا اسرعتم قد تنالوا شيئا مما فيه .
وهمس ساجو قائلا : ـ « كان التفاح البلاستيك لذيذا جدا فشكرا » ، وزاد من تعقيد الموقف أن بانديلى مد يده إلى ظهر المرأة ليلمسها وهى ماضية عنهما فقال له ساجو :
ـ ما هذا الذى فعلته ؟
ـ لمسة .
ـ وأنا لا أعرف سببا لهذه اللمسة .
ـ لاتكن متزمتا هكذا ، بل بالعكس يجب أن تكون مستعدا لمثل هذه المواقف
تجمعت كل النساء فى جانب من البهو بجوار السلم كما تجمع الرجال فى جانب آخر والتفت ساجو الى بانديلى ليسأله عما اذا كان الحفل قد انتهى واذا بالاستاذ يقترب منهما ويقول :
ـ أظن ان كارولينا كانت هنا .
ـ نعم تركتنا منذ لحظة .

ولكن مسز اوجوازور ظهرت ، من وسط أحد التجمعات وجاءت للاستاذ فاستقبلها قائلا :

ـ كارولينا عزيزتى النساء ينتظرنك .

ـ أعرف ذلك ، وكنت أبحث عنك لتصعدى الى المجموعة الموجودة فوق .

ـ وهو كذلك طبعا .

ـ آه ، بالمناسبة . ألم تقابل المحاضر الجديد ؟

وأشارت الى ساجو فانحنى الاستاذ انحناءة تقليدية لتحيته وقالت كارولينا :

ـ طلبت الى ساجو أن يحضره معه لمشاركتنا شرب الشاى احيانا كى يعتاد الامور .

مد الاستاذ يده إلى زوجته كارولينا وقال .

ـ تعالى ياعزيزتى ، لايمكن أن نترك السيدات فى انتظارك أكثر من ذلك ومضت كارولينا مع زوجها بعد أن أومأت برأسها لباندیلی وابتسمت ابتسامة عريضة ذات معنى ثم اختفت مع زوجها وسط مجموعات المدعوين .

ـ قلت لك ياساجو .. كان من الواجب أن تلبس رباط عنق فى مثل هذه الحفلات .

ـ هل كان ذلك سببا فى الحط من قدرك ؟

ـ كان ذلك سيحدث طبعا ولكنك قلت للسيدة أنك لاتعرفنني .

ـ طبعا فان لى حاسة سادسة فى مثل هذه المواقف . والا لما حافظت على سمعتك .

ـ سمعتى قد ضاعت بالفعل ، ألم تر أن الادب هو الشىء الذى يتوقعونه منى ولذا فلا يحتملوننى .

ـ لماذا تحضر حفلاتهم إذن ؟

ـ ولم لا ، الا تحب ان تستمتع بمشاهدة الناس من وقت لآخر وخاصة اذا كنت تعرف انهم يحبون رؤية وجهك ؟

ـ انه ذوق غريب فيه ريبة .

ـ ليس اغرب من موقفهم ، فلماذا يتمسكون بدعوتى إلى حفلاتهم ؟

ـ اذا كان الأمر كذلك فلا يوجد أى تأزم فى الأمور بينك وبينهم .

ـ هذا هو ما يعرف بالتحضر ، فكلنا كائنات حضارية .

تجمعت النساء جميعا فى ركن بجوار السلم وكان الرجال مجتمعين فى الجانب الاخر ، والبهو خال إلا من قليل من الافراد الذين يناورون مع الاستاذ . وجيىء بالقهوة وبدأ معها تبادل السجائر ، وظل الجميع واقفين فى مجموعات لاتنقطع عن الكلام وظهورهم جميعا للسلم . واتجه الاستاذ الى مجموعة الرجال وهمس وسطهم بأن دورة المياه السلفية محجوزة لهم ، واطمأن ساجو إلى ذلك ولكن حاجته إلى استخدام دورة المياه لم تكن ملحة . ظل ساجو يحدق بعينيه فى النسوة وقد غمره احساس برغبة شديدة فيهم ، أخذ يتزايد حتى خشى أن يؤدى به الى أزمة قلبية .

وتأخرت حركة الصعود على السلم بسبب فتاة تقف وسط البهو تناقش بحدة في موضوع معين مع سيدة أخرى ، وكانت هذه الفتاة نفسها قد دخلت منذ قليل فى نقاش مع اثنين من المدعوين ، ولكنهما تركاها حينما سمعا مسز أوجوازور تسعل خلفهما ففهما الاشارة التى لم تفهمها تلك الفتاة . وأخيرا تبين ساجو من خلال الضجيج جزءا من الحديث الجارى بين الفتاة ومسز اوجوازور ، قالت الفتاة .

- لا أريد الذهاب الآن .

ردت عليها المضيفة قائلة :

- مسز فاسى أنك تعطلين جميع السيدات هكذا .

وواصلت الفتاة نقاشها بصوت هامس :

- أؤكد لك اننى لاأريد أن أصعد الى الطابق العلوى .

- ياعزيزتى أنك متصلبة الرأى ، جميع السيدات سيصعدن الى أعلى وهم ينتظرونك .

- لكنى لا أريد الصعود .

- هذه اشياء عادية فى الاتيكيت لابد أنك تعرفينها .

- لقد استخدمت دورة المياه السفلية منذ عشر دقائق ولااحتجاج الى دخول دورة المياه مرة أخرى الآن .

- ليست المسألة هى حاجتك .

قالت ذلك بصوت مرتفع استلفت انظار السيدات اللائى استدرن لينظرن الى مايجرى ، وكان الرجال يراقبون المناقشة فى ضيق يظهر فى طريقة نفخهم لدخان السجائر ... وواصلت شرحها للفتاة :

- المسألة ان جميع السيدات لابد أن يصعدن الى الطابق العلوى ، هيا

معنا ربما تحتاجين الى اصلاح زينتك ، ربما تحتاجين الى التطيب بأى عطر من العطور . هيا يامسز ڤاسى .

ـ انا لا آعبأ باى شىء من هذا .

ـ أنك فظيعة من بين جميع من أعرف ودائما تتصرفين على هذا المنوال .

ـ هل أغضبت أحدا ؟

ـ الآن اصعدى معى .

ومدت لها يدها ، ولكنها ربتت على كتفها وقالت أصعدى انت مع الاخريات ولكن لاتتركينى طويلا وحدى هنا مع الرجال .

ولم تنته المناقشة عند هذا الحد بل بلغت درجة التحدى التى لم تلق مثلها سيدة سوداء زوجة استاذ جامعى من زوجة أوروبيه بنت صغيرة مثل مسز فاسى ، فغضبت وقالت لها بلهجه حاسمة :

ـ أما أن تصعدى معنا أو تكون هذه هى آخر دعوة لك فى منزلى .

ـ آه فهمت ماترمين اليه .

ثم تدخلت سيدة اخرى هى زوجة استاذ علم الأجنة قائلة بصوت مرتفع :

ـ انتظرنا بما فيه الكفاية باكارولين .

واتجهت وسط البهو وشدت مسز أوجوازور من يدها .

هنا تحدث ساجو وسأل بانديلى :

ـ هل زوج هذه الفتاة موجود فى الحفل ؟ بكم تراهننى اذا تعرفت عليه من فورى ؟

ـ المسألة لاتحتاج الى رهان .

وفعلا كان الزوج المستر آيو فاسى واقفا يتصبب عرقا ويتحرك حركات عصبية غير طبيعية ، فقال ساجو حينما لمحه فى عصبيته هذه .

ـ سوف يخرج حالا عن طوره لان الأرض لن تنشق وتبتلعه .

ـ لابل انه يحاول تحضير صيغة اعتذار . اننى اعرف آيو جيدا .

وسمعا صوت كأس يرن فوق المائدة واذا بالاستاذ يدير ظهره محاولا علاج الموقف الحرج الذى سببته له كارولين ، فاتجه الى الفتاة التى تقف فى ركن البهو فى تحد صارخ وأسر لها بكلمات اتجهت بعدها ترقص بحماس على موسيقى تصدر من مكبرات الصوت الموجودة فى البهو فى

أماكن غير منظورة . ولما رأى ساجو ذلك استرجع كأسه وقال وهو يمتعض :
ـ هذا المكان ملىء بالاعاجيب .
ووقف فاسى فى أحد الأركان غارقا فى عرقه مهملا معزولا الى أن شعر بشخص يدفعه من ظهره فالتفت اليه وقال .
ـ آه أنت بانديلى ، كنت أنوى الخروج من فورى .
ـ أتخرج مع بداية الرقص ؟ أم تريد أن تتمم على الطلبة فى داخلية شيخو .
ـ ماذا تقصد ؟
ـ كف عن هذا التظاهر ، فالكل يعرف انك قد عينت مشرفا على مدينة الطلبة .
ـ هراء .. اين سمعت هذا الكلام ؟ ... اتقصد أنك سمعت شائعات معينة عن هذا التعيين .
وفجأة أوقف الاستاذ الموسيقى كى تتوقف الفتاة عن رقصها الشاذ وسمع صوت ساجو يدوى قائلا :
ـ هذا عظيم ، فلنسمع بعض نغمات الجوجو أو التويست بدلا منها .
كانت مفاجأة للاستاذ ، جعلته يقف صامتا وساد الصمت جميع المدعوين ، ثم أخذ كل منهم يتحدث الى الآخر يسأل عمن اصطحب هذا الشخص معه . ثم عاود الجميع ثرثرتهم ... واحاديثهم عن الشائعات ... يادكتور لوموى هل تعلم ان إحدى الفتيات أتت الى وهى حامل تريد أن أخلصها من الجنين ... دكتور اجيلو يصطحب معه إلى منزله بعض المومسات وهو ينكر ذلك ... الاستاذ أودودو لايستطيع أن يدفع فاتورة الكهرباء .. أين يضيع كل نقوده ؟ .. ننجوكى مدرس الكيمياء لايكف عن اغراء الطالبات بالحضور الى منزله ... من هو سالوبى هذا .. طالب "فاسق سوف يضبط يوما ويفصل من الكلية ...
فى وسط تلك الثرثرة كاد ساجو ان يفقد اتزانه وأخذ ينظر الى السقف والى الستائر والثريا التى تتدلى منها أشياء مثل عناقيد العنب وأخذ يهذى بتعليقاته المسموعة مخاطبا بانديلى ، فاتجه اليهما شخص يقول لبانديلى .
ـ الا تستطيع أن توقفه ؟
ـ أوقفه أنت أن أمكن .

وترك بانديلى ذلك الرجل مع ساجو الذى سأله بلسانه المعوج .
- من أنت ؟ هل أنت اللفت أم الكرنب ؟
- ماذا تقول ؟
- ان ثمار اللفت غير موجودة ، لقد رأيت التفاح واشياء اخرى .
- ماذا ؟
- قلت هل أنت اللفت ؟
- ماهذا ؟ الا تتكلم اللغة الانجليزية ؟
- بلى اتكلم الانجليزية جيدا ، ألا أخجل من ذلك .
- على كل اسمى بانشكور .
- بانكشول .
- لاباتكشور .. هل أنت جديد فى الكلية .
- نعم أنا زوج ابنة البروفسور .

كان بانديلى قد اختفى عن الانظار ، وادرك بانكشور أن ساجو شخص دخيل لان الاستاذ ليس له الا ثلاثة ابناء ذكور وبنت فى الخامسة من عمرها ، وتأكد من ذلك حينما أخذ ساجو إحدى التفاحات البلاستيك والقاها فى وجه بانكشور ، فتراجع بانكشور ليتجنب السخرية ، فأخذ ساجو تفاحه اخرى والقاها من النافذة .. فسأله بانكشور !

- ماذا تفعل ؟
- اطعم الكلاب التى تعوى فى الخارج .
- هل تظن انك تمزح .. انها ممتلكات الاستاذ ، اترميها من الشباك .

فمد ساجو يده على الفواكه الاخرى واخذ يلقيها الواحدة بعد الاخرى

- ماذا تفعل ؟ هل أنت مجنون ؟ بأى حق ترمى هذه الاشياء ؟
- أية اشياء ؟
- هذه الزينة .
- انها فواكه وليست زينة .
- توقف عن هذا والا ناديت الاستاذ .
- اذا اقتربت منى فسوف انادى لك الكلاب من الخارج .

وتجمع حوله الحاضرون ، وحضرت مسز اوجوازور فقبل يدها ، وقال لها :

- سوف اخرج لاجمع لك الفواكه .

وخرج الى الحديقة وجمع بعض الفواكه بينما بانكشور ينظر من النافذة رأى ساجو يصيح ويقول :

ـ ايتها الرياح توقفى عن الهبوب قليلا .

وصوب واحدة نحو النافذة فصدمت وجه بانكشور وبللته بالمياه والطين التى لصقت بها من الأرض المبتلة ، وأخذ يصوب الواحدة تلو الأخرى ، ثم مضى يخترق نباتات الاشجار فى الظلمة الحالكة ونباح الكلاب وامتلأ بمشاعر الخوف والتفكير فى غوامض السحر ، وتهديدات الخفافيش وجرائم القتل وغيرها مما يرتبط بليل أفريقيا .

القســـم الثانـــى

١١

بعد ان كانت الامطار عادية في شهر مايو اصبحت أشبه بشرايين طولية تندفع بالمياه كما تندفع الدماء من رقبة الثور المذبوح المختفى فى ركام السحاب الاسود الذى يجلل السماء ، واصبحت المياه تندفع من تحت الجسور مصحوبة بخرير عال حل محل ضجيج الشاحنات التى توقفت على جوانب الطرق كى لاتغامر بالسير فى تلك السيول . وانكسرت المظلة التى كانوا يجلسون تحتها فى النادى الليلى ، وسقطت عليه القضبان الحديدية والالواح الخشبية التى بنيت بها المظلة وجرى الى عرض الشارع دون ان يرى الشاحنة الكبيرة التى غامرت وسارت وسط المياه فصدمته وحملت جثة ايجبو من وسط الزجاج ومستنقع الدماء المختلطة بالطين .

وذهب ايجبو بعد انتهاء الجنازة الى معزله تحت الجسر على شط نهر أوجون واختفى هناك اياما يذرف الدمع حزنا على صديقه اما سيكونى فقد غرق فى الجعه واصبح لايفيق من الغثيان لمدة اسبوع حتى ان ديهينوا يئست من محاولاتها تخفيض حرارته ، وكانت كلما حاولت تهدئته ابعدها وصاح فيها

- انك تبللينني بدموعك .

ثم افاق قليلا وطلب منها ان تفتح له كتاب مذكراته على اى صفحة لتقرأ له ، واخذت نقرأ :

« اذكر فى ايام طفولتى اننى كنت اذا دخلت من باب بيتنا أرى لوحة ملونة معلقة على الحائط بها شخصان جالسان على عرش من الذهب وعلى رأس كل منهما تاج مرصع بالاحجار الكريمة ومن حول العرش رياش فاخر وفرش من فرو ثمين . وكنت ارى هذه الصورة ذاتها فى اماكن الجلوس وحجرات النوم فى معظم بيوت الناس الذين يعتبرون هذه الصور على الجدران اعلانا عن الولاء لملكهم وملكتهم ، أما أنا ففى طفولتى كنت أرى أنهما ملكان من الملائكة أو إلها وزوجته يجلسان على عرش السماء ، وكانت مرحلة سادها تحسس المشاعر ولو اننى عشت ايامها فى ظل تسهيلات

الحياة التى اعيشها الان لاصبحت انسانا مصابا بالانفصام وذلك لان الجدل حول هذا الزوج من الكائنات الخيالية الموجودة فى الصورة استحوذ على كل تفكيرى وكنت دائما اتساءل هل هما موجودان ام غير موجودين ؟ وكانت الاجابة دائما غامضة ، ولكننى فى احدى جلساتى فى الخلاء

تحققت من انقسام الرأى فى اطار الوظيفة الانسانية التى قد تكون خلاء أو فراغات ولكن ربما لاتكون شيئا آخر ..

« ولعل افراغ مافى الامعاء شىء انسانى ولكن ليفرغ الانسان ويخلو فهو أمر مقدس وبذلك يكون الميلاد هو تكوين الفراغية »..

....

اما بالنسبة لبانديلى فان حزنه على الحاج سيكونى قد بلغ حدا جعل تفكيره كله مختلا بعقدة الحزن ، وجلس صامتا طويلا يراقب عقله الذائب فى فكرة الكفارة .. لابد من كفارة ، ولكن ماهى تلك الكفارة ؟ لايعرف .. ولعل هذه الخسارة بفقدان سيكونى هى الكفارة ، ولكن سيكونى هناك لا ينطق ولايحس أو يشعر ...

وجرت فرشاة كولا صاعدة هابطة على لوحاته تعمل فى غموض وعماء بتقلصات الحزن ، والتعبير عن عدم التصديق ..

....

عاد ايجبو من معزله على جانب النهر فى ساعة متأخرة من الليل ، فوجد بانديلى جالسا فى الظلام بنفس السترة التى كان يلبسها اثناء توديع صديقه الى قبره لم يخلعها منذ عودته ، ودهش ايجبو لانه احس ان علامات الموت مازالت موجودة بالحجرة التى ظنها خالية ، واتجه من فوره الى مفتاح الاضاءة ولكن صوت بانديلى اوقفه :

ـ انا هنا فلا تضىء الصالة .

ـ اسف ياباندیلی .

ـ هناك رسالة لك فوق المائدة احضرتها فتاة مرت بالمنزل هذا المساء .

اخذ ايجبو الرسالة واتجه الى الغرفة ليقرأها وترك بانديلى فى الصالة ، كانت الرسالة من فتاة غريبة كتبت فيها « اذكر انك تحدثت معى عن صديق لك اسمه سيكونى يعمل نحاتا ، اعبر لك عن اسفى على وفاته ويمكننى ان احضر اذا احتجت لى ، ولكننى واثقة من انك تفضل الاختلاء بنفسك ،

اكرر اسفى وعزائى

وفى نهاية الخطاب توقيعها ولكنه لم يتمكن من قراءة اسمها ، وتبين له للمرة الاولى انه لايعرف اسم تلك الفتاة .

....

بعد مضى اسبوعين على الجنازة اجتمعوا مرة اخرى فى النادى الليلى يستمعون الى فرقة الموسيقى المتجولة تعزف على القيثارة المحلية وصندوق الموسيقى المصنوع من القرع الجاف وانواع الطبول الافريقية المختلفة وبينما الموسيقى تعزف لاح لهم على الجانب الاخر من الساحة رجل ابرص ينعكس من وجهه ضوء كضوء القمر .

وبينما كولا لايمسح اصابعه بعد ان التهم دجاجة مشوية بفوطة ورقية اذا بالنغم يتغير والايقاع يسرع ودقات الطبول تعلو معلنة قرب دخول آكل النار الذى يبتلع الشعلة فى فمه ، وينفخ الشعلة المطفأة فتشتعل ثم ينفخها مرة اخرى بفم ملىء بالكيروسين فيزداد اشتعالها . وعلق كولا :

- لم استطع حل لغز هذه اللعبة حتى الآن ، ولكنى اراها مثيرة .

ولمحت دهينوا الرجل الاصهب مرة اخرى ولاحظت انه ينظر الى مجموعتهم باهتمام فقالت :

- لماذا ينظر الينا ذلك الرجل كثيرا ؟ هل يعرف احدا من الجالسين هنا ؟

فرد عليها ساجو محولا نظره للجهة الاخرى :

- اتقصدين الرجل الاصهب ؟

- اذن لاحظته مثلى .

- يريدنى انا ، لااعرف كيف اكتشف مكانى .

- يريدك انت ؟ ولماذا ؟

- انا ايضا اريد ان اعرف لماذا يريدنى ولكننى لست مستعدا له الان .

واستمر الغناء وصياح الجوقة مع النغم والايقاع .. اوبى كوكو

- مونيرام .. اوبى كولو مونيرام .. او بيرويا .. او بيروبا .

وقال ساجو معلقا على ذلك :

- هناك فرقة فى امريكا تسمى « عذارى حيات كوكوكابارا الاصلية » لو سمعتهم دون النظر اليهم لوجدت نفس النغم ونفس الكلمات ونفس الايقاع والفرق الوحيد هو الملابس .

. وبينما الموسيقى والايقاع تختلط بالكلمات والصيحات .. اويى بى بى .. ياووو قال ايجبو :

ـ اتمنى الان ان يسقط المطر كى يوقف هذا الضجيج .

وبينما يمر آكل النار بشعلاته امام الرجل الاصهب صاح كولا :

ـ انظروا .. انظروا اليه بسرعة .

ولكن الشعلة انتقلت الى المائدة الاخرى واشعل منها الجالس على المائدة سيجارته .

ـ ننظر الى اى شىء .

ـ فات الاوان . كان لابد ان تلاحظوا النار وهى تمر على الرجل الاصهب فقد اضاء وجهه مثل مصباح النيون .

وواصل كولا حديثه بصوت منخفض :

ـ انه يختلف تماما عن يوساى .. يوساى رقيقة وجميلة حقا ، ولو بلغت السبعين من عمرها فلن يبدو عليها انها برصاء .

ـ ولكن منظرها جعلك تنفر منها فى اول الامر .

ـ نفور قليل فقط حينما مرت علىّ اول مرة ، انها مصنوعة من طينة مختلفة تماما لم ار مثلها ، اما هذا الرجل فكأنما هو مصنوع من طينة نقعت فى سم فغلى حتى جفت تماما .

وكان كولا يرسم تصميمات آكل النار وفرقة الموسيقى كما لو انه ينقلها من احد افلام مغامرات طرزان .

ومر عليهم بائع اللحم المشوى الذى اعتاد سيكونى ان يشترى منه فقال ايجبو :

ـ لقد اعاد لنا الذكرى الأليمة .

ونظر الجميع الى الاوراق التى يرسم عليها كولا ، تذكروا تعليقات سيكونى وساد بينهم وجوم وصمت مملوءان بالاحزان . وكانت ديهينوا هى الوحيدة التى تدرك ان حضورهم الى هذا المكان اصبح امرا غير مقبول لان الذكرى سوف تظل تلاحقهم كلما تقابلوا جميعا فى كباريه كمبانا فى لاجوس وهناك فى كباريه ما يومى فى ايبادان كل اسبوع بالتبادل ، وسوف تضايقهم الاحزان اكثر مما كان سيكونى يضايقهم بتأتأته :

وفجأة قامت ديهينوا هامسة .

ـ انه قادم .

واستدار ساجو ليقابل الاصهب بوجه باسم ليتعرف على مايريده واستقبله قائلا :

ـ لم أتبينك جيدا وانت جالس هناك .

ـ كان من الصعب ان اجدك ولكن الساعى ماتياس اخبرنى اخيرا بان هذا هو مكانك المفضل .

ـ تفضل بالجلوس على هذا الكرسى ، وسأحصل على كرسى آخر :

وكادت ديهينوا تقشعر حينما جلس الرجل على الكرسى المجاور لها ، فابتعدت قليلا ، وعاد ساجو بالكرسى ، وقبل أن يجلس تكلم الرجل بلهجة واثقة :

ـ يامستر ساجو ، لن اضايقك كثيرا ، ولكن بصفتك صحفى يمكنك أن تساعدنى .

ووضع يده فى جيب جبته العميق وأخرج منه محفظة ، واخرج منها غلافا من البلاستيك واخرج من الظرف ورقة قديمة ظهر من خلال البلاستيك الشفاف أنها قصاصة من صحيفة قديمة لاشك أن قيمة كبيرة جعلت صاحبها يحفظها فى هذا الغلاف البلاستيك حتى لا تضيع كلماتها .

أخذ ساجو الورقة وقربها من الضوء كى يقرأها ، ونظر إلى الرجل ثم ناول بانديلى الورقة الذى قرأها وناولها لكولا .. وهكذا قرأها الجميع دون أن يعلق أى منهم عليها ، أخذوا ينظرون إلى الرجل نظرات ملؤها الدهشة والريبة ، وانتظر الجميع ليعلق ساجو عليها ، لان هذا الرجل الغريب ضيفه ..

اخيرا أخذ ساجو الورقة من ديهينوا واعادها للرجل قائلا :

ـ متى كان ذلك ؟

ـ منذ ست سنوات تقريبا .

ـ ربما اريد أن أسأل أولا وقبل كل شىء .. لماذا تريد أن تقابلنى ؟

ـ اتسألنى لماذا ؟ .. تستطيع كصحفى وكرجل طيب تقى أن تساعدنا .

ـ ومن أنتم ؟

ـ انها كنيستى . حينما خرجت من عالم الموتى وعدت الى الحياة لم تصبح حياتى ملكا لى ، لقد كرستها للرب ..

فقال له بانديلى :

ـ قصاصة الجريدة لا تعطينا فكرة واضحة ، فهل توضح لنا الأمر

بصورة أكثر تفصيلا ؟
ـ نعم اعرف فهى مجرد خبر منشور فى صحيفة ، وأما خلاف ذلك فانه أمر بيني وبين ربى .. وكل حكايتى اننى سقطت ميتا فى احدى القرى فقام أهلها الطيبون بدفنى ، وبينما هم ينزلوننى إلى المقبرة صحوت فجأة وأخذت أدق على جدار التابوت ، وهذا هو كل ما ظهر للعيان ..
وكان ايجبو يتفحص وجه هذا الرجل الأصهب فى محاولة لتقدير سنه ولكنه عجز عن ذلك تماما ..
وفى نفس الوقت كان لاسونون يفكر فيما يحدث بين يوم وآخر بسبب اهمال الاطباء فى الكشف على الموتى ويقول فى نفسه .. يارب ما ابشع هذا النوع من التفكير .. وكان ذهن كولا أيضا قد امتلأ بالخيالات ويسأل فى نفسه ما حكاية هذا الرجل الذى ظهر بعد فترة قصيرة من موت سيكونى ، وذهب تفكيره الى منظر تابوت سيكونى وهم يدلونه بالأحبال الى المقبرة وماذا لو أن سيكونى دق باصابعه على جدار التابوت وهو يقول ... أأأخرجونى .. أأأخرجونى ، وتبين لكولا انه يحدق فى وجه الرجل كما لو كان يحاول استطلاع وجه سيكونى فيه ، ... ربما أبيض الوجه لان الدماء والخلايا الملونة قد هربت من سطح الجلد .
وأحست ديهينوا بخوف شديد يغمرها فامسكت بيد ساجو وقالت فى نفسها .. كنت أحس منذ وقع نظرى عليه أن به شيئا غير عادى .. كما ان الدماء التى تجرى فى عروقه غير طبيعية ..
ونظر ساجو فى وجه الرجل نظرة فاحصة تدل على أن فكرة مفاجئة قد لمعت فى عقله ، وواصل الاصهب حديثه :
ـ لا اعرف ماذا كنت قبل أن أموت ولا أذكر اين كنت أو من اين جئت .. ولكن ملأنى الخوف حين أخبرنى أهل القرية بأننى كنت رجلا عاديا مثل سائر اخوانى السود قبل أن يضيعونى فى الصندوق ولكن حينما صحوت وجدت نفسى هكذا ..
فقال له ساجو .
ـ الخبر فى الجريدة لا يذكر شيئا من هذا .
ـ فأجابه الأصهب .
ـ وكيف يذكرون شيئا مثل هذا ؟ هل يصدقونه ؟ هل تصدقه انت ؟ يبدو اننى وضعت فى ذلك الصندوق هذه المدة القصيرة كى اتحول الى رجل

أصهب ، ولكن جميعهم يقولون ذلك ، وآخبرتنى ممرضة المركز الصحى الريفى ، الذى اخذونى اليه أولا ، ذلك بلسانها ..

واندفع لوشونوان قائلا :

ـ ما ابشع هذا المصير ! يجب أن يكون هناك نوع من الأمان لمنع مثل هذه الأحداث .. فكروا فى الأمر ، وليتصور كل منكم انه ربما يدفن حيا ..

لاحظ ساجو تغيرا فى وجه الرجل الأصهب وهو يرد على لوشونوان قائلا :

ـ انا لم ادفن حيا ، ولكننى مت بالفعل .

ضحك لوشونوان ضحكة عالية وقال :

ـ من المؤكد أنك لا تعتقد أن المنية وافتك بالفعل ، اذا كنت الآن حيا فمعنى ذلك انك لم تمت ، ربما اصابتك غيبوبة أو شىء من هذا القبيل ، فهناك تفسيرات طبية كثيرة لما حدث لك .

نظر الاصهب الى ساجو وقال :

ـ ما اريده هو ان ادعوكم الى كنيستنا لمشاهدة الخدمة التى تقدم فيها ، أود أن تحضروها لأنها خدمة خاصة جدا وسأله بانديلى :

ـ هل تقول انك تستطيع ان تتذكر ما شعرت به ؟ أى تلك الفترة التى صحوت فيها وبدأت تدق على خشب الصندوق .

ـ سوف اخبركم بذلك ، ولكن لكل شىء اوانه ، كيف يتناقش الأنسان قبل هذا الأمر فى مثل هذا المكان حيث تبدو الحياة رخيصة اذا حضرتم يوم الأحد القادم الى كنيستنا ..

لم تكف عينا ايجبو عن التحديق فى الرجل ، كان فيها تركيز شديد كأنما يريد أن يستخرج من هذا المنظر العميق الى وجه الرجل حقيقة ما جرى له . ووقف الأصهب لكى يمضى فسأله ساجو :

ـ اين تلك الكنيسة ؟

ـ تذكرت انكم لا تعرفون مكانها ، انه مكان يصعب وصفه ، سأرسل لكم من يدلكم عليها .

ـ هل تعرف منزلى ؟

ـ لا ، ولكننا تقابلنا مرة سابقة بفندق اكسلسيور حيث كان هناك صبى متهم بالسرقة ، هل نتقابل هناك ؟

ـ وهو كذلك ، متى ؟

ـ تبدأ خدماتنا فى الثامنة صباحا وسيكون الدليل فى الفندق من السابعة صباحا .

ـ وهو كذلك ، سأكون هناك .

ـ أرجو الا تنسى أنك تستطيع مساعدتنا .. وكذلك جميع اصدقائك ، ولو حضرتم جميعا سيكون ذلك شرفا عظيما لنا فى كنيستنا ..

وبمجرد أن مشى الرجل ، قال ساجو :

ـ هل يعتقد الرجل فى صحة ما حدث ؟ هل يعتقد حقا انه مات ؟

رد عليه ساجو قائلا :

ـ أرى الأمر أبعد من ذلك ، فهذه القصاصة لا تخصه اطلاقا .. ربما كانت عن حادث وقع لغيره ..

أومأ بانديلى برأسه مؤيدا قول ساجو ثم صاح لوشونوان قائلا :

ـ انك على حق ، وتغير لون بشرته يجعل الأمر أكثر وضوحا والا لأشارت اليه الجريدة .

وأيدهم كولا قائلا :

ـ بأنه أمر لا يمكن تصديقه ، كالشوكة فى الحلق لا يمكن ابتلاعها .

ثم طرح ساجو سؤالا :

ـ فماذا ترون ؟ هل هو دجال ؟

فرد عليه كولا قائلا :

ـ لقد اثار شكى فى أنه واحد من مدعى النبوة المحليين ..

ـ قابلته منذ ستة أو سبعة أسابيع حينما انقذ ذلك النشال من الدهماء الذين ارادوا قتله ، كما رأيته فى جنازة ، ولكن ربما يكون واحدا ممن يحبون الدعاية عن أنفسهم .. وربما وجد ذلك الخبر فى صحيفة قديمة وقطعة واحتفظ به كى يستخدمه فى المستقبل ، والدين فى هذه الأيام تجارة رابحة ..

ـ هذا لا يغير من الموقف ، ماذا تقولون . هل نأتى الاسبوع القادم ؟

فقال بانديلى :

ـ تقصد أن نقوم برحلة اخرى وأقود السيارة مائة ميل الاسبوع القادم ؟

ـ لا يهمك شىء سأتولى انا القيادة ..

ـ ولكنى مازلت اعانى من الم الظهر .

ـ لا تكن كسولا وتدعى المرض .
فقال لوشونوان :
ـ لماذا تريدون الذهاب إلى مثل ذلك المكان .
ـ مجرد فضول ، وحب استطلاع .
ـ لستم سوى مجموعة من المغفلين المتدينين .
ـ اما انت فانك انسان مجرد من الخيال .
ـ طبعا لا يمكن ان تكون جميعا فنانين .
ـ حينما تحاول ان تسخر يالوشونوان تبدو قبيحا جدا .
ـ أعلم ذلك ، واهتم بالسخرية من الفنون ، فنحن المحامين لا نستطيع مناقشة الفنانين .
تدخل بانديلى وقال :
ـ كفى ، كفا عن هذا ، ماذا لديكما ؟
ـ انه مصاب بضيق مما يحاول أن يضفيه على نفسه من استعلاء ، ذلك كل ما فى الأمر ، كما لو لم يكن هناك شىء فى الدنيا الا رسم بعض خطوط على ورق .
ـ فهمت ما يضايقك ، أذن ذلك خيالك اما أنا فلى خيال ثقيل مركز يغرقك فى الخيال الذى لا يمكن تخيله .
ـ انت تضيع الوقت هكذا ، وانت اسوأ عضو عرفته فى المجتمع فتدخل ايجبو وقال :
ـ احترس يالوشونوان ، فأين تضع الصحفيين من أمثال ساجو .
ـ ليس به عيب سوى عقليته المرتبطة بدورات المياه .
ـ لحظة من فضلكم . هل ذلك الكلام يتعرض لفلسفة الفراغ التى انادى بها ؟
ـ هل تسميها هكذا فلسفة الفراغ .
ضحك بانديلى فى أعماقه وقال :
ـ من الافضل أن تتركوا لوشونوان وشأنه الليله ، لقد وضع نفسه فى حالة طوارىء .
فقال ساجو :
ـ له حق ، لأنه قد مس كولا فى الصميم ، فكان ذلك بمثابة اشعال شرارة العنف .

ـ أنا لا انكر ما قلت .. وهذه ليست المرة الأولى التى أتكلم عنه هكذا ، فما هو وما مكانته حتى يضع نفسه فى مكانة خاصة فى هذا الكون ؟ وآنا لا أقصده هو وحده بل أقصد كل من ينتمى الى مهنته ، فهم يتكلمون كل يوم على صفحات الجرائد والمجلات عن الثقافة والفن والخيال ، ولهم نظرات متعالية كما لو انهم يخاطبون مجتمعا من البرابرة الجهلاء الأميين .

قال بانديلى متهكما دون أن يدرك أنه يزيد اشعال النيران .

ـ ربما كان صحيحا يالوشونوان ، فالمشكلة انك لا تفهم ما يقولون ..

ـ ما الذى لا افهمه ؟ لا يقولون شيئا ، مجرد رطانة وكلام فارغ مثل الذى نجده فى مذكرات ساجو .

وتوقف عن الكلام فجأة ، كما توقف لوشونوان وانطلق كولا صائحا :

ـ ايها الوغد البذىء ..

ـ وتوقف هو الآخر وتوقف الجميع وغمرهم حزن شديد ، وفى تلك اللحظة سقطت نقطة من سطح المظلة التى يجلسون تحتها كالدمعة الحزينة ، فغطى كولا وجهه بكفيه .. ؟ ! .

(١٢)

هنالك بجوار البحيرة الضحلة كوخ كبير مستطيل مقام على أعمدة خشبية تحمل سقفا منحدرا من كمرات سقف فيما بينها بالقش وأحيطت جميع الحوائط الخارجية بألواح من الخشب فيها فتحات للنوافذ معرشة بأفلاق النخيل الصغيرة وكذلك الباب الرئيسى العريض فى الحائط الخلفى حيث وقف الاصدقاء الذين اوفوا بوعدهم وحضروا صلاة الأحد .

بدا لهم الرجل الأصهب فى ثياب بيضاء واقفا فى المنصة أمام حامل القراءة وامامه جمع من الناس يملئون المقاعد الخشبية .. وقد فصلت النساء عن الرجال كل اخذ جانبا من جوانب الكنيسة .. التى يدخلها الضوء من خلال النوافذ القليلة وفتحات السقف الصغيرة .. والفراغات التى توجد بين تعريشات القش والكمرات ودخل الرفاق بينما الرجل يقول :

ـ اسمى لازاروس (العزار) لست يسوع الرب ابن الرب ...

وفوجئوا بمن يعيدهم الى الخارج كى يخلعوا أحذيتهم .. ويدخلوا باقدام حافية على الاكمه التى تغطى أرض المكان .. بدا لهم وجه الأصهب فى الثياب البيضاء اكثر شحوبا وأميل الى الصفرة وهو يواصل موعظته قائلا :

ـ.... لست يسوع الرب ابن الرب .. حقا لقد بعث يسوع من الموت . ولكنه يسوع الرب .. يسوع الأبن والروح القدس ، اما أنا فلازاروس الذى اعيد تعميدى ، فالرب هو الذى أحيانى من الموت ..

وواصل موعظته مؤنبا أحد رواد الكنيسة الذى مضى على موته ودفنه عشرة أيام ومنتقلا منها الى موعظة الحياة والموت .. ومن خلفه قارىء الكتاب المقدس يرتل بعض الآيات حين يتوقف ، ويأتى دور المغنيات فيصحن بالغناء المنغم وصيحات منفردة : الليلوجسا الليلوجسا واحيانا يقلن : أمين وفى احيان اخرى ، ينطلقن عن بعض الوقفات عندما يذكر الرب أو يسوع المسيح بمقطوعات غنائية قصيرة يتخللها تهليل منغم ، ومن وقت لآخر يطلب الواعظ من الحاضرين المشاركة فى التهليلات فيهللون الليلوساه .. الليلو ..

وأخذ الأصهب يقص حكايته مع الموت والحياة ، وقال :

ـ ... تعلمون جميعا أن كل اهتمامى هو أن أشرف كنيستنا ، وذهبت الى أحد اماكن اللهو الدنيوية ، أخذنى الرب وقادنى إلى هناك لاقابل رجلا

يجلس بيننا الآن ..

والتفتت الرءوس الى الخلف ناظرة إلى الغرباء الذين اتوا وجلسوا فى المقعد الأخير .. وواصل الأصهب وعظه قائلا :

-.... جاء الى هنا ليساعدنا .. سنبنى الكنيسة سنحولها من كوخ الى كنيسة .. سنقيمها على قواعد الايمان ، وعلى ما يجود به الاصدقاء عندئذ علق ساجو على قوله :

- هذا الرجل يعانى من شدة التفاؤل .

وواصل الرجل وعظه :

- ... وبينما اتحدث معه اعترضنى أحد اصدقائه وهو معنا هنا أيضا وقال لى « إنك بالتأكيد تعتقد أن الموت وافاك وأسلمت الروح » ...

واراد لوشونوان الأعتراض ولكن ايجبو أسكته :

وواصل الرجل قائلا :

- ... ومن منطلق حديثه وسؤاله اخذت موعظة اليوم ..

واخذ يتحدث عن قيامة المسيح يصحبه القارىء والمنشدون والمرتلون يكملون موعظته ويغذون حديثه ووعظه بالنصوص والاناشيد والتهليلات وبذكر الميت الذى دفن منذ عشرة أيام بالدعاء وتتردد صيحات التأمين على الدعاء .. هنا ظهر فى الباب الخلفى شاب نحيف نظر اليه لازاروس وتوقف ، والتفت الجميع لينظروا اليه وهو داخل من باب الكنيسة .. ونزل لازاروس من المنصة وسار الى الباب مستقبل الصبى النحيف ، وحينما رأى ساجو الشاب قال :

- انه اللص الذى امسكوا به فى سوق وينجبو .

- هل تعرفه ؟

- نعم رأيته هناك يوم انقذه الأصهب من الدهماء .

وصحب لازاروس الصبى الى المنصة متبوعا بنظرات الحاضرين ولما وصل الى المنصة صاح قائلا :

- استقبلوه يا اخوانى استقبلوه جاء نوح ببشائر الرحمن . فأخذ الشمامسة يحتضنونه ويقبلونه . وخبط ساجو بيده على رأسه قائلا :

- انهم الأحد عشر رجلا الذين رأيتهم هناك .

- أين .

- فى الجنازة الصغيرة يوم دفن السير درينولا ، ولكن الذى حدث لهذا

الشاب كيف تغير هكذا .. لقد غسل الرجل مخه .. ذلك اللص .. انظروا الى وجهه الوضىء الآن . كأن الشر قد مسح من وجهه .

- وردت عليه ديهينوا من الجانب الآخر فى همس مسموع :

- اسكت فالجميع يسمعونك .

وانحنى الشمامسة الأحد عشر يغسلون قدمى الصبى من اناء الماء الذى تلا عليه لازاروس بعض الصلوات ، واخذ يقول :

- نحن نعمد اليوم نوح لاننا نخشى ان يكون الرب قد نسى وجوده على الأرض .. انظروا يا اخوانى إلى مزارعنا التى كانت تعطينا دخلا صغيرا لكنيستنا قد غرقت مرتين والكنيسة تحتاج الى اصلاح وتكاد تسقط .. ونحن نعمد اليوم نوح ..

وبعد أن أنتهى الشمامسة .. من غسل قدمى نوح أخذت الأجراس تدق والطبول تقرع ، وانطلق ايقاع التصفيق مع صوت الطبول . رنين الأجراس التى بأيدى بعض النساء ، وغناء الجوقة الذى تتخلله التهليلات بين مقاطعها .. ألليلو ألليوا .. وبدأ لازاروس يتراقص ويحرك يديه أماما وخلفا ومعه الجوقة والشمامسة يتبعهم الحاضرون بدق أقدامهم فى الأرض وتصفيق المساير للأيقاع والذى يضبط الايقاع ذاته مع ايقاع الانشاد والتهليلات .

ويصيح لازاروس وسط هذا كله .

- اقبله ايها الرب اقبله .

ثم حمل اناء الماء ونزل من المنصة وبدأ يغسل اقدام رواد الكنيسة الحاضرين واحدا بعد واحد ويصيح لازاروس وسط ضجة الغناء والايقاع والتصفيق قائلا من وقت لآخر :

- افسحوا الطريق .. أفسحوا الطريق ..

ودخلت نسوة فى عباءات لا يظهر منهن سوى وجوههن ، يجرين راقصات على النغم فى أنحاء الكنيسة ، وبأيديهن اجراس ترن فى كل مكان . وارتفع الضجيج حتى أخذ بألباب النساء والأطفال ، وبدأت مسيرة النساء تصعد إلى المنصة حيث جلس نوح وامامه اناء الماء ومرت عليه النساء فى صف طويل ليغسل أقدامهن الواحدة بعد الأخرى .. قال لوشونوان معلقا :

- اذا كان كبير السن مثل الآخرين لما اندفعت النسوة هكذا نحوه .

- لا يمكن ان ننكر انه وسيم .
- ان دور ديهينوا يقترب اذهب وانضم اليهم فان الجميع يختلطون الآن وقبل أن يعرفوا ، جيء بالاناء اليهم وبدأ نوح يغسل رجلى ديهينوا فقال له ساجو :
- هل أثارك كما أثار تلك المرأة .
فردت عليه قائلة :
- على الاقل له يدان أنعم من يديك .
ثم جاء دور ساجو وبعده بانديلى : وظل لوشونوان يسب ويلعن الساعة التى قرر فيها الحضور الى هذه المناسبة وسأله بانديلى :
- ماذا يحدث لو غسلت رجليك ؟
- لا احب ذلك ابدا .
- يجب الا تشتكى من اختلاف المعاملة .
. وحينما وصل الاناء الى ايجبو رجاه الشمامسة واحتجوا عليه ولكن ايجبو اصر على الرفض . وأخذ الاناء ، واتجه الشمامسة لقيادة الموكب خارج الكنيسة .
ومست احدى النساء بالأرواح واخذت تهذى بنبوءتها وبقى فيها اثنان من المتنبئين بينما واصلت المسيرة تحركها حول الكنيسة يحمل نوح الصليب امام الموكب ويسير من خلفه الجمع كله حتى اذا وصل الى باب الكنيسة بعد أن يتم الدورة يقف موجها نظره اليها ويقوم هو والشمامسة من خلفه ببعض الصلوات ثم تبدأ الدورة التالية . ولما أتموا سبع دورات كان الأعياء والتعب قد أصابا نوح من حمل الصليب المعدنى الثقيل وانتهت المسيرة .
واسرع الجمع الى الداخل ليشاهدوا المرأة الممسوسة بالأرواح امام لازاروس تنطق بلغات متعددة وكلمات وعبارات غير مفهومة لم يستطع ثلاثة رجال وامرأة تجمعوا عليها أن يوقفوا تقلصات جسدها واندفاعاتها وهى تتلوى كثعبان قوى .. وخرج ايجبو قبلهم لأنه كان قد رأى امثال هذه المرأة عشرات المرات فى حياته ، من امثال ايسود و ساجو اللتين كانتا تفعلان مثل هذه المرأة ، وانواعا اخرى من مس بالأرواح مثل عذراء ايلو وتلك التى تسمى أوريسا إنلا اللتين تلبستا أرواحا غير أرضية ظهرت فى أعينهما وجلودهما وهمسهما بما تهمس به الآلهة فى رأسيهما .

وهز ساجو رأسه قائلا :

ـ تمر بعض اللحظات على ولا اصدق أن هذا اللص تحول الى ذلك الشخص التقى فرد عليه لازاروس قائلا :

ـ يسرنى أنك رأيته تغير .. كنت أتوق الى سماع رأيك .

ـ لا أحب هذا النوع من التقوى يبدو شديد الخضوع والتسليم ولا أرى فيه سوى الندم ، فليس لديه دوافع نورانية من داخله ..

واستمع لازاروس الى هذا القول وهو ملىء بالدهشة وقال :

ـ انت مخطىء في تقديرك ، تلقى هذا الشاب روح الاله المقدسة فى داخله .

وقال ايجبو :

ـ انا لا احب النفاق ، بينما توحى ملامح وجهه بأنه منافق .

فاستدار بانديلى وقال :

ـ ما هذا الرأى المعوج ؟

وقال كولا :

ـ اؤيد رأى ايجبو واذا جاز لى ان ارسمه فسأرسم يهوذا أو المسيح الدجال .

ـ انتظروا قليلا فيجب أن تكونوا محددين فى كلامكم والفاظكم .

فقال ايجبو .

ـ لا حاجة لنا الى ذلك ، فلكولا رأيه الخاص .. لا تنسب رأيك لاقوالى ياكولا ..

ـ حينما قلت المسيح الدجال قصدت به يهوذا .

قاطعهم بانديلى قائلا :

ـ الافضل أن نؤجل مناقشة آرائنا حتى نخرج من هنا .. ونناقش بعيدا عن اسماع لازاروس

عاد لازاروس اليهم بعد أن ابتعد عنهم وقال :

أرجو الا تعتقدوا أنى اغضب من آرائكم ، فالانسان يأتى الى الرب وهو كافر ويخرج من عنده مؤمنا ، ومهمتنا أن نرشد الناس الى طريق النور .

واستمرت المناقشة قليلا بعد انصراف لازاروس الى أن نطقت ديهينوا قائلة :

ـ فلنذهب الى بيوتنا فاننى لا احب كل هذا .

ثم انتقل النقاش الى نقطة اخرى حيث قال ساجو :
ـ أعرف ما يريده لازاروس ، يمكن لرئيس التحرير أن يترك لى الصفحة الوسطى لانشر عليها التحقيق .
ـ هل هذا هو كل شىء ؟
ماذا تقصد ؟
ـ لا تشغل بالك ، وتهتم
ـ لماذا لا تذهب من هنا مباشرة وتبدأ رسم نوح ، ثم استخدم أنا الرسم فى التحقيق الذى سأنشره ليعطيه بعض العمق ؟ .. مع أنى لم استطع بعد أن اكون فكرة واضحة عن كيفية عرض الموضوع .
هز كولا رأسه وقال :
ـ سأرسمه لن يكون للرسم علاقة بالصليب أو أى شىء دينى ، كنت افكر فيه كانسان تائب لقد عكس وجهه كل ألوان الطهر .
علق ايجبو على ذلك بقوله :
ـ نعم وهى أيضا الوان مشعة .
وضحك بانديلى وقال :
ـ هكذا ساجو عنده قصته التى سيكتبها وكولا لا يملأ فراغات سماوية أخرى على لوحاته الزيتية ، فماذا استفد ياايجبو من هذه الرحلة ؟
التفت اليه ايجبو غاضبا وقال :
ـ ماذا تريد من وراء هذا الكلام .
ـ المزيد من المعرفة عن الجيل الجديد من المفسرين .
تفجر غضب ساجو وصاح قائلا :
ـ انك خبيث لعين .
ـ احترس فيما تقول ، وحينما تبدع اسطورتك تنشر اساطير الغير .
ـ على من الدور الآن .
ـ لايحاول لازاروس أن ينشر اسطورته .
ـ ما الذى حدث ؟
قال بانديلى ؛
ـ لم تحاول أن تكتشف بنفسك ، فهو الذى دعاك الى هنا ـ أليس كذلك ؟ هل فكرت لماذا دعاك ؟ ام انك تؤمن ببناء الكنيسة فقط ؟
ـ ماذا يريد غير الدعاية ، كل هؤلاء الأنبياء المحليين يريدون الدعاية

لأن ادعاء النبوة فى هذه الأيام تجارة رابحة .

- هل رأيت كيف تغير وجهه حينما ذكر انه يريد أن يرسم نوح كالمسيح .

- لاحظت انه تغير ، ولماذا لا يتغير ، يريد ذلك لنفسه ، صانع الملك اهم من الملك نفسه .

كررت ديهينوا الحاحها على العودة فرد عليها ساجو :

- اسكتى ، لاتقاطعى .. انتظروا ، جاءتنى الآن فكرة .. ان كل الذين يسمون شمامسة من أصحاب السوابق أو متهمين فى قضايا أو هم من سفلة القوم .

- لقد عاد عقلك لثورته مرة اخرى .

- لا ، لا اقصد ، لازاروس وحوارييه ، لقد انشأ كنيسة ، وتاب على يديه لص وحوله الى شماس ، وعليه اللعنة انه شخصية تستحق النظر .

- كما تثير الكلمات المتقاطعة اهتمام القراء ..

- من فضلك ياباندیلی ارجو أن تحتفظ بشكوكك لنفسك الآن ، فان الرجل دعانى هنا ليستخدمنى وأنا اتعيش بدورى من استخدام الآخرين ، سوف يستمر النشر عن هذا الموضوع عدة اسابيع ، سيخصص تحقيق عن كل واحد من حوارييه وموضوع كبير عنه شخصيا ، فهو كما اعتقد منجم ذهب .

- ماذا تستنتج من حكاية موته وخبرته فيها ياباندیلی .

- هل تعتقد أنت فيها ؟ اظنك تصدقها ؟

سكت باندیلی قليلا ثم قال :

- ليس المهم هل اعتقد فيها ام لا ولكن الشىء الواضح هو ان ذلك الرجل مر بتجربة مريرة ، فاراد أن يفسرها بطريقة ذات معنى فى حياة الناس فكيف تأتى انت وتحولها الى عمل انتهازى أو تصرف مصلحى ذاتى . أو يحولها كولا الى .. قاطعة باندیلی قائلا :

- ابتعد عن التعرض لى ، لا اعلم ماذا يدور فى رأسك ، عليك اللعنة ياباندیلی ، لماذا تحولت الى ناقد لاذع يتدخل فى شئون الآخرين بهذه الطريقة السيئة .

- لا يدرك اى منكما المعاناة والتعب اللذين سببتماه لنا جميعا .

- اعرف ، ولكننى جئت بالفعل وكل ما اريده هو أن اطير فى صاروخ الى ايبادان ومعى نوح .

ـ هل يعنى هذا أن المرسم أصبح كاملا الآن .

ـ منذ رأيت نوح اليوم شعرت بأننى اريد أن آخذه معى الليلة .

ـ هل تعتقد أنه يستطيع الذهاب معك .

ـ اذا اخبرت لازاروس اننى اريد أن أرسمه واهدى صورته الكنيسة أعتقد أنه لن يرفض ، استطيع أن ارسم له صورة تكون ابدع من صورة (زوجة النجار التى تشتغل البرودرية)

ـ عليك أن تثبت قدرتك أولا .

ـ استطيع أن ارسم صورة لازاروس فى نصف ساعة

ـ ماذا عما قاله بانديلى ، لنفرض ان لازاروس طلب أن ترسمه مع الصليب .

ـ اذن « فليرسمه هو أو فليرسم يسوع المسيح نفسه .

كان ساجو يفكر تفكيرا عميقا فى موضوع آخر ثم قال :

ـ ليته يوافق ، فانها سوف تكون ضربة مدوية فى الصحيفة اذا استطعت ان اتحدث عن قصة تبدأ بالغوث وتنتهى عند مولد مسيح آخر .

فعلقت ديهينوا متهكمة بقولها :

ـ عندئذ سأكون أول من يؤمن بالحكاية .

ـ حذار يا امرأة أن تأخذى دورا مثل دور بانديلى ، هل تسمعين ؟ اما بالنسبة لموضوع لازاروس فاننى أنوى اذا وافق رئيس التحرير أن اذهب الى القرية التى عادت اليه فيها الحياة وابحث واسأل هناك عمن يذكرون الحكاية واسجلها من أفواههم .

فعاودت ديهينوا تهكمها قائلة :

ـ ولماذا تتعب نفسك بحثا عن الحقيقة ، الحقيقة لا تهمك فى شىء :

ـ لا بل تهمنى فى بعض الأحوال . فمثلا اذا تبين لى أنه كاذب فهل اتولى مهمة اخبار اتباعه ؟ هذه نقطة فيها نظر ولابد أن لبانديلى رأيا قويا فيها . لنفرض أن نوح أصبح غدا يسوع ونجح لازاروس فى أن يغريه بهذا الادعاء فاى صاحب حقيقة يحتاج منى أن اذكر الحقيقة ؟ طبعا الحقيقة التى لدى .

ـ وما أهمية ذلك ، فان قطيع الأتباع سوف يعتقد أنه يريد شيئا يعتقد فيه الم تكشف صحيفتكم عن ادعاءات مسيح ظهر منذ مدة ؟

ـ لا اذكر ذلك ، ربما نشر الموضوع قبل أن أعمل فى الصحيفة .

ـ الغريب انه ذلك المسيح قال إن عودته الثانية هى لكى يستمتع بالحياة لا لكى يضحى لخلاص البشرية .. وقد اخذت كل الصحف تهاجمه .

ـ هل استطاع ان يواجه ذلك الهجوم ؟

ـ لقد حقق لنفسه الكثير ، فلديه الآن شركة نقل كبيرة ومخبز ، ومنزل ضخم ملىء بالحريم ، وقد أقيمت عليه دعوتا اغتصاب .

ـ هل هاجموه فعلا ؟

ـ بشدة .

ـ هكذا لا يستطيع العالم أن يقاوم انبياء المسرات ، كل انسان يحب الصراعات .

فقال ايجبو :

ـ ليس الصراع انما مجرد ظاهرة التضحية .. التضحية التقليدية .

ـ لديك عقلية دموية ، وهذا هو عيبك . فما هو أكبر منطقية من ذلك ؟ لقد أختار احدهما المعاناة وسلمنا بحقه فى الاختيار ، فلماذا لا يختار ذلك المسرات واللذات ونسلم بحقه فى ذلك ؟

ـ سوف ابحث اذا كان ذلك المسيح (المدعى) مازال يمارس العمل وأثير مناقشة بينهما ونجرب قانون البقاء للاصلح .. هذا موضوع ينشر على أربع صفحات خلاف الصور .

شاط ساجو بعض الحجارة الملقاة على الأرض تعبيرا عن سروره بالوصول الى هذه الفكرة ، واستمر يشوط الحجارة فتظهر أمامه على سطح البحيرة صفحات تلو الصفحات تتداعى امامه ويصيح من وقت لآخر .. « املأ هذا الفراغ » ، « البقية العدد القادم » ، ويشوط بطرف اصبعه الحجر تلو الآخر لتستمر تموجات الماء كصفحات الجريدة الى أن ادمت اصبعه قطعة حجر كبيرة اراد أن يشوطها وعندئذ قال لقد كسر جهاز الجمع ، وأنت ديهينوا اليه ليستند على كتفها ووقف الجميع فى صمت يرقبون نوح وهو يدور حول الكنيسة حاملا الصليب ومعه البقية القليلة من الرواد . وقطع بانديلى الصمت بقوله :

ـ لولا موت سيكونى لما فكرت فى ان أتى الى هنا ، واعتقد ان ذلك هو السبب الوحيد ونظر ايجبو فى داخل الكنيسة وهو يقول :

ـ ماذا كنت تتوقع من لازاروس ؟

ـ لقد دفعنى الفضول الى الرغبة فى الجلوس امامه والاستماع الى ما يقوله عن ادعاء موته .

وتحرك ايجبو نحو السيارات وهو يقول

- من الافضل آن نمضى الآن .

فرد عليه بانديلى :

- اذهب انت أما انا فسوف اذهب لتوديع لازاروس .

ولكن لازاروس كان متجها اليهم ، وصحبهم حتى سياراتهم وقال له ساجو :

- لعل تلك السيدة قد تنبآت لكنيستكم بخير .

فاطلق لازاروس ناظريه لبعيد وصمت قليلا ثم قال :

- لا لم تكن تنبىء بشىء من المستقبل هذه المرة ، لقد انبآت بالماضى ، نظرت فى الماضى لأنها رأتنى فى منامها اسير مع شخص بلا ملامح وقالت انه الموت .

وبعد مسافة فى الطريق نظر بانديلى الى ايجبو وقال :

- كنت أود ان اسألك ، هل وصلتك اخبار من .... ؟

- تقصد من القرية ؟ لقد ذكرتك البحيرة بهذا السؤال ، واجابتى لا ولكن الصحف تأتينى بأخبار مزعجة .

وضحك ايجبو ضحكة قصيرة ثم قال :

- ظننت اننى دفنت تلك الذكرى ولكن هذا ليس صحيحا ، فغالبا ما يعاودنى الشعور باصابع ذلك الرجل العجوز .. على وجهى وأرى عينيه العمياوين واصحو من نومى منزعجا .. وقطعا بالسيارة مسافة اخرى صامتين ثم تحدث ايجبو قائلا :

- افكر فى الموضوع غالبا فإذا أتانى فى هذا المنام ثانية فربما لا ابقى .

- هل تعتقد ذلك الآن ؟

- اذا اردت أن تتحول فيجب ألا تخاف من السلطة ، ولازاروس مثال لذلك ..

وتحدث كولا من المقعد الخلفى فى السيارة قائلا :

- لم أمر بهذه المنطقة من قبل .

- هناك عدد من القرى التى تقع فى المستنقعات فى هذه المنطقة ، وبعضها لا يمكن الوصول اليه الا بالقوارب ، وهى تعتبر جزءا من لاجوس .

- انا اتصور ذلك ، اريد أن اعود فيما بعد لاتحدث مع لازاروس عن

نوح . فاذا وافق فسآخذه معى الى ايبادان الليلة .
ـ اعتقد انه لن يرفض .
ـ المشكلة اننى اخشى أن آتود فى هذه المنطقة
فرد عليه ايجبو قائلا :
ـ سوف احضر معك .
ـ تبقى مشكلة دخول السيارة فى الطين
ـ وحلها آن تأتى قبل حلول الظلام .

(١٣)

فكر ساجو وهو فى طريقه الى منزل بانديلى انه لعل بيتر . نائم الآن ولكنه ربما يسمعه وهو داخل الى المنزل فيفتح له ويسأله عن صحته . ويطلب اليه ان يجالسه وربما يصعد مباشرة الى الطابق العلوى ثم الى السرير .. قد يرى بيتر يمسك به عند الباب ويطلب اليه ان يقرأ له قصة قبل النوم .. وبينما ساجو غارق فى تصوراته أمام المنزل يبرز رجل بدا أبيض الوجه أفطس الأنف فى الضوء المنبثق من باب المدخل حياه وسأله :

- هل تواجه أى متاعب ؟

- لا أبداً ، ولكن لا أجد مكانا انام فيه هذه هى المشكلة .

- ياألهى .. شىء مضحك للغاية ..

- حقا ؟ اننى سعيد لانك تضحك .

- الحقيقة انه ليس مضحكا فأنا أسمع هذه العبارة بين ليلة وأخرى .

ترنح ساجو ثم اعتدل وقال :

- اسمع ياهذا ..

قاطعه الرجل قائلا :

- صدقنى انى أسمعها كثيرا جدا ، اننى أمريكى كما ترى ويبدو أن بيتى قد أصبح ملجأ مجانيا أو معسكراً لمبيت كل الامريكيين الذين يأتون الى هذا البلد .

أثارت أحاديث بانكسور مع ساجو حفيظته ضد اصحاب الوجوه البيضاء .. أضيفت الى ما شاهده من سوء تصرفات مسز فاسى فى ذلك الحفل فرد على الامريكى قائلا :

ولكننى لست أمريكيا .

فابتسم الرجل وقال :

- لم اقابل قبل الآن اى افريقى دون أن يسب أى شىء .

- ولم اقابل أمريكى ، دون أن يظهر تعاليه على الآخرين .

- حينما خرجت كنت انوى التريض ، فلماذا سرت هكذا خطأ ؟

ووجد ساجو نفسه يتمتم بكلمات :

- الافضل لك أن تذهب لان وجهك معاد لحالة السكر التى انا فيها ..

- آسف . لم افهم ما قلته .

ولم يجبه ساجو وبدأ يندهش فيما اذا كانت مخاطرته مع بيتر افضل عن هذه المخاطرة ام لا ، الى أن بادره الأمريكى قائلا :

ـ لاحظت انكم اشخاص نفرون لا تحبون الصداقات .

ـ اعلم ان الأمريكيين يرغبون فى أن يحبهم الآخرون ..

ـ لا لا ياصديقى ليست المسألة كذلك .

وشعر ساجو بانه المح الى موضوع يخرج عن نطاق مجرد الحب وخجل من نفسه ولكن الأمريكى واصل حديثه قائلا :

ـ انظر ياصديقى .. اسمى جوجولدر ، محاضر فى التاريخ الأفريقى ، شعرت بأرق لا استطيع معه النوم فخرجت لأمشى قليلا .

انحنى ساجو ثانية على الباب ليستمع الى ما يجرى فى الداخل فقال له الأمريكى جو :

ـ اذا كانوا قد اغلقوا الباب فى وجهك فتعال معى لنتناول كاسا .

ـ شربت الليلة بما فيه الكفاية .

ـ لنشرب قهوة اذن ، سوف نسير لدقائق فبيتى ليس بعيدا ولكنى سأصحبك بالسيارة فى العودة .

فقبل ساجو وسارا معا حيث لاحظ ساجو أن حجمه صغير وأنه من النوع الحساس الغبى الذى اتى الى افريقيا ليتلقى ايذاء من الآخرين ، وسأله ساجو اثناء النزهة .

ـ لاتبدو لهجتك . ونطقك امريكية خالصة .

لعله تأثير اكسفورد والتى قضيت فيها خمس سنوات ، وانى لست امريكيا خالصا .

ـ لعلك تشترك فى المولد مع رجل المانى اعرفه .

ـ هل هو بيتر ؟

ـ نعم هو .. هل تعرفه ؟

عندئذ تغيرت ملامح وجه جوجولدر الى الضيق والحزن وهو يحكى لساجو كيف ينزل الأمريكيون عنده بين الحين ، والحين وأنهم يعسكرون فى منزله أياما وليالى حتى يفقد شعوره بانه صاحب المنزل فيتركهم ويمضى ، وبعد عرض قصص عديدة وامثلة كثيرة من هذه المضايقات سأله ساجو .

ـ ولماذا لا تتحدث اليهم بصراحة وتطلب منهم مغادرة المنزل حتى لا يضايقوك ؟

ـ بصراحة أنا مطبوع على حب مساعدة الناس ، ولكن الجميع اعتبرها حقا له وانا لا احب أن أجبر على شيء ، واستطيع ان اغلق بيتي واطردهم جميعا ، في نفس الوقت أحب حياة الهدوء ، هل لاني احب أن اساعد الناس اصل الى درجة ان يستغلوني لهذا الحد .. ؟

وسار الاثنان في صمت مسافة قصيرة ثم عاود جو كلامه قائلا :

ـ آسف لان عندي عادة سيئة هي أن اتذكر بعض الاشياء كما حدثت تماما ، وحينما اكون بصحبة أحد أتذكر اشياء سيئة واحاول دائما أن أمضي قبل أن افقد سيطرتي واحكيها .

ثم سارا مسافة نصف ميل اخرى وتكلم ثانية :

ـ احيانا تحدث لي مفاجآت مذهلة .. ففي إحدى الامسيات عدت الى المنزل لاطلب من ضيف في منزلي أن يجمع حقائبه ويمضي فورا .. ومرة خرجت فجأة من وسط المحاضرة وتوجهت الى المنزل لاطرد عازفا موسيقيا أقام في منزلي شهرا ..

ـ هل تذكرت فجأة شيئا دفعك الى ذلك ؟

ـ لا ، فقط اردت فجأة أن أطرده ، واذكر في ذلك اليوم انني قدت سيارتي بغباء ووقعت في أحد المجاري فتركتها وجريت اكمل طريقي الى المنزل .

ـ لكن كيف كانوا يقابلون هذه التصرفات ؟

ـ بأساليب مختلفة ، بعضهم يقول انها شيء محير .

ـ اذن فمثل هذه المواقف لا تؤثر فيك .

ـ لا اهتم بالاغبياء ولماذا اهتم ؟ لست انسانا اجتماعيا ، انا لا احضر حفلاتهم ولا اجتماعاتهم . انني أقدر قيمة وقتي وأرفض أن أكون متعصبا ولو للحظة واحدة ، واذا ما بقيت طول اليوم داخل منزلي لا اعمل شيئا من شئوني الخاصة ولكن لابد ان اضيع وقتي هكذا دون تدخل من الغير .

كانت الأضواء مطفأة في معظم المنازل وكانت الكلاب تنبح من قرب فمد ساجو يده الى الأرض والتقط فرع شجرة ملقى فسأله جو :

ـ هل هذه للكلاب ؟ ان الكلاب هنا لا تعض .

ـ لابد ان أتأكد من أنها لا تعضني .

ـ هل تخاف من الكلاب لهذا الحد ؟

ـ لا . لكن سبق أن عضني كلب .

وانا ايضا عضنى كلب ، وكان آمرا غريبا . أطلق أحد البيض الأغبياء ـ فى بلدتنا ـ كلبه علىّ فعضنى .

واحس بان ساجو يتعجب لهذا القول فقال :

ـ لقد تعجبت مثل الآخرين .. الحقيقة اننى زنجى ـ ربع زنجى ، ووددت أن تكون نسبة زنوجتى اكبر من ذلك .

ـ قابلت الكثيرين من امثالك فى الولايات المتحدة .

فنظر اليه جو متسائلا :

ـ هل كنت فى الولايات المتحدة ؟

ـ نعم لفترة .

ـ هكذا ، والعجيب أنه لم يدلك أحد علىّ ، لو كنت فى الولايات المتحدة فعليك ملاقاة جو جولدر الذى يقولون أنه أرق رجل يمكن ان تقابله ، أن له صوتا رائعا .

ـ هل لك فى الغناء ؟

ـ سوف تكتشف الأمر بنفسك ، لسوء الحظ انا أحب الغناء ، واعتقد أن لى صوتا جميلا ، أجمل صوت فى الكلية ، هكذا يقولون ولكن اغلب من يقول ذلك هم النساء ، لا يفهم معظم هؤلاء الزوجات اننى لا اشاركهم حفلات الغناء من أجل التصفيق والتعليقات ... لا ليس لهذا اذهب الى الحفلات .. فعندى بيانو فى منزلى ورأى بعضهن أن من المناسب أن يحضرن لمشاركتى التمرين ولو لمدة قصيرة ، ولا يهم اذا رفضت فى كل مرة الحضور ، فانهنَ يعتقدن انهم سوف يوقعننى فى الفخ بالألحاح المستمر . تصور ان الشىء الوحيد الذى لا يمكن أن احتمله اطلاقا هو أن اسمع غناء انثى فى شقتى . اعتبر ذلك أمرا لا يمكن احتماله ، اننى غيور على اسرار حياتى ، ولا احتمل أن يقتحم أحد على عزلتى .. واحيانا ييأسون ويقبلوننى على علاتى ..

ومضيا فى الطريق الى أن انحرفا نحو منطقة لم يسمع فيها سوى نقيق الضفادع وأصوات الحشرات التى تتحرك على سطح ماء الجدول القريب او خلال الحشائش التى تغطى الأرض .. وابتسم ساجو ترحيبا بهذا الخلاء وغمره صمت وراح فى غيبة ذهنية .. فلاحظه جو وقطع عليه شروده وقال :

ـ هل تبتسم ؟ ـ لماذا ؟

همهم ساجو ولم ينطق ، فأعاد عليه جو السؤال :

ـ سألتك هل تبتسم ؟ هل انت شخص صامت ؟ لم ترد عليّ ولكنك واصلت ابتساماتك .

ـ أحقا ما تقول ؟

ـ نعم ، فيم تفكر ياترى ؟

ـ فى ميتافيزيقا الخلاء .

ـ هكذا .. هه .. شكرا جزيلا .

وسارا معا فى صمت انغمس فيه ساجو بكليته حتى كاد يبدو آنه أبله ، وسرعان ما أصبح عقله خاويا تماما ، وكأنه غائب عن الوجود .. ولما حاول جو أن ينبهه ، ويوقظه من هذا الشرود لم يرد عليه .. وظلا سائرين حتى اقتربا من المنزل الذى يسكن فيه جو ، إنه يقيم فى احدث مبنى بالمدينة الجامعية وهو عمارة من أربعة طوابق . تنبه ساجو عندما رأى هذا البناء المرتفع وسمع جو يقول له :

ـ اسكن فى الدور الرابع ، وعلينا أن نصعد ثمانى مجموعات من السلالم فى كل مجموعة عشر درجات .

ـ كيف رفعت البيانو الى ذلك المكان ؟

ـ كأنى أرفعه دورا واحدا ، لكن مع شىء من العناء .

وبينما يضع جو المفتاح فى الباب قال :

ـ ليس لى اصدقاء ، وسوف تسمع الكثيرين يدعون ان جو جولدر صديقهم ولكن ذلك فى نظرهم فقط ، يأتينى الزوار فيقولون . انت جو جولدر ، لقد حدثنى صديقك فلان أو صديقك علان عنك بالامس ..

ـ ربما كان ذلك مجرد أسلوب للحديث ..

وحينما دخلوا إلى البهو رأى ساجو أمامه صورة امرأة عجوز وبقية الحائط مغطى بأرفف مليئة بالكتب المجلدة تجليدا فاخراً .

ـ عملت من قبل فى مكتبة بباريس ، هل ذهبت الى فرنسا ؟

ـ نعم ، لفترة قصيرة .

ـ اخذت معظم هذه الكتب من تلك المكتبة ، فهى من الكتب التى تباع بثمن رخيص فى التصفيات ، أخذتها من التصفية ولا أعلم ماذا تحتوى ، هوايتى التالية للموسيقى هى الكتب .

وفى البهو رأى ساجو من التحف المتنوعة ، فأخذ يسأل عنها بشىء من السخرية فقال له جو :

ـ بالله عليك لا تسخر من هذه الأشياء كما يفعل الكثير من زوارى حين يتهكمون عليها .
ولكى يشغله عنها قال :
ـ ماذا تشرب ؟ قهوة أم شيئا أقوى من القهوة ؟
رد عليه ساجو :
ـ اشعر بظمأ شديد ، فهل عندك بيرة ؟
ـ كنت مقطب الجبين عابسا فما حكايتك ؟
ـ هل كنت كذلك حقا ؟
ـ بشـــــدة ؟
ـ ربما ، ولكن ذلك شىء مزعج ، هدوء شديد ، هنا هدوء ، مجرد ازعاج الهدوء يعيد الهدوء .. كيف ، لا اعرف ؟
ـ ماذا تقصد ؟
ـ لا اعرف سوى انى ارجو أن تعطينى زجاجة بيرة .
ـ ولم يرد ساجو مرة اخرى فبادره قائلا :
ـ لابدانك تفكر فى شىء ما ؟ كنت تفكر بعمق شديد ؟
ـ لا اعرف ، فقط اعطنى زجاجة البيرة .
واتجه ساجو الى الشرفة ، واخذ يسرح بخياله فى المنظر الذى يشاهده من ذلك الارتفاع ، الغابات والأحراش والجداول والنهيرات وهى تلمع لمعانا خفيفا من انعكاس الأضواء البعيدة المنبثقة من أطراف المدينة فكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وجاءه جو فسأله بصوت جاد :
ـ فيم تفكر الآن ؟
ـ انك مقطب الجبين متجهم ، مرة اخرى شارد بخيالك .
وحاول ساجو أن يخرج من غيبوبته هذه ولكنه أخذ يترنح ويهذى بكلام لا تستتم بيانه ، وظل هكذا الى أن قال لـ جو بشىء من الحزم :
ـ هل تحتاج الى كل ذلك الوقت الطويل لتتذكر ما تفكر فيه ؟
هنا افاق ساجو من غيبوبته وقال :
ـ أنا آسف ، لم أكن افكر فى الحقيقة كنت احاول التفكير وتكررت الغيبوبة مرات ، وكان جوجولدر يصر فى كل مرة على ان يخرجه منها ، وقال له :
ـ انه شخص صامت لم تقل شيئا منذ ان تقابلنا .
ـ ربما لانى متعب وأشعر بالارهاق .

- لا تبدو متعبا اعرف متى يكون الانسان متعبا .
- ربما بدافع الكسل ، أو شعشعة الادمان . فأحيانا يؤدى الادمان الى الهدوء .
- ولكنك تتكلم الآن ، قل لى فيم كنت تفكر ؟
- هل يلزم أن يفكر الانسان فى شىء معين ؟
- عن نفسك مثلا .. تكلم » قل لى اى نوع من الناس انت ، وما الذى يجعلك هكذا ، اعلم اننى اكره الجنس البشرى ، ولا يهمنى الناس ، وقد زرت الكثير من الدول واختلطت بكثير من الشعوب وجئت الى هنا معتقدا أننى قد أجد الأفريقيين أفضل من غيرهم .
واستند بظهره على جانب من الشرفة وواصل حديثه بجدية أكثر عن تاريخ حياته :
- أفضل ان ابقى وحيدا واكتب ، فانى اؤلف الآن كتابى الثانى ، قصة تاريخية عن افريقيا .
ثم التفت الى ساجو مرة اخرى وقال بشىء من العصبية :
- انت لا تستمع الى ، واذا لم ترد فلا داعى لان اخبرك بشىء .
ألقى ساجو بنفسه ، على المقعد وقال غاضبا :
- ما حكايتك ، قلت لك لم اكن افكر ، ولو فكرت فلن أخبرك بما افكر فيه ، فهذا من شئونى الخاصة .
ضحك جوجولدر وباتت أسنانه الكبيرة فقال له ساجو :
- لعلك تريد أن تمثل لى دور الشخص القريب .
فتوقف جو عن الضحك وسأله :
- هل تعتقد ذلك ؟
- لاشىء ؟ لا تعر الأمر التفاتا فقد اردت أن أنطق السؤال فقط .
- أنا شخص مخلص ، من أكثر الناس اخلاصا .
فعلق ساجو على ذلك قائلا :
- هذه وجهة نظر شخصية .
اتجه جو الى المطبخ قائلا :
- المشى يجعلنى اجوع ، هل تأكل شيئا معى ؟
فكر ساجو فى هذا العرض فصاح فيه جو :
- حتى هذه تظل صامتا فيها ، لا تجيبنى اذا كنت تريد أن تأكل ام لا ؟

اراد ساجو أن يرفع بعض الكلفة معه وذهب اليه فى المطبخ فأخذ جو يتحدث عن بعض ذكرياته :

ـ حينما كنت فى باريس تعرفت على راقص من غينيا الجديدة يبحث عن عمل ، وكان لعينا لا يقول الا كلمة « شكرا » .. يأتى الى منزلى فيجلس فى غرور شديد ويرفع رجله فتظهر ثقوب حذائه .. واذا دعوته الى طعام أو شراب فلا يرد إلا بـ « شكرا » مما كان يثير غضبى الى حد الجنون .. وفى يوم من الأيام ذهبت الى الحجرة التى يسكنها فى العشش فلم استدل عليها الا بعد ساعات من البحث فى المنطقة ، وكان مريضا هزيلا ولم يكن فى بيته كسرة من خبز . وحينما اردت الذهاب لشراء بعض الطعام قام وفتح الشباك وقال لى انه أكل ورفض ان يأكل رغم أن بطنه تصرخ من الجوع .

ظل ساجو يراقب جو وهو يشعل موقد الكيروسين ويقول :

ـ لا استعمل الموقد الكهربائى منذ اتتنى اول فاتورة كهرباء ، ثم بدأ يكسر بعض البيض فى طبق ، وحينما بدأ يكسر البيضة الثالثة قال له ساجو :

ـ انا لا اعتقد أننى أريد أن أكل .

ـ هل انت متأكد أم أنك تفعل مثلما يفعل ذلك الغينى البريطانى .

ـ نعم لا اريد مثل البريطانى اشكرك لا اريد أن اسبب لك أى أرهاق ..

ـ على الأقل انت تمتاز على ذلك الغينى البريطانى بانك شخص ظريف .

ـ صدقنى لست بحاجة الى طعام .

ـ على كل فانا استمتع برؤية الجياع . وهى عادة سيئة اخرى تعودتها لاننى قاسيت فيها وانا فى باريس قبل ان احصل على وظيفتى فى المكتبة ، فقد كان المبلغ الذى يأتينى من أهلى لا يكفى للطعام ، فكثيرا ما كنت اعانى من الجوع ، وكنت اراقب هؤلاء الذين يعانون من الجوع فى الحى اللاتينى حيث كان الكل جياعا ، بعضهم جائع ينشد الحرية ، وبعضهم جائع ينشد الشهرة ، والبعض جائع للفن ، لكنهم جميعا كانوا عباقرة فى شىء واحد هو انهم جميعا يتطفلون علىّ .

ـ رأيت امثال هؤلاء فى نيويورك .

ـ نعم فى حى جرينتش .

ـ وفى سان فرانسيسكو أيضا ، لماذا يتصرفون هكذا ؟

وأخذ جو يتحدث مرة اخرى عن صديقه الغينى وعن تعففه ، وعن مرحلة الجوع والعوز التى بلغها حتى اضطر رغما عنه الى اقتراض بعض النقود منه . وفى هذه الأثناء دخلت نسمات هواء من باب الشرفة ، وعاد ساجو الى تأملاته وصمته ، وتذكر حينئذ ديهينوا وكثرة كلامها ، وايجبو وثرثراته .

ثم اتجه جو الى البيك آب ليدير اسطوانة وسأله : .

- ما رأيك فى اسطوانه كلوراتورا الأيطالية ؟

- انا احب أى صوت انسانى .

- هذا عجيب ولكن لست ءندهشا لانك تحب سماع ذلك الصياح .

ووقف ساجو بجوار اللوحة الوحيدة المعلقة على الحائط يتأملها وفيها منظر لبعض الخطوط والنقط البيضاء على خلفية سوداء . فسأله جو :

- هل تعجبك هذه اللوحة ؟

- لا بل أجدها مقززة .

صمت قليلا وقال :

- انك اول شخص يقول ذلك ، فالأخرون جميعا يقولون انهم لا يفهمونها . وصمت ساجو بعد ذلك دون أن يعلق ثم فاجأ جو بسؤال :

- هل رسم صديقك الراقص الغينى هذه اللوحة ؟

فصمت جو فى دهشة ثم قال :

- ما الذى جعلك تخمن هذا ؟

- لا ادرى ما دفعنى الى طرح ذلك السؤال .

رد عليه جو غاضبا ..

- انت تصر على الا تقول شيئا .. اللعنة على غموضك .

قبل أن تظن شيئا أؤكدلك أننى لا ادرى وليست لدى أية فكرة مسبقة .

- لاحظت ذلك عليكم ايها الأفارقة ، حينما تكذبون تتمسكون بأقوالكم الكاذبة حتى لو واجهكم الآخرون بالحقيقة التى تكشف كذبكم .

اتجه اليه ساجو وقال مهددا بضربة :

- اذا سمعتك تتحدث هكذا مرة أخرى فسوف ..

رد عليه جو قائلا :

- من فضلك .. انا اكره العنف .

- اذن لا تفتح فمك الكبير ينقد الأفارقة ، ان اخلاق الامريكيين لا تطاق

ولذا فمن العجيب أن تخرجوا من أى مكان بسلام .
ازاح جو الطعام من أمامه واخذ كأسه ليشرب وقال :
- الان لا استطيع أن أكل .
- ما الذى يمنعك عن الطعام ؟
- فقدت شهيتى لاننى اكره العنف .
- يجب أن تكون حريصا فى كلامك فهناك عنف فى الكلام أيضا .
- لا تأخذ الأمور بهذه الصورة كنت أحاول أن أجد سببا لملاحظتك ، دعنى الآن ابحث لك عن صورة لهذا الصديق ، فانه الآن شخصية ناجحة وعندى بعض صور من الصحف والمجلات . لقد استطاع ان يجد عملا فى مدريد ، وقد اعاد الىّ كل النقود التى اخذها منى ، المهم انه أخذها ولم يبق له من دواعى الكبرياء والغرور سوى أن يعيد لى النقود .
وشعر ساجو بالضيق من جو جولدر ولكنه تحلى بالصبر كى يبقى ، ولكى يحافظ على سلوكه الحضارى وبدأ يبحث عن مبررات لتصرفات جو لعلها حبه للعزلة والوحدة مما يبدو بوضوح فى حجرته فقد كانت حجرته طاردة لمن يجلس فيها ، ومازال يستخدم كلمة غامض حيث قال له :
- حتى الأن لم تقل شيئا ، اليس هناك شيىء تقوله ؟ اقصد هل هناك سبب يجعلك هكذا غامضا ؟
- هل تحب دائما أن تجعل أصدقاءك - متأسف معارفك - يحسون بأنهم مثل المهربين .
- لا اعرف ما يحسون به ، ولكننى لا احب الاسرار والغموض .
- اذن تحب أن تكشف اسرار الناس .
- لا اعرف بالضبط .. ولكنك لم تقل شيئا عن نفسك .. احب دائما أن اتعرف على الناس .. لانى اجد أن الكثير من الناس يستغلون من يظهر استعداده لمساعدتهم فى باريس يمكنك ان تجد اناسا من كل الدنيا لم أكن اهتم الا بمن على شاكلتى . فانا احب السود ، احبهم فعلا ، فالسود يمتازون بالحيوية وهو شىء جميل حقا .. ميزة حقيقية ..
- ولكن عقليتك عقلية بيض .
- لعلها تبدو كذلك ولكن من حقى أن أشعر بالطريقة التى أحس بها ، والسواد شىء احبه واحب أن اكون من السود ولست ادرى لماذا لم أولد اسود البشرة .

- حينئذ ربما قتلك شدة حبك لنفسك .
- هل تستمتع بأن تكون فظا فى كلامك .
- لا احب المبالغة فى حب الذات ، بل اشمئز منها ، حتى القومية فى نظرى تعتبر نوعا من حب الذات ، ولكن بالأمكان الدفاع عنها ، وتصل بى مسألة الجمال الاسود هذه الى درجة الأشمئزاز فهل يذهب الصهب الى البحر ليغرقوا آنفسهم مثلا ؟

كان ساجو قد نسى لازاروس تماما ، ولكنه استعاد ذكراه الأن فهب واقفا فسأله جو :

- هل انت ذاهب الآن ؟
- نعم .
- معنى ذلك انك تشعر بأن بشرتك جميلة ؟
- لم افكر فى لون بشرتى أبدا ، رأيت فتاة بيضاء فى حفل من الحفلات منذ بضع ليالى فرأيت فيها جمالا باهرا ، انها مسألة ذوق شخصى ، لم افكر ابدا فى لون بشرتها ، وحينما تحدثت عن حيوية الجمال الاسود كأننى اسمعك تهذى ، فكونى اسود البشرة ، هذا لا يقلل من قيمتى كما انه لا يعطينى قيمة خاصة ، لذا أجدا هذا الحديث مقززا ..
- لا بل انتظر دقيقة .
- دهشت حينما قلت ان السود متميزون .. وعجيب أكثر أن يصدر هذا القول كنفاق من رجل اسود لرجل اسود .
- ووقف جو وقال :
- ان مكانك بعيد سوف أوصلك بالسيارة ، أو فلتبقى الليلة فان الوقت متاخر جدا .
- لا ربما يقلق على صديقى .
- اعتقدت أنك مطرود حينما قابلتك .
- لا لم يكن الأمر كذلك . اكتشفت أن بيتر الألمانى السخيف كان هناك ، ولم يكن مزاجى مستعدا لأن يراه .
- هل تقيمان معا ؟
- لا بل اننى ضيف على صديقى بانديلى .
- انا اعرف بانديلى جيدا .

ولذلك اوقعته فى ذلك المأزق الحرج لانه اضطر الى استضافة بيتر بعد ان تخلصت أنت منه .

ـ يمكنك أن تنتقل لتقيم معى هنا .
ضحك ساجو ضحكة عالية وقال :
ـ هل تتغير بهذه السرعة ؟ لا أعتقد أننى سأرتاح هنا ، وأتوقع ان تخرج من محاضرتك فى اى وقت لتطردنى .
ـ لا لا تظن اننى افعل ذلك دائما او حتى اميل ان افعل ذلك .
ـ على كل حال ، لست هنا سوى من أيام قليلة ولا اريد ان اضايق احدا أو يضايقنى أحد .
ـ ابق معى الليلة ، وسأوصلك فى الصباح .
رد عليه ساجو قائلا :
ـ اعترف بأننى سأستغرق هنا فى النوم مادمت لن أرى وجه بيتر عندما اصحو من نومى صباحا ..
ـ حسن جدا ، المكان هنا ليس به بعوض لأنه عال ، وسأنام فى الصالة وتستخدم انت حجرة النوم .
ـ لا أنا أفضل هذه الأريكة احتفظ أنت بحجرة نومك .
ـ لا يمكن أن انام فى سريرى وعندى ضيف .
ـ ولكنى افضل فعلا النوم على الأريكة أو حتى على خشبة فوق الأرض .
ـ اذن ننام نحن الاثنين على الأرض .
ـ لا تتعب نفسك .. لا أظن أننى سأبقى أبدا .
فقال له جو وهو يحاول استرضاءه .
ـ لماذا غيرت رأيك هكذا ؟
ـ أنا لم أقرر المبيت هنا بعد ؟
فقال له بغضب وعصبية :
ـ ولكنك وافقت على البقاء معى الليلة .
ـ فلنفرض ذلك ، أليس هناك تغيير مفاجىء فى المزاج ؟
ـ ولكن لماذا لا تبقى ؟ ما سبب ذلك التغير المفاجىء ؟
ـ هل تريد ان تعرف السبب ؟
ـ وعاود جو حديثه برقة قائلا :
ـ نعم اريد ان اعرف بالله عليك قل لى لماذا ؟
ـ السبب الوحيد هو أنك لا تحب الدخلاء .
ـ لا ابدا ، قلت ذلك لاعرفك بنفسى حقا مزاجى يتغير احيانا ولكننى

بحق واخلاص اريدك ان تبقى معى .

ـ انت تثير اعصابى هكذا .

ـ بالله عليك ابق معى ليلة واحدة .

ـ لا بل انى مصر على الذهاب واذا كان لديك تفسير اخر غير الذى قلته فلتدركه بنفسك .

ومضى ساجو نحو باب الشقة ونظر الى جو وقال :

ـ اذا كنت تريد سببا آخر ، فالسبب هو انك قد تقتلنى . فاقترب منه جو متودداً وقال :

ـ هل تخاف مني حقا ؟ هل تظن انى مصاب بشذوذ جنسى وسأعتدى عليك ؟ هل تعتقد أنى مجنون أو مصاب بمرض نفسى .

ـ لا على عكس ذلك تماما ، فانى أرى أن سلوكياتك وميولك نسوية غضب جو وأخذ يهاجم ساجو قائلا :

ـ لا تتهمنى بذلك ، لقد نشأت فى مجتمع سليم ، اتظن أننى لا اعرف عن غلمان الأمراء ؟ هل نسيت اننى متخصص فى التاريخ ؟ وماذا عن شلل الفساد المشهورة فى لاجوس ؟

خجل ساجو من اتهاماته للرجل وقال له .

ـ يبدو أنك أعلم منى بأمور كثيرة ، لم اقصد شيئا ولكنك مصر على أن اقول لك اسبابا . اما عن هذا الموضوع فمن الأفضل أن نناقشه فى مقابلة اخرى . انا مصر على الذهاب .

ـ اذن ، سأوصلك .

وفى الطريق تذكر ساجو ايام اقامته فى امريكا ، وتذكر ما رآه هناك من انتشار الشذوذ الجنسى .. وكيف ان تخطيط المدن يبنى على اساس الجنس فيترك فيها اماكن لممارسة الجنس بحرية ، وتذكر إن كان خمسة أصدقاء منهم ثلاثة مصابون بالشذوذ الجنسى والرابع يعشق أمه ، فى طريق العودة طرح جو سؤاله المتكرر :

ـ فيم تفكر الآن ؟

فرد عليه ساجو :

ـ دعنا من هذا الموضوع الآن .

ـ وبعد مسافة من القيادة البطيئة وسط الأوحال التى تغطى أحد الطرق المشجرة قال جو :

ـ آنا أحب الرجال فعلا .
وشعر ساجو بأنه كان غبيا فى تلك الليلة ، أو أنه لم يسمع ما قيل . ثم بدأ يسب جو لأنه يقود السيارة ببطء .. فقال له جو :
ـ انا اعنى ما اقوله ، احب الرجال وظننت انك تدرك ذلك .
ـ اعتقد أننى لم أفهم .
ـ اذا لم تكن قد فهمت فلماذا رفضت البقاء معى ، وهل تعنى انك لم تشك فى الأمر أيضا ؟
ـ انا لست ذلك الشخص الجامد ، فمن الصعب أن اشرح لك ، ولكن ربما لاحت الفكرة فى ذهنى لست أدرى لماذا تمسكت بها ، ربما كان رد فعل ، فحينما لا استطيع التفكير يقودنى ذهنى الى أشياء غريبة .
ـ اتعلم انك لم تذكر اسمك حتى الأن .
ـ هذا أمر عادى حينما تصطاد شخصا من الطريق أليس كذلك ؟
ووجد ساجو على المقعد كتابا من كتب الجنس فسأله :
ـ هل تضع هذا الكتاب كى تغرى الطلبة الذين توصلهم احيانا بسيارتك .
فرد عليه جولدر قائلا :
ـ يبدو انك تستمتع بأن تكون مبتذلا فى حديثك .
ـ وانت ، لماذا تترك هذا فى مقعد السيارة ؟
ـ هل تحاول أن تؤذينى بكلامك ؟
ومضت السيارة حتى اقتربت من منزل بانديلى فقطع جو الصمت وقال :
ـ على كل حال ، الدعوة مازالت قائمة .. وتستطيع ان تأتى فى أى وقت :
ـ شكرا ، لا اعتقد أننى سأحضر اليك .
ـ هل بسبب ما قلته لك .
ـ قلت لك مائة مرة اننى استطيع أن أحمى نفسى .
وفتح بانديلى باب السيارة وهو يقول :
ـ هل هذه سيارة جو جولدر .
ـ نعم ، انها سيارته ، واشكرك على هذه الاستضافة الحافلة بالأحداث .
ـ ما حكايتك يا ساجو ؟
ـ اولا اتيت لى بذلك المدعو بيتر ، ثم بلدياتك والآن شخصية جولدر

العجيبة - وارجو الا تكون لديك مفاجآة اخرى تعدها لى .

فنظر اليه بانديلى وقال :

- آه فهمت ، آسف ياعزيزى اننى لم أحذرك .

- على كل حال فاننى كصحفى اعتبرها بعضا من تحقيقاتى فالمشاكل التى تواجهنى قد تفيد رئيس التحرير .

١٤

اقيم حفل غداء آخر فى منزل فاسى . وكان ذلك مدعاة لسرور بانديلى لأنه لا يقاوم ذلك الطعام اللذيذ الذى تقدمه أم فاسى . وجلس وكل أنفه متجه الى المطبخ يستطلع شمة تلك الوليمة المأمولة .

أما مونيكا فكعادتها قدمت المشروبات ثم مضت لحالها فأمسك فاسى بسترة بانديلى واسنده على الحائط وقال له :

ـ رأيت كل ما حدث اليس كذلك ؟ رأيت كيف تسبب لى هذه المرأة الخجل فرد عليه بانديلى قائلا :

ـ لم يكن الأمر بهذه الضخامة ، اذ لم يكن موضع اهتمام أى أحد .

ـ كيف تقول ذلك ؟ انك دائما صريح معى . فقل لى ماذا عن كولا ؟ هل كان حاضرا ذلك الحفل ؟

فرد كولا عليه قائلا :

ـ لم اكن فى الحفل .

ـ ألم يكن هناك ؟ اقسم بأنه أخذ مونيكا ورقص معها فيما بعد ؟

ـ لا لم أكن أنا .

واتصرف كولا فى حديث مع ايجبو ، وايد بانديلى قول كولا :

ـ وأنا لا أذكر أننى رأيت كولا فى الحفل .

ـ هل رأيت يابانديلى ؟ اذا كنت قد تزوجت فتاة أمية جاهلة من لندن لكان لهم حق أن يلومونى ، فقلى لى بأمانة هل انا من ذلك الصنف ؟

رد عليه بانديلى مادحا مونيكا ومحاولا اقناعه بأنها زوجة مناسبة فقال له فاسى .

ـ هل رأيتها تذهب الى كل مكان فتسبب لى الحرج والخجل كما لو انها لا تعلم أبسط مبادىء الذوق العام .

ـ انظر يافاسى ....

لكن فاسى قاطعه قائلا :

ـ أنت لا تنظر الى الموضوع كما أنظر اليه أنا .

وأستأذنه وذهب وراء الباب ليستمع الى حديثها مع أمه ...

ـ انتظر يابانديلى ، تتحدث امى معها الآن فى الموضوع ، يبدو أن

زوجة الأستاذ قالت لأمى انها لا تحتمل وجود مونيكا فى منزلها مرة آخرى .
فقال بانديلى متمتما :
- أمر عجيب .
- هل أدركت ما أقصده ياباندیلی الآن ، لماذا تسلك ذلك المسلك فى مجتمع راق كهذا المجتمع ؟ أظن احيانا آن مونيكا لا تحترم الافارقة . هذا كل مايمكن أن أقوله تفسيرا لمواقفها ، هل ستتصرف هكذا لو كانت فى منزل رجل أبيض ؟
- هل قابلت الاستاذ يافاسى بعد ذلك .
- لا ، لم أقابله بعد ، لكن لابد أن أعتذر له ، وحتى الاعتذار لن يصلح الموقف ، فقد كان بالحفل أحد الوزراء وثلاث من الشخصيات الهامة الأخرى ، وانت تعلم أن الاستاذ أوجازور يعرف الكثير من الناس ، ورأيت بالفعل أربعة رؤساء مجالس ادارات وبعض وكلاء الوزارات ، وربما يؤدى موقف مثل موقف كولا الى تدميره اجتماعيا .
- طبعا ممكن ..
- دعونا نواجه الحقائق ، تعتبر الجامعة خطوة فى حياتنا نحو المؤسسات والشركات الكبرى ، لا أقصد فقط تلك الشركات الأجنبية التى تطلب مديرين من النيجيريين ، بل إنك ياكولا فنان ، ذلك بالتأكيد خطوة الى هدف أبعد .
- تظاهر كولا بأنه لا يسمع ، وواصل فاسى حديثه :
- لم أنم ذلك الليل بطوله ، وذهبت فى الصباح المبكر لاحضار مامى ، ولكنى أحب أن أتكلم مع أصدقاء من سنى ، ومامى تحب مونيكا جدا وتوافقها على كل شىء .
- ماذا قالت أمك عن ذلك الموقف ؟
- لم تقل شيئا حتى الآن ، كل ماقالته إنها سوف تسمع الطرف الآخر
واستأذن كولا وأخذ ايجبو وذهبا الى الشرفة وتركا فاسى وبانديلى وحدهما . وهمس ايجبو فى اذن كولا قائلا :
- لا أفهم كيف يتعايش بانديلى مع فاسى ؟
- لا تسألنى أنا واسأل نفسك .
- لا أدرى كيف قبلت على نفسى أن أحضر اليوم .
- وأنا أيضا ، لكننا حضرنا لسبب ما .

- وماهو السبب فى ظنك ؟
- مونيكا .
فنظر اليه ايجبو وهز رأسه وقال :
- هكذا تجوب وتغامر فى كل مكان .
- فرد عليه كولا بسؤال :
- هل وجدت تلك الفتاة ؟
- لقد اختفت تماما ، ولم أكن أدرك آن الاجازة قريبة هكذا .
فضحك كولا وقال له :
- لم أرك من قبل فى مثل هذا الهيام .
- ولا أنا ، يبدو أننى أقترب من الشيخوخة .

وكان وجه المدينة الجامعية قد تغير تماما ، الأصوات مختلفة ، لا ضجيج أثناء انتقال الطلاب من مدرج الى مدرج أو من الكليات الى داخلية الطلاب والطالبات ، الصمت غالب على مهاجع التلاميذ ، على المدرجات ، خلت السبورات من المعادلات الرياضية ولا يوجد الا بعض التعليقات التى خلفها الطلبة وهم يودعون القاعات .. كل مظاهر الحياة الجامعية غائبة عن المدينة الجامعية ، لا نفاق من أساتذة لعمداء أو لأعضاء المجلس ولا تظاهر بالتعالى من جانب أعضاء هيئة التدريس على تلاميذهم ، لا ضجة اثناء انتخابات اتحادات الطلاب ، ليست هناك احتجاجات على زيادة عدد الاناث وليست هناك أية أنشطة طلابية .. نظر كولا من الشرفة الى ذلك الصمت وهو يتخيل النشاط الذى خمد وقال :
- من بين هؤلاء ... تخرج احيانا الأعاجيب .
- ما هذا ؟
- كنت أفكر ان من بين هؤلاء التلاميذ سيكون عباقرة .
- لا تتكلم هكذا كشيخ مسن .
- ألست مسنا ؟
- هل سن ٣١ يعتبر شيخوخة .
- لا .. اثنان وثلاثون .
- انه مازال نفس جيل تلاميذك .
- الأجيال لا تقاس بالسن أو بأعمار أفرادها .
- على أى حال لا تتكلم مثل متخرج قديم يلقى خطابا أمام كليته .

هنا وقف كولا فجأة وقال :
ـ كثيرا مايضايقنى بانديلى هكذا ، كيف يحتمل الاستماع الى كلام فارغ طيلة هذه المدة .
ـ انتظر ودعهما يحلان المشكلة .
ولكن بانديلى فتح الباب ودخل فسمع فاسى يقول :
ـ شىء سيىء للغاية كما قلت لك ، لقد تجاوز الأمر كل الحدود ، ولهذا قد انتهيت الى قرار نهائى ، استدعيت مامى لتخبرها لأننى أعلم أنها مغرمة بمونيكا ، ولم أرد أن أطردها دون علم أمى أولا .
عندئذ نفد صبر كولا ، ورفض أن يقبل أى شىء من هذا ، وشعر بالأسف الشديد لأن الرجل لم يظهر أى شىء من الرجولة وقال :
ـ ربما اذا استجديت أوجاوزور فسوف يساعد ذلك كثيرا .
نظر فاسى نحو مصدر الصوت وقد شعر بأن ماقاله كولا بمثابة بصيص من الأمل ، ولكن بانديلى علق على ذلك بسؤال :
ـ ماذا تقصد بأن يستجديه ؟
خشى فاسى أن يحبطه بانديلى مرة أخرى فقال :
ـ كولا على حق ، أردت أن أذهب هذا الصباح ولكن مامى نصحتنى بأن انتظر ، ويبدو أن ذلك هو الرأى الأمثل .
ـ أنصح بأن تترك الأمر وتنساه تماما يافاسى .
فعلق كولا قائلا :
ـ ولكن أوجاوزور لن ينسى ، انه حيوان متصلب الرأس ، أعرفه انه لا يمكن أن ينسى مثل هذه الأشياء .
فقال بانديلى متحديا :
ـ ماذا تقصد ؟.. انك لم تحضر الحفل كما قلت .
ـ ولكنى سمعت الحكاية .
ـ اذن رأيك مبنى على الأقاويل ، وهى ليست وسيلة للحكم على الأشياء ؟
كان فاسى يتابع نقاشهما بنظراته ، ثم قام ليملأ كئوسهم بالشراب فانتهز بانديلى الفرصة وقال لكولا :
ـ ماهذه اللعبة التى تلعبها ؟
ـ دعه يذهب ويتركك اذا اراد ذلك ؟

- لا بل ننصحه ونتركه يقرر بنفسه .
- ماهذا ، هل أنت ولى أمره ؟
نظر بانديلى الى كولا نظرة طويلة فاترة ولم يستطع أن يستطلع مايفكر فيه . وعاد فاسى بالمشروبات وقال :
- ترون أن الأمر كله يعتمد على مامى ، ومن سوء الحظ أن أبى قد توفى ، وربما كان له رأى صائب فى مثل هذه المواقف لأنه عاش فى الخارج فترة من الزمن .
تركهما بانديلى وخرج الى الشرفة لينضم الى ايجبو همس فاسى قائلا :
- سوف اخبر مامى ...
فرد عليه كولا قائلا :
- لماذا تخبرها يافاسى ، سوف تقول لم انتظر ، الأفضل أن تذهب من فورك وتصفى الأمور مع أوجاوزور .
- طبعا انك على حق ... انظر ... كن صديقى .. اذا سألت عنى مامى فقل لها اننى ذهبت الى المعمل للقيام بعمل عاجل وسأعود فورا .
- بالتأكيد .. اطمئن .
كان شعور كولا من أعماقه أن هذا هو افضل تصرف ، ومضى فاسى ثم جاءت مونيكا فرأت كولا جالسا وحده فقالت له :
- دائما يتركونك وحدك كلما جئت الى هذا المنزل ، أنا أسفة جدا .
- لا يغضبنى ذلك أبدا .
وجلست في صمت قليلا ثم قالت :
- شكرا على مافعلته فى الحفل .
- أرجو ألا يكون شكرا انجليزيا .
- ولكنى صادقة فيما أقول :

- أعرف ذلك ، هناك أيضا أشياء لا تستلزم منا الشكر .
- لا أعرف أيا من هذه الأشياء .
- ذلك لأن تنشئتك كانت خاطئة .
- هل معك شراب أم آتيك بشراب ؟
- لا ، لا أريد شرابا الآن ... صديقى الصحفى يبعث اليك بتحياته وهو يصفك بأنك بطلة المعركة فى مقبرة أوجازور .
- أرجوك لا تدع فاسى يسمع ذلك .

- سأقولها له دون مواربة اذا أردت ذلك .
- لا باس عليه ، لا تفعل .
وصمتت قليلا ثم سألته .
- ما أخبار اللوحة التى ترسمها ؟
- سوف تنتهى قريبا جدا ، قد أعرضها فى معرض سيكونى ، وستكون اللوحة الوحيدة المعروضة لى .
- أليس لك لوحات أخرى .؟
- المعرض مخصص للمرحوم سيكونى ، ولا أجد مناسبة أفضل من ذلك لعرض أكبر أعمالى حتى الآن .
- أراك كثيرا ماتأتى لتأخذ يوساى ولم تفكر مرة فى الحضور لرؤيتنا .
- كنت آتى فقط من أجلها .
- ونحن . أليس لنا أى نصيب ... على كل هذه صراحة منك .
- على كل حال سوف تكون نظارتها جاهزة فى الأسبوع القادم .
- اشكرك على الجهد الذى بذلته من أجلها .
- تشكريننى ثانية بينما أستغل الصبية فى أعمالى الخاصة .
- آه تذكرت الآن ، انك ترفض العطف ... ذلك الذى تسميه شعورا زائفا .
- ولكننى أقول الحقيقة ، أجلستها امامى ساعات وساعات .
- على كل حال شكرا لأنك أخذتها الى طبيب العيون .
وكما حدث فى المرة السابقة اتجه كولا ومونيكا الى النافذة ، ليشاهدا يوساى فى ثوبها المزركش تلعب قرب الشجرة ، وعادت مونيكا تتحدث عن ليلة الحفلة قائلة :
- لا أدرى كيف حدث ذلك ؟ فى كل مرة اذهب الى حفل ينتهى الأمر باغضابه .
- هل ماتفكرين فيه حقا ؟
- أعرف شعوره ، وأعرف اننى كثيرا ما أتصرف بحماقة .
- هل هذا هو اعتقادك حقا ؟
- بلى ، انهم أصدقاء زوجى ، وهم مجتمعه ، ولا يصح أن أسبب له الاحباط .
- هذا رأى شخصى .
- ماذا تعنى ؟

ـ أعنى ماتقولينه بأنهم مجتمع زوجك ، وليس مجتمعك أنت أيضا ، هذا ما أقصده ، أما بالنسبة لسلوكك الشخصى فانها مسألة تتقرر بينك وبينك أليس كذلك ؟

ـ بلى ، المهم أن أمه سيدة عطوف ، وأنا أحبها حباً جماً ، ولا تتصور الصلة القوية بينى وبينها ، فى الحقيقة انها لا تأتى هنا كثيرا ، اذا لم يدعوها فاسى لا تحضر .

ـ ما رأيها فى الموضوع ؟

صمتت قليلا وهى تفكر فبادرها كولا قائلا :

ـ آسف ، ربما من الأفضل ألا أسألك .

ـ حقا ، كنت أفكر هل اتحدث اليك فى الموضوع أم لا ، لكن لا مانع أن أخبرك بالحقيقة ، أنها تفكر فى أن أتركه .

ادار كولا وجهه من المفاجأة ، فقالت له :

ـ هل صدمتك الفكرة ؟ ليست هذه هى المرة الأولى التى تقول فيها ذلك واذا مافكرت فى الموضوع فاننى اسأل نفسى ، ولم لا أتركه ؟ أليس هذا هو التصرف المنطقى ؟ على كل فهذا الأمر يمس شغاف النفس ، ولا يستطيع أى منا أن يغيره .

وشعرت بقلق شديد نتيجة لصمت كولا فقالت له :

ـ هل صدمت لأننى قلت إن المسألة جاءت من جانب أمه ..؟ أنا آسفة ، من الخطأ أن أناقش الموضوع معك ...

ودخل بانديلى وايجبو معا من الشرفة ، قال ايجبو :

ـ أنا لا أصدقك .

ـ صدقنى ، اذا رأيت وجهها مرة أخرى فلن أعرفها ، لأننى لم أتبين وجهها فى الظلام حينما احضرت المذكرة .

ـ لكننى وصفتها لك ، لابد أن تعرف أى تلميذاتك هى .

ـ لا أستطيع أن أميزهن فكلهن متشابهات .

ونظر ايجبو الى كولا وقال له :

ـ أرجو أن تؤكد له اننى لا أريد اغتصابها ، واذا أردت ذلك فما شأنه هو . لماذا لا يخبرنى باسمها .

ـ هل يعرف اسمها ؟

ـ هذا ما أكرر تأكيده لا أعرف أى التلميذات .

ـ فليعطينى قائمة تلميذاته كلهن اذن .
ضحك كولا وقال :
ـ هل تريد كشف الأسماء منه الآن ؟

ـ بعد أن نذهب من هنا سنتجه الى المكتب وأعطيك الكشف .
ـ كم عددهن ؟
ـ كل من فى السنة الثانية ؟
ـ لا أعرف بالضبط ، صدقنى لا أعرف .
ـ هل هناك بعض مقالاتهم باقية عندك لكى أراها ، لأننى أعرف خطها جيدا .
ـ ربما يكون عندى بعضها ، على كل هى غلطتك ، فلماذا لم تسألها عن اسمها .
ـ اعتقدت أنك تستطيع أن تخبرنى وأن أشك فى ذلك .
وفتح باب المطبخ وخرجت منه أم فاسى والقت نظرة من خلال الحجرة نحو الشرفة وقالت :
ـ أليست هذه هى سيارته التى اسمع صوتها ؟
هنا أدركت مونيكا أن فاسى غير موجود فنظرت الى بانديلى وقالت :
ـ ظننت أن آيو معك فى الشرفة .
فرد عليها بانديلى :
ـ لا لم يكن معى لقد تركته هنا مع كولا .
وسألت كولا عن فاسى فقال :
ـ ذهب الى معمله ليقوم بعمل عاجل وقال انه سيعود فورا .
ونظرت بعينين عاتبتين الى كولا وقالت :
ـ أى أصدقاء آيو هذا ؟
ـ فردت عليها مونيكا :
ـ انه آيو ياماما .
فاتجهت نحوه بجسمها الضخم وعينيها القويتين وقالت له :
ـ اذن فانت المذنب الذى ضيع طعامى الذى أعدتته المرة السابقة .
ـ أنا آسف جدا ففى ذلك اليوم تذكرت فجأة أن هناك شيئا عاجلا يجب أن أؤديه .

ـ وهل تظن اننى سأسمح لك بتذوق طعامى مرة أخرى ؟
ـ أنا آسف جدا ، وأتوسل اليك يا سيدتى ...
ـ أخبرتنى مونيكا عن عملك ولكن ما علاقة ذلك بتضييع طعامى اللذيذ ؟
ـ آسف مرة أخرى ياسيدتى ، قصدت أن أذهب وأعود ولكن الوقت ضاع وتأخرت .
ـ لقد فات الأوان ، يعتقد الفنانون دائما أن الناس يلتمسون لهم الأعذار دائما .
فتدخلت مونيكا قائلة :
ـ ماما انت تخجلين الرجل هكذا .
ـ انه يستحق ذلك ، ولعله خجل من نفسه الآن .
ـ جدا جدا ياسيدتى ..
وجذت مونيكا والدة فاسى وقالت لها :
ـ هذا يكفى يا أماه ، أعتقد أنه تلقى درسا جيدا .
فقال كولا مؤيدا كلامها :
ـ حقا ياسيدتى ، أعدك ألا أعود الى ذلك مرة أخرى .
اصطحبت مونيكا أم فاسى الى المطبخ ، وتركا كولا واقفا لا يتحرك فبادره بانديلى قائلا :

ـ تعال خذ كأسك وأشرب فقد انتهت الأزمة .
ـ لست أدرى لماذا تصرفت السيدة بهذا العنف فى أول مقابلة لها معى .
ـ انها دائما هكذا مع من تعتقد أنهم أصدقاء آيو .
ولكن تعال هنا ، لماذا تكذب بشأن آيو ، هل أنت ولى أمره تدافع عنه هكذا .
ـ أنا متأكد لو أنكم فى موقفى لكذبتم أفضل منى بكثير .
ـ لماذا تدخلت ولم تترك الزوج والزوجة يحلان المشكلة فيما بينهما ؟
عادت أم فاسى تحمل الاطباق الساخنة وهى تتجاهل حديثهم تماما ، وتبعتها مونيكا وهى تقول :
ـ لننتظر قليلا حتى يعود آيو .
فوجهت أم فاسى سؤالا مفاجئا لكولا :
ـ هل طلب منك صديقك أن تنتظره ؟

دهش كولا ولم يستطع اجابة فقالت أم فاسى :
- قلت لكم انه يتناول غذاءه مع الأستاذ الآن .
- لكن كولا قال انه ذهب الى المعمل .
ضحكت ضحكة عالية وقالت :
- للرجال احساس معين بالكرامة .
وذهبت الى المطبخ لتعود بمزيد من الطعام وأكملت كلامها :
- يظن أصدقاء أيو آننى لا أعرفه ، اننى فقط أمه .. تفضلوا فالطعام جاهز .
وقالت مونيكا موجهة كلامها الى كولا :
- عليك أن تملأ معدتك .
وقالت أم فاسى :
- إن ابنى يسىء الى اسمى ، ماذا أفعل اليوم مثلا ؟ لا أقابل اصدقاءه أبدا الا وأنا على علم بما يتحدثون به فيما بينهم . هذه هى المرأة التى أنجبت آيو ، والسبب فى مهاجمتهم لى .أنه يتحدث كثيرا عنى .
- لابد أنه مغرم بك .
- مغرم بى ؟ لماذا ؟ قد يكون ابنا غير طبيعى اذا شعر بخلاف ذلك ، هذا أمر مفروغ منه ، أنا مثلا مغرمة بمونيكا ، أحب هذه البنت فعلا ، وان كانت تتصرف أحيانا بغباء ، ولكنى فى نفس الوقت أهتم بسعادتها .
أبدت مونيكا شيئا من الامتعاض وشعرت بشىء من الاحباط وتركت المائدة بحجة أنها سوف تحضر بعض الطعام من أجل يوساى . وتابعت الأم كلامها :
- اذا لم أكن أهتم بسعادتهما ما أصلحت بينهما فى كل مرة يتشاجران فيها بدلا من ذلك قلت لها بصراحة أذهبى وابحثى عن سعادتك فى مكان آخر فانك لن تحصلى على سعادتك من ابنى هذا .
وجلس كل من بانديلى وايجبو وكولا فى ذهول ففاجأتهم بضحكة عالية وقالت :
- حسنا ، كلهم مندهشون مما أقول ، ولكن ليس هناك مايخفى فيما يتعلق بمنزل منهار ، يجب أن أعرف منكم عما اذا كنت مخطئة فى نصحها ، الصراحة اننى لا أحب العواطف الفارغة .
فقال بانديلى :
- هل هى مجرد عواطف يا مسز فاسى ؟

ـ ما هى اذن ؟ اسمع ياولدى لقد انفصلت عن والد آيو منذ اثنى عشر عاما ، واعلم تماما متى يكون الزواج مدعما بالعواطف .

وأخذت تقدم الطعام الى كولا وهى تتراجع وتقول :

ـ هذا نوع ملتهب من الطعام ، ولكنى لا أطيق أى نيجيرى يرفض أكل الفلفل الحار ، وتعمدت أن تزيد من كمية الفلفل على الطبق ثم دفعته أمام بانديلى وواجهته وهى تقلب الفلفل فيه وتقول :

ـ هل تعتقد أننى لا أهتم ؟

ـ لا أبدا ، اعتقد أنك لو أمرت ساجو ألا يحطم بيته فسوف يطيعك .

ـ كلا ، تقصد لو قلت له الا يطرد مونيكا فسوف يطيعنى .

ـ وهو كذلك نفس الشىء .

ـ لا ياولدى الأمر يختلف ، اذا أردت أن تبقى مونيكا فستبقى ولكن ما علاقة هذا بزوجتيهما ؟ الأفضل لهما أن يذهب كل فى طريقه قبل أن ينجبا أطفالا يعقدون حياتهما . وما سأقوله لولدى آيو هو ما قلته دائما : عليك أن تقرر بنفسك ، قلت له ذلك حينما كتب لى يقول انه يريد أن يتزوج من فتاة بيضاء وأنا أعلم تماما مايدور فى ذهنه ، ولذلك فقد حذرت مونيكا أن تكون مستعدة لكل التطورات .

كان كولا يرقبها بطرف عينيه ولا يستطيع أن يرفع عينيه نحوها ، وأخذ يعيد النظر فى الموقف بعد سماعه لما تقوله .

ووجهت أم فاسى سؤالا الى بانديلى :

ـ هل صديقك هذا متزوج ؟

ثم اعادت السؤال على كولا نفسه

ـ هل أنت متزوج ؟

ـ كلا لست متزوجا .

ـ ربما لك أطفال .

ـ كلا .

ـ ولكن لا يبدو عليك الورع الشديد ، يبدو انك تعرف ماتفعل جيدا ، الكثير من الشباب لا يهتمون بذلك .

ودخلت مونيكا ثانية وسألت :

ـ هل جاءت يوساى هنا ؟

ـ فبادرتها أم فاسى قائلة :

ـ تعالى هنا يا بنت ، اجلسى ، تتركين أنت وزوجك الضيوف لى ولا

تأبهان بهم ، هل أنا وكيلتكم فى الترحيب بضيوفكم .
جلست مونيكا على كرسيها وسألت :
ـ هل مازالت ماما قاسية معكم ؟
ـ الأفضل أن تتعلمى كيف تكونين قاسية وحادة ، أتعلمون أن البنت الغبية كانت ستعود الى منزلها بعد اسبوع فقط من وصولها » والحكاية اننى ذهبت الى الميناء لاستقبالهما فوجدتها مشدودة الى ذراع آيو ، ومن اشفاقى عليها دمعت عيناى ، اتعرفون ماذا ظنت بى ؟ اعتقدت اننى غاضبة وأننى لا أحبها ... هكذا لا يمكن أن تقسو على فتاة بيضاء لمجرد أنها غبية .
نظر كولا الى مونيكا مباشرة وقال :
ـ ولكنك تنادينها أحيانا باسم مونى ، فهل هذا رأيك :
ـ وهل يكون هذا رأي اينى ، انه يناديها عزيزتى ويناديني مامى .
فعلق بانديلى على ذلك :
ـ لا تلوميه على عادة ظلت معه منذ الطفولة .
ـ لا ، لقد اكتسب كلمة مامى من وجوده فى انجلترا ، ومايغضبنى منه أنه لا يقولها الا أمام الناس .. أسألنى لماذا ؟
صمت كولا لأنه لم يكن يفكر فى السؤال عن مبرر ولكنه كاد يدافع عنهما ضد هذه الاتهامات الشديدة ولكن مونيكا سبقته وقالت :
ـ ما حكايتكم ؟
وأعقبها بقوله :
ـ ان الدجاجة ماتت فعلا ، فلماذا تريدون ذبحها بعد ذلك ..
ولو رأى بانديلى كيف يتعاطف كولا مع مونيكا لظن أشياء أخرى ، وواصلت أم فاسى كلامها قائلة :

ـ سوف يعود فاسى الآن ويعتذر ويقول لهذه الطفلة المسكينة ، دعونى ياعزيزنى لتناول الغذاء ، وجدت انه من قلة الذوق أن أرفض دعوتهم ، وكنت قد مررت عليهم وأنا فى طريقى الى المعمل ... هذا ماسوف يقوله ..
وحدث تغير عكسى فى مشاعر كولا بتأثير الهجوم الشديد الذى شنته أم فاسى على ابنها وزوجته ، وأخذ يفكر فى الموقف من جديد ويتساءل بينه وبين نفسه عن تقييم للموقف ... هل حضور مونيكا لافريقيا مجرد رغبة طارئة عندها ؟ حينما أحبته هل كان ذلك تحقيقا لاحلام جميلة .. الشمس

والمرح والحيوية كما يصفون أفريقيا عندهم ؟

وبالنسبة للزوج كان تفكير كولا فيه بالغ القسوة .. فنظر اليه على أنه يرغب فى كسب مكانة خاصة بزواجه من امرأة بيضُاء ، لماذا هذا الاتجاه الذى أخذه فاسى بينما يقال انه شخص نابه ، يردد زملاؤه فى المستشفى هذا ويحترمون معلوماته ويقدرونها ، فلماذا يبحث عن المكانة بزواجه من امرأة بيضاء .

وغادر كولا المنزل بعد الظهر وهو ملىء بشعور الاحباط ، ولم يستطع أن يدرك مايريده وأخذ معه يوساى الى المرسم وأجلسها على المقعد كى يواصل رسم صورتها ، ولكنها بدت غير مستقرة فانصرف عن الرسم وعندما طلب منها أن تعود الى المنزل ، أخذت تجوب أرجاء المرسم تحدق فى كل شىء تجده أمامها .. وفجأة فتح جوجولدر الباب وقال :

- رأيت سيارتك .

- أدخل

- ألا تشتغل هذا المساء ؟ اننى منهك من التدريبات مع الفرقة الموسيقية التى تتدرب فى الاجازة . هل سأجدك بعد التمرين ؟

- لن أذهب الى أى مكان .

- اليست المدينة الجامعية رائعة وهى خالية هكذا فى الاجازة ؟

- لا شك انه هدوء نسبى .

- وحينما يذهب أعضاء هيئات التدريس الى اجازتهم سوف يزيد الهدوء .

اعتقد ذلك .

ماذا بك ؟ أرى أنك غير متعبة تماما .

- لابأس ، فالأمور سائرة فى مجراها .

- إن المدينة الجامعية ممتعة وهى هادئة هكذا أليس كذلك ؟

- بلى ، انا معك فى ذلك .

وخفض جوجولدر صوته وقال :

- ليس بها مغريات ، وهذا أفضل لى .

كان كولا مهموما فى ذلك المساء ولم يكن ليحتمل شكاوى جوجولدر ولا احباطاته وأحزانه ، خاصة أنه يعلم مابه من أمراض ، وتذكر كولا يوم جاء اليه وجلس على الكرسى فى المرسم وأخذ يبكى وينتحب وهو يقول : « لابد

أن ترسمني مثل واحد من آلهة الهنود الذين رأيتهم فى الفيلم » وضحك كولا وقال « قد يدهشك أن لدينا آلهة مثلها وهى فى بعض الجهات اناث وفى جهات أخرى ذكور » ثم هز رأسه وقال آلهتكم ليست جميلة مثلها فرسمك لها تبدو فيه ذكورة ورجولة صارخة ، فى آلهتكم صرامة حتى الاناث منهم يبدين صرامة الملامح ، أما آلهة الهنود فانها جميعا خناث ، هى بين بين لا هى بالذكور ولا بالاناث » تذكر كولا ذلك اليوم وكيف أن جوجولدر غضب حينما أبقى تلك التقاطيع التى تنم عن كراهية .

وظلا جالسين على مقعد الرسم بينما ينعى جو حياته ويتذكر كيف حاول من خلال دروسه فى الجامعة أن يتلمس من بين طلابه الذكور من ينتمى الى نفس نوعيته فأتى بكتاب به صور لآلهة الهند ، وأخذ يعرضه على تلاميذه لتدور بينه وبينهم مناقشة ، فاذا قال أحد التلاميذ اننى أعجب بهذه الصورة يقول له وهل تود أن تكون مثله ، فاذا قال الطالب نعم قال له جو ولكنه شديد الانوثة ترضى أن تكون هكذا . وذلك فى محاولة لتلمس الانحراف الجنسى فيه واصطياده .

وكان جو أيضا يجوب النوادى الليلية أو يجوب المدينة الجامعية يهز اردافه الثقيلة فى سروال ضيق ، مصففا شعره بأدهنة عطرية يحاول أن يجد من بين الطلاب أو الشباب من يستدرجه معه الى شقته وينتهى الأمر بالتعرض للسخرية أو قد يتلقى علقة ساخنة .

وتذكر كولا أول مرة جلس فيها جو على كرسى المرسم يعترف له بأنه حاول اغراءه فى أول مرة قابله فيها ، ولكنه فشل .. تذكر كيف دعاه الى شقته وظهر له بعد الحمام عاريا فى محاولة لاستثارته .. وتذكر كولا كيف انصرف عنه فى أدب جم وكيف اصبحا صديقين منذ ذلك الحين .

جلس جو على كرسى المرسم يعترف بكل ذلك ، ونظر الى الرسم فوجده لرجل أبيض ، فقفز من الكرسى وجرى وأخذ فرشة أتى بها الى كولا وقال له :

ـ بالله عليك سوّد بشرتى ، اننى زنجى فى داخلى وأجعلنى اسود فى رسمك .

وبعد لحظات عاود الكلام وقال :

ـ الحقيقة اننى جئت الليلة لاسأل سؤالا واحدا عن العمل الذى نفذه سيكونى فاننى أريد تمثال المصارع بحق .

رد عليه كولا قائلا :

ـ ولكننى أرتب معرضا لأعمال سيكونى ، وسيأتى اناس من لاجوس لافتتاحه وسوف نبيع المعروضات لصالح زوجته .

ـ هل كان سيكونى متزوجا ؟

ـ نعم من مدة طويلة .

ـ وهل له أطفال ؟

ـ واحد فقط .

ـ لم أتصور ذلك أبدا .

ـ على كل ياجو سوف أحاول أن يكون المعرض فى نفس تاريخ حفلاتك الموسيقية وربما نجعله فى القاعة الملحقة بالمسرح .

فرح جولدر فرحا شديدا بالفكرة وتهلل أكثر حينما قال له كولا :

ـ سوف أعتبر التمثال مباعا واضع عليه اشارة بذلك .

ـ هذا ما أتمناه ، شكرا ياكولا ، وفكرتك عن استخدام المسرح ممتازة للغاية وفتح باب المرسم مرة أخرى ودخل بانديلى غاضبا وهو يقول :

ـ انت هنا وتتركنى وحدى .. اياك أن تبدأ العمل ... جئت التمس الأمن والراحة عندك . جاءت سيمى ووجدت ايجبو قد ذهب الى المدينة فانتظرته فى شقتى حتى يعود .

صفر كولا وتأفف من حرج الموقف وقال :

ـ هل علمت بحكاية الفتاة الأخرى ؟

ـ لم أنتظر حتى أعرف .

١٥

القوة ... الموضوع الذى طالما تحدث فيه ايجبو من موقع الخبير .. وجد كولا نفسه يفكر فيه ، وكان يفكر فيه بالفعل من وقت لآخر فعلى فترات متباعدة كان كولا يشعر فى نفسه بالقوة ، ويعرف أن فى يديه قوة .. قوة الارادة التحويلية ، كان يدرك أن وسيلة التحويل ليس لها أهمية قليلة ، فالعمل على لوحة الرسم المشدود أو فى مادة الانسان ذاته هى عملية واحدة ... عملية الاحياء وكثيرا ماكان هذا العمل يوصله الى حد الخوف العميق من قدرته على توفية الغرض ، وكانت هذه نقيصة أخرى لا يجرؤ على توفيتها . كان يفكر فى ذلك حينما أخرجته عجلة القيادة من الاندماج الكامل فى هذه الافكار . وكان ايجبو قد تطوع أن يعود معه الى الكنيسة ليصحب معه نوح ، ولم يتردد ايجبو فى تنفيذ تطوعه هذا . وانتقل تفكير ايجبو الى سيكونى . صديقهم الراحل الذى تفجرت فيه تلك القوة فجأة ، وكيف انتقل تلك النقلة الكبيرة وتساءل كيف يكون الانجاز الفنى الفعلى أهم من الايحاء بقوة الانسان الحية ؟ أن تمثال المصارع الذى أدركه متأخرا وعرف خواصه البدنية جاء نتيجة لتأثير مشاجرة قديمة نسيها الجميع مع مضى الزمن ، كان ذلك فى احدى الليالى وهم مجتمعون فى نادى مايومى ، وكان ايجبو فى تلك الليلة مليئا بالدوافع السوداوية الغضبية ، كان يلتمس أى مبرر للشجار مثل الثعلب الذى يتهم الحمل بأنه قد عكر الماء ـ تلك الحكاية المشهورة ـ فكان صدامه وشجاره مع أحد خدم البار بلا مبرر أو سبب ظاهر حيث كان السمار قد غادروا النادى ولم يبق الا المائدة التى يجلسون حولها ، لا يطلبون مشروبات بل لا يتكلمون ، وكان الخدم ينتظرون مغادرة هذه الشلة حتى يغلقوا ويمضوا الى منازلهم ، وأراد أحدهم أن يشعر الشلة بذلك فأخذ يجمع المقاعد ويكومها فى جوارهم . ونشب الشجار وتدخل فيه حارس النادى ـ واسمه أوكونجى ـ كان ضخم الجثة عريض المنكبين ، ترك مقعده ووصل اليهم لينقذ ذلك الخادم الذى تلقى على رأسه كرسيا القاه عليه ايجبو ، فالقى مجموعة من المقاعد التى يحملها فسقطت كومة فوق بانديلى . وثارت ثائرة بانديلى ، وتدخل أوكونجى

، وكان صراعا أو مصارعة انتهت بالقاء أوكونجى على كومة من تراب بجوار النادى .
ومن خلال هذا المدخل الطويل وعلى ارتفاع اصبع واحد من الماء يرتفع اللهب .
وتغير اتجاه الريح فحمل رائحة بترول مشتعل كانت تفسيرا لتلك النيران التى هبت مشتعلة فوق الماء ، ولم ير أى انسان قبل ذلك ، ولكنه الآن يبصر شخصين ينتظران على الطرف الآخر من قناة الصيد هما لازاروس ونوح .
ولم تكن النار قد ارتفعت حينما أخذ القارب يشق طريقه بسرعة الى ذلك الطرف الذى يقف فيه لازاروس ونوح منتظران يخطو لازاروس الى القارب وتمايل حتى اتزن ثم مد يده الى نوح . وأخذ ايجبو يحدق بنظره متابعا ما يجرى هناك فى ذلك الطرف الآخر ، وقد بدت أكمام المجدفين فى القارب وقد سودتها النيران أثناء رحلتهم الى هناك ، ومد لازاروس يده الى نوح ولكن نوح كان لا يتحرك ، مثبتا نظره على النيران ، وظل المجدفان فى القارب بلا حركة ينتظران ماذا سيفعل لازاروس ، ولم ينطق أحد بكلمة حتى يتجرأ نوح ويخطو الى القارب أو يتحرك القارب بشق طريقه وسط النيران .
لم ينظر نوح الى لازاروس بينما لازاروس ينتظر تلك اللحظة وطال الانتظار وبدأ القار الذى يغلف القارب ينصهر تدريجيا وظهرت لمعته على جانبى القارب تنذر بالخطر ، ومن خلف لازاروس كان هناك ظهير مظلم من مياه البحر ومن امتداد الخلجان الصغيرة كما لو كانت أعين أو لوكون تنتظر وتتساءل الى متى يظل القارب يقاوم ، أم أنه سوف يحترق فى منتصف الليل مقدما قربانا للاله ؟
وظل نوح لا يرفع عينيه عن شعلات النيران ، وسمع صوت الخشب ينكسر ونظر المجدفون الى لازاروس وعيونهم تقول انه لا مجال للانتظار بعد ذلك ، وسمع صوتا آخر لخشب يتكسر ، وتحرك نوح فجأة ، استدار الى الخلف وأخذ يجرى وظل يجرى فى اتجاه ايجبو ، وأخذت النيران تخمد والقارب محرق من جوانبه وتنبعث منه أصوات طقطقة خافتة ، واندفع صف الناس الذين يراقبون على الشاطىء مستخدمين عامودا من الخشب يجذبون لازاروس نحو الشاطىء ، وظل نوح يجرى ويجرى دون أن يرى ما أمامه بينما لازارسوس واقف أمام أتباعه ينظرون اليه . وسمع ايجبو صوت سقوط فى الماء ، واذا نوح يسقط فى حفرة من طين ثم يخرج

ليجرى باقدام حافية ويلقى بنفسه وسط شباك الصيد المختفية . وظل لازاروس ينتظر أمام كنيسته ، ثم رؤى كالشبح يدخل وحده ويختفى داخلها مجررا اذيال الخيبة والفشل .

ولم يدر ايجبو لماذا لم يشعر بأى عطف على لازاروس ولكنه كان مسرورا لأن هذا الاصهب لم يدرك وجوده ليشاهد الموقف . واتجه نحو الاتجاه الذى جرى فيه نوح ، وتراءى له أن يحتفظ بسر فشل ذلك الرجل الاصهب دون أن يذيعه .

١٦

منذ فيضانات الأزمنة الأولى مع الضباب الكثيف الذى خيم فى العصور الغابرة ، ومع أول رسول على الأرض جاءت دودة الأرض ودجاجة ومعهما ثمرة ذرة تبحث عن مكان على الأرض تحيا فيه فتصبح جزيرة مسكونة ، ومع أول عابد حمل الصخر على ظهره وصام كى يدرك مايعانيه المساكين ، وكسر من الجبال صخورا يبنى بها المعبد الذى يقدم فيه القربان أمام هيكل السلحفاة الذى يحيط بالروح المقدسة . ومما بث الاله من عباد متناسلين ومما ينزل من السماء ليحيى الأرض ، ومن حب الخير فيهم ومن الرحمة الكبرى بالمعوقين والمشوهين والمجذومين ولم يرحمهم وهم جميعا من خلقه صنعتهم يداه المرتعشتان ، وماذا تفيد الرحمة وقد فضّل البعض وحاباهم بينما حرم الآخرين وعدمهم ؟ والاله السفاح الذى لا يقهر المتعطش للدماء حامى الكير ، ذو الأيدى القوية احداها تحمل القرعة مليئة بالنبيذ ينزل من السماء معلقا سيفه ويلعب باليد الأخرى كالاطفال ، يعبث بالأشجار والبيوت ، ثم يشق ظلمة الضباب الكثيف ويصل الى الأنهار ويسير فيها معربدا . ويكون له ضحايا كثيرون .... ويندفع الماء فى المد اثناء الظهر زاحفا فى صمت ، وتمر الريح من حوله ، والحرارة والمطر ، وتختلف علامات الفصول .... هذا ما تشتمل عليه الصورة ... ويقول ساجو :

ـ ان الأمر يحتاج الى جسر أو سلم يصل بين الأرض والسماء ، أو جبل طويل أو سلسلة معلقة ... رابطة فقط ، بعد خمسة عشر شهر من العمل المضنى فى رسم اللوحات لم يبق الا هذه الرابطة فقط ...

فقاطعه ايجبو قائلا :

ـ فى اللحظة التى تنطق فيها ستكون سكينى الحادة قد قطعت رقبة التيس لكى تندفع دماؤه كالنافورة الى سقف المرسم موصلة بين السماء والأرض .

وقالت سيمى :

ـ هل أعجبك ذلك التيس

ـ أتعرف ماذا أحضرت سيمى فى أول الأمر ؟ تيسا أبيض

ـ لقد قلت لى : تيس ليس به أى نقط .
ـ كان الأولى أن يكون تيسا أسود ، فالتيس الأبيض لا يمكن أن يكون غير منقط ..

فتدخل كولا قائلا :

ـ لو أن جو جولدر موجود معنا هنا لالقى علينا محاضرة عما اذا كان

مضت على ذلك الشجار سنوات عديدة ، سافر اثناءها الجميع الى الخارج وانتشروا فى أقطار العالم الغربى .. مضت سنوات عديدة على ذلك الشجار قبل أن ينفذ سيكونى تمثال المصارع ، ذلك التمثال الذى تذكر كولا الآن كيف كان ينظر اليه باستغراب ، ولكنه كان يرى فيه شيئا مألوفا يحسه فى الأعماق إلى أن أدرك حقيقة مصدره ، فقد تذكر كولا الانفعال الذى لف سيكونى حينما كان يعمل فى نحت التمثال ، وكيف ان ذكرى ذلك الشجار كانت حية فى أعماق سيكونى الغامضة .

وامتلأ كولا بادراكات متعددة لموقفه .. ان حدسه لم يخب ، ومنظر اللوحة التى سيعلقها فى المعرض الذى يعده لسيكونى كان يداعب خياله ، والغريب أن فكرة قد طرأت على ذهنه وهو يفكر فى ذلك ويتخيل .. « اذا عدنا أحياء من هذه الرحلة .. » والأغرب أن نفس الفكرة ـ « فكرة الشك فى العودة أحياء » ـ كانت تداعب أيضا عقل ايجبو الذى يصطحبه الى ذلك المكان .

ولعل هذا الشك الذى راودهما وتلك المخاوف التى ملأتهما كانت بسبب فقدان معالم الطريق الذى تاها فيه حينما نظرا من حولهما ، ونزلا فوجدا الأكواخ كلها غارقة فى الماء الذى فاض حول البحيرة ، وغطى تلك الحشائش التى كانت ممتدة ، والماء متحرك يحمل فوق سطحه القش الذى كان يغطى السقوف ، وتطفو على سطحه بقع الزيت مستديرة لامعة مثل النقود المنثورة ، وشاهدا عنزة ميتة طافية وبعض الكلاب تحاول جرها من سطح الماء الى تلك الأرض المرتفعة التى لم يبلغها الماء .

قال كولا حينما رأى بصيصا من الشمس يبزغ فى الافق .

ـ هكذا كانت نهاية طوفان نوح .

ورد عليه ايجبو قائلا .

أعتقد أننا لم نمر على مثل هذه المنطقة المغمورة بالمياه ياكولا ، وأعتقد أننا بعيدون عن مكان الكنيسة .

ـ بلى اننا بعيدون جدا .
ـ فلنرجع فانني لا أحب أن ألقى بنفسي في هذه المصيدة المائية .
ـ لا ، بل لابد لنا من الوصول ، وليسير كل في اتجاه .. انا في هذا الاتجاه وتذهب أنت في الاتجاه الآخر ، واذا تمكن أي منا من العثور على الطريق فليعد الى هنا وينتظر .
ـ لا داعي لمجرد الانتظار بل ينادي على الآخر بصوت مرتفع . والماء كفيل بأن يحمل النداءات .
ـ وهو كذلك فلنحدد نصف ساعة من الزمن .
ـ ان اقدامي بطبيعتها سوف تقودني الى العودة الى المنزل بعد نصف ساعة كان كل شيء من حولهما غارقا ، ورءوس محصول الذرة الجافة تطل من فوق الماء والأرض من تحتهم موحلة ، فنزع ايجبو أحد أعواد الذرة يتحسس بها عمق الماء وهو يخوض في طين تلك المستنقعات ويرفع رجله من الطين بصعوبة ليخطو الى الأمام وسط المخاضات ، وكانت اجزاء الأرض الظاهرة أيضا من الطين المبلل تنغرس فيه الأقدام وترتفع بصعوبة من وسط ذلك الطين وقال ايجبو معلقا على ذلك :
ـ أنا لا أتصور أن سياراتنا قد مرت بهذا الطريق .
وأصبح من الممكن أن تزل القدم ويسقط الانسان في أحد الحفر العميقة المختفية تحت الماء والطين ويختفي بذلك الى الأبد .
وتعجب ايجبو كيف ارتفع الماء الى هذا المستوى في كنيسة لازاروس ، ولكنه تذكر أن الكنيسة كانت مقامة على أرض ترتفع قليلا عن سطح الماء ، وبينما هو يسير وسط هذا الصمت الكئيب اذا به يرى الصليب مغروسا في الطين يطل بطرفه من وسط الماء الذي يغمر الأرض . ونظر ايجبو من حوله فاذا الكنيسة قريبة ، وكان الظلام قد خيم ولكنه تأكد أنه قريب من الكنيسة ولم يكن متأكدا من المكان ولكنه واصل السير والظلام مخيم في كل مكان .
وسمع صوت نداء يرن في اذنه وله صدى طويل .. ايجبوو ... ايجبوووو . كان الصوت يرن من بعيد كأنه ينتقل على سطح الماء قافزا من مكان الى مكان حتى وصل اليه مع تموجات السطح ... وكان الصوت اشبه بصوت عمته في صياحها تقول ايجبووو ... ايجبووو . فيتردد الصدى النجدة ... النجدة ... وتذكر عمته وهي تصيح وهي واقفة على شط الشق المائي وتقول .. « عد يا ايجبو قف بجانبي هنا واغسل رجليك في الماء ..

ولكنه في طفولته كان يحب أن يغرق فى الماء حتى ركبتيه فتمسك به العمة وتخرجه بقوة ويقول لها فى سذاجة : « هل تخرج جنية الماء الآن ؟ » وتهمس فى تخوف قائلة : « أسكت يا ولد - أغلق فمك ؟ »

ربما كان هذا الصوت صوت كولا .. مل الانتظار فقد انقضى الوقت المحدد للعودة وتوقف بعد أن ضاق بهذا البحث الخطر غير المجدى .

ثم رأى نارا مشتعلة تظهر فجأة فى مكان كان منذ لحظات مظلما اظلاما كاملا فيعكس أضواء متحركة على سطح الماء ، ومن خلال هذا الوميض استطاع ايجبو أن يرى أعوادا من الغاب غرسها الصيادون فى قاع البحر لعمل مصيدة ضيقة للأسماك تمتد من البحر حتى الشط الطينى الضحل ، التيس الأول أبيض أم أسود ، وربما سمي ذلك نوعا من عقدة اللون .

- من هو جولدر .

- ألم تقابله ابدا ؟ هل تتذكر ذلك الحفل الموسيقى ؟

- لا لم أحضره لأن اللعينة لم تحضر وبقيت انتظرها .

ردت عليه سيمى قائلة .

- انها غلطتك ، فان الرسالة التى بعثتها هى أنك سوف تأتى الى منزلى .

- لا قلت لك قابلينى أن الخادم قال ذلك ...

- هل ستتشاجران قبل أن أشكركما على هذا الكبش .

- اشكرنى أنا فهى لا تستحق الشكر .

- من الذى دفع ثمنه ؟

- هذه ليست نقطة الخلاف .

ودخلت مونيكا وتوقفت لحظة حينما رأت سيمى ، وعرفهما ايجبو ببعضهما فقالت مونيكا :

- لا حاجة لتعريفى بها ، طبعا أنت الفتاة الجميلة الذى صورك كولا .. ولكن جمالك فائق حقا ..

وشرح لها كولا انه هو الذى أقنعها بأن تجلس للرسم .

- إن لك حقا فى ذلك ، فانها جميلة حقا ، ولم أكن أتصور أن معبودتك فى الحقيقة أجمل من الصورة هكذا ، ان الصورة لم تعطها حقها من الجمال .

وقف ايجبو وقال :

- لحظة من فضلكم ، المفروض ألا يرى أحد منا هذه الأشياء قبل أن تكمل نهائيا .

وضعت مونيكا يدها على فمها معبرة عن الخجل لحضورها ، ولكن كولا قال .

ـ على كل حال انها مجرد صدفة غير متعمدة .

ـ فعلا لقد جئت صدفة ، فاستمر أنت فى عملك .

ـ تعالى ياسيمى نخرج ، ان البعض ينتظرون خمسة عشر شهرا ليروا الأعمال الرائعة التى يتمها هو فى اسبوع .

ـ من فضلك أربط الكبش وأنت خارج .

ـ بالتأكيد سنخرج ، فلست فى حاجة الينا .

وبعد أن خرجا بقيت معه مونيكا فترة ثم قالت :

ـ يبدو أنك لا تعمل .

ـ لا ، فأنا أنتظر حضور لازاروس .

ـ هل هو لازاروس الذى تنتظر ؟ لقد اعتقدت أنك تنتظر نوح .

ـ لقد انتهيت من نوح ذلك المخلوق ذو الوجه الغامض .. تعالى انظرى .. انه ذلك الخادم الذى يدحرج الحجارة التى ستقع على سيده .

ـ ولكنك قلت انه ....

ـ كان ذلك خطأ فى الحكم عليه استحق أن أذهب وأغرق نفسى بسببه ، لقد كان هنا بينما أنا أرسم لوحة "ايزوماري" فى حياديته الكاملة ، وقد كنت مخطئا تماما حينما أجلسته أربع ساعات دون أن أبدأ رسم خط فى وجهه ولو أننى لم أكن غارقا فى سخريتى للاحظت ذلك من اللحظة الأولى ، فقد كان نوح سلبيا للغاية ، وكان الطهر الذى يبدو فى وجهه أمرا يوحى بالفراغ ، ليس فيه شىء ، وقد احتقرت نفسى لعدم قدرتى على تلمس شىء فى وجهه وتركته هكذا خاليا من أى تعبير .

ـ على ذلك ، فمن هو لازاروس .

ـ انه مولى نوح ، وهو رجل دين حقير أصهب تعرف عليه ساجو ، وسوف يحضره الى هنا هذا المساء ، وهو الشخص الذى انتظره .

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ ستنتهى اللوحة بعد ذلك ، فسأعمل طول الليل ان اقتضى الأمر ، ولتعلمى يامونيكا اننى قد ضقت ذرعا بهذا العمل ، فاذا لم يكن هناك معرض غدا لما واصلت العمل هكذا ، فقد اصبحت لا اطيق رؤية اللوحات المشدودة .

- لماذا ؟ اخبرنى فقد ازعجنى منك هذا .
- لا ، صدقينى ، لا أهمية لذلك ، ولتعلمى اننى لست فنانا ، ولم أفكر يوما فى أن أكون فنانا ، ولكنى فقط ممن يفهمون طبيعة الفن ولذلك فاننى مدرس فنون ممتاز ، هذا كل مافى الأمر ، أما هذا العمل الفنى فان الذى دفعنى اليه هو ايجبو وقد دفعنى اليه رغما عنى ، والمفروض أن يكون هو الذى قام بهذه الرسومات وليس انا ، لسبب واحد هو أنه أقرب الى الموضوع منى فهو عميق الاحساس وأحاسيسى التى سجلتها فى كل هذه الصور كانت أحاسيس وقتية ، أنفعل بها فى بعض الأحيان فقط ، ولذلك استغرقت ذلك الوقت الطويل .
- ان خمسة عشر شهرا ليست زمنا طويلا بالنسبة لعدد اللوحات التى أنجزتها .
- ليس هناك ما أفخر به ، ليس فيها شىء يمكن أن يقارن بما أنجزه سيكونى أو يمكن حتى وضعه بجانبه ، حتى لو استبعدنا تمثال المصارع .
- وماذا عن المرسم الذى أنشأته .
- ان المرسم شىء آخر له وزنه ولكننى أتكلم الآن عن نفسى ومجريات حياتى ، حتى ساجو يمتاز بحاسة سادسة يملك قدرة على تلمس الأشياء التى تعرض له فى عمله ويبدعها ، ولكننى .... مثلا هل يمكن ألا يكون ايجبو قادرا على التمييز بين نوح وايزومارى ؟.. ان امثال هذه الأمور هى التى تقتل التلقائية وتؤدى الى احباط الفنان .
وقفت مونيكا أمامه وبشىء من التردد اخذت الخطوة الأولى واقتربت منه حتى مست رقبته بشعرها الأشقر الناعم وهى تقول :
- ربما كان الأمر ببساطة هو أن العمل قد كاد ينتهى وأنك تشعر بشىء من عدم الثقة ، ياكولا انه أمر عادى أن يشك الانسان فى نفسه بسبب خوفه من تقدير الآخرين وحكمهم عليه .
- ليس كما تظنين ...
- وفضلا عن ذلك فانك خائف من مشاعرك فقد تضعف أمامها ، ولكن طبيعتك انك انسان رقيق العواطف ، فلماذا تغضب من ايجبو بالذات لأنك اساءت فهمه .
- اسأت فهمه ؟
- لست الوحيد ، فان بانديلى أيضا يعتقد أنكم جميعا تعيشون بلا هدف

فى الحياة .
وسمع صوت سيارة فى الخارج فقفزت مونيكا مبتعدة عنه ، وقال كولا :
ـ لعله ساجو جاء أخيرا .
قال الداخل من الباب .
ـ نعم إنه هو ، ولازاروس بالخارج ، هل أدخله ؟
ـ طبعا ، طبعا ..
فاصطحبه ساجو ودفعه أمامه فقالت مونيكا وهى تهم بالخروج .
ـ هذه هى آخر لوحاتك قد وصلت ، فلأذهب أنا كى لا أعطلك .
وقبل أن تمضى سألته :
ـ ماذا ستسمى هذه اللوحة ؟
ـ ايزومارى ، اللسان الخارج من الحية السماوية .
وبدأ كولا يعمل بينما لازاروس جالس على الكرسى كأنه تمثال ، كان أفضل من جلس على هذا الكرسى ، بدا من عينيه أنه يفكر فى شىء ونظر حوله الى جوانب الاستوديو ، وكاد ينطق بما فى عينيه ولكن كولا أوقفه حينما اتجه اليه ليعدل من اتجاه وجهه . وظل لازاروس على الوضع دون حراك ، وأخذ كولا يعمل بجد ونشاط وكأن هذا هو آخر عمل فى المعرض .
ومرت ساعتان على هذا الوضع ثم تحرك لازاروس ليأخذ راحة وسأل :
ـ أين نوح ؟
ـ انه يتجول فى أنحاء المدينة الجامعية ، وهو يأتى ليأكل حينما يشعر بالجوع وخادم منزلى يتولى أموره .
وبدا على وجه لازاروس انه يجمع الافكار ثم قال :
ـ أخيرا وجدت انه يجب أن يكون هناك خليفة من خارج الكنيسية ، فما الاتباع جميعا الا بشر يغارون من بعضهم ، وكنت ابحث عن شاب طائش ، شاب له مشاعر داخلية متأججة كالنيران .
ـ مثل الأتباع الآخرين ؟
ـ نعم هو مثل الآخرين ، لابد أن يكون هناك شىء نغيره ، ان الرجل الطيب يجتذب الرواد للكنيسة ، ولكنه لا يعتبر مسيحيا يعتمد عليه ، لا يمثل الشخص النشيط المتفانى ، فكلما كثرت الشرور التى خبرها الانسان كان أقوى ايمانا عندما يدرك الحقائق ، وهذا هو ما أريده ، هل تعلم أننى رجل كرست حياتى للكنيسة ، وتعلمت بنفسى ، وأستطيع أن أقرأ الكتاب

المقدس باليونانية ، هل تعلم ذلك ؟ اقرأه باليونانيو لأننى عثرت على نسخة قديمة واندفعت الى تعليم اليونانية معتقدا أنها هى العبرية ، ولكنى وجدتها مختلفة تماما ، وعلى كل حال فقد كسبت معرفة تلك اللغة .

ـ قليل من الناس لديهم هذه الميزة .

ـ المهم حقا هو اننى اعرف حسابات الدين .

ـ ولكن قل لى كيف استطعت أن تهدى نوح ..

طرح كولا هذا السؤال ثم انصرف بعض الشىء عن لازاروس ، ولكن رد فعل السؤال كان قويا على الأصهب فقد نبهه من تأملاته فصاح قائلا :

ـ هداية أنا لم اهد أحدا ، انه ليس هداية انه صراع ، الهداية هى أن تصارع وتغلب ، إن أحد اتباعى مزور قضى خمس سنين فى السجن وآخر هرب حينما قبض على عصابته وهى تسرق بنكا ولقد استطعت أن أكسر القاعدة وأن أبحث عن الشخص الخاطىء المذنب لأهديه .

ـ هل من بينهم قاتل .

ـ نعم ، أحدهم قتل زوجته فى قرية قرب أوجيلى .

ثم هدأ روع لازاروس وقال بصوت رزين :

ـ لابد أن أتأكد من أن نوح لم يعد الى الخطيئة مرة أخرى .

ـ هل لديك خطط معينة له .

ـ لا ، فان له الحرية فى أن يذهب حيث يشاء خارج لاجوس قال لازاروس ذلك وعاوده التشنج فقال :

ـ أنا لا أريده فى لاجوس ، فليس من المناسب أن يراه أحد من كنيستى ينشل من جيب أحد أو يخطف فى الأسواق .

وانتفض لازاروس قائما وقال :

ـ تقول إنك لا تعرف اين هو ؟ هل تركته يذهب حيث يشاء ؟

ـ لا يمكن أن يذهب بعيدا ، أرجوك أجلس .

ـ فلنذهب لنبحث عنه .

ـ أرجوك أجلس بعض دقائق فقط .

ـ سوف أعود حالا يامستر كولا ، ولا داعى للاستعجال ، فقد جلست أمامك بلا حراك مدة طويلة .

ـ ان نو ' على مايرام ، انه فقط يتجول أو يلعب .

ـ اصبر ، فالصابر يحصل على جزائه من الرب .

ـ اليس الرب هو الذى خلق العالم فى ستة أيام ، فعليك أن تصبر أنت أيضا الا اذا كنت تريد راحة .
ـ لا يامستر كولا انها ليست مسألة راحة ، اذا قابل أحد نوح الآن ودعاه أن يذهب معه ليسرق دجاجة فانه سيتبعه .
ـ لماذا تخشى هذا ؟ اذا كان قد اهتدى فعليك أن تطمئن .

أخذ ايجبو سيمى معه فى سيارته واتجه الى منزل بانديلى ، وهو فى طريقه رأى نوح تحت شجرة مانجو يحاول الحصول على بعض الثمار فناداه ايجبو ولكن نوح لم يرد عليه ، فعجب اذا كان هذا هو نوح الذى رآه بنفسه منذ أيام لم يجد على وجهه أى علامة من علامات الرعب التى رآها اثناء الحريق وهو يهرب من لازاروس ولم يجد شيئا من ذلك الخوف حينما دعاه كولا للذهاب معه الى ايبادان .

وسألت سيمى :
ـ من هذا الشخص ؟
ـ دقيقة واحدة وسأعود .
وخرج من السيارة ليذهب اليه ويرجوه ولكنه وجد نوح قد تجرد من كل ماضيه وهو يركز كل همه على الحصول على بعض المانجو من الشجرة .
فقال له .
ـ انك حقا ظاهرة غريبة .
ـ سيـــدى .
ـ تعال معى يانوح .

وفكر فيما سيكون حينما يواجه لازاروس بعد تلك الليلة ، وقرر أن يحضر تلك المواجهة ، وذهب معه الى السيارة مستسلما ، وحاولت سيمى أن تربت على ظهره مطمئنة اياه ، ولكنه ابتعد عنها خائفا ، وسأله ساجو .
ـ هل كنت دائما هكذا جزعا ، أم أن هذا هو تأثير لازاروس عليك ؟
ـ سيدى !!
فاعترضت سيمى وقالت .
ـ مادام لا يفهم ماتقول فلماذا تخاطبه هكذا ؟
ـ أنا لا أخاطبه هو ولكننى أحدث نفسى ، أنا لا أستطيع أن أسميه الآن

تابعا لقد اخطأنا التقدير جميعا ، ربما لم يدرك كولا مافى داخليته ، ان مابداخلية نوح ليست هداية عن اقتناع ، انها فقط رفض لأن يحيا هكذا ظلا لرجل آخر .

- ماهذا الذى تقوله ؟

- لا تهتمى بما أقول ، ربما ظنك من آكلة لحوم البشر ..

ووصل نوح الى السيارة قبل أن تلمسه سيمى ، وتغير لون وجهه ، ومضى والخجل يملأه .

اتجه ايجبو الى المرسم ، ودخل فرأى فى أحد الأركان خلف الرسومات حركة فرأى وجه رجل أبيض يخرج من خلف الحامل يحييه فسأله .

- من أنت ؟

- أنا آسف لقد تسللت الى هنا لارى اللوحات قبل المعرض فانني لا أستطيع الانتظار .

وتحرك ايجبو خطوات نحو الرجل ونظر فى وجهه وقال :

- لابد أنك أحد أصدقاء كولا ؟

- نعم أنا جو جولدر .

- المغنى ، أليس كذلك ؟

- بلى ، أنا المغنى ، هل تبحث عن كولا ؟

- أين هو .

- لقد رأيته يخرج من هنا بصحبة الرجل الذى أتى من لاجوس ، فانني أستطيع رؤية هذا المكان من شرفة شقتى ، ولما رأيته يخرج قررت أن أتسلل لالقى نظرة على اللوحات . فأرجوك ألا تخبر كولا بذلك حتى لا يغضب منى .

- كنت أعتقد أننى الشخص الوحيد الذى يحترم فن هذا الرجل ، ولكنني وجدتك تنضم الىّ فى ذلك .

فضحك جو جولدر ضحكة تنم عن فرح مثل فرح الأطفال ، وقال

- أعتقد أننى قادر على معرفة صورتك .. أليست تلك التى توجد فى آخر الصف .

وصرف ايجبو نظره عما يحاول جولدر أن يسترعيه اليه واتجه الى اللوحة غير الكاملة ، وركز نظره على الجزء الذى لم يتم ، فرأى انها تمثل

شكل شخص يخرج لا من القبر ولكن من الفراغ الأزلى الذى تمثله دوامات من الضباب تأخذ ألوان قوس قزح ، وكان هذا الشخص هو لازاروس .
وأخذ ايجبو يحرك رأسه من جانب الى جانب فاحصا اللوحة ثم قال .
ـ لقد غمضت على الأمور .

ـ لماذا ؟
ـ أنا لا أقبل هذه النظرة الى الحياة ، فقد جعل البداية هى عودة الحياة ، فهى نظرة فيها تفاؤل مضلل .
ـ بل أرى أنها نظرة تنم عن ذكاء عميق .
ـ أنا لم أعلق على هذا .
ـ اذن فهى تفى بالغرض ، ما الذى تريده أكثر من ذلك ؟
ـ ان لصديقنا مواهب منحرفة ، انظر الى اللوحة التى رسمها لى مثلا ، لقد صورنى فى شكل مصاص للدماء ، فهل تفترض أن هذه فعلا صورتى ؟ أو حتى اللوحة التى تمثل أوجون أو يفترض أن تكون كذلك .

ـ ما الخطأ فى هذا ؟
ـ انه تشويه بالغ ، وهذا هو الخطأ فيها ، لقد استخدم اسطورة معينة هى أوجون حينما يكون ثملا ، فيفقد سيطرته على نفسه ويبدأ فى قتل اتباعه .
ـ انك تحاول أن تسلبه حقه فى أن يختار مايراه .
ـ اننى اختلف معه فى الموضوعات التى يختارها ، وقد اختلفت معه حول لوحة أوجون ، فإن الدماء المحيطة فيها اثارة للأحزان ، بينما هناك أوجون الحداد ، وهناك أوجون الصانع الأول .. لقد ترك كل هذا واختار جانب سفك الدماء.

ـ لقد كان على حق حينما يقول إنه لا يريد أن يراك بجوار لوحاته .
غضب ايجبو وهم بالخروج قائلا :
ـ الأفضل لى أن أمضى وآخذ هذا التيس معى .
ـ هل هذا التيس ملك لك ؟

ـ نعم وقد اشتريته للاحتفال بمناسبة انتهاء اللوحات وافتتاح معرض سيكونى .

ـ هل ستذبحه ؟

ـ ماذا تفعل بالتيس هل تحلبه ؟

بدا على جولدر غضب لاحظه ايجبو ولكنه لم يدرك سببه وقال :

ـ ألا تحب لحم الماعز ؟

ـ لا ليس ذلك هو الذى أغضبنى ، ولكن كلمة الذبح ، فان سيرة الدماء تشعرنى بشىء غريب يسرى بداخليتى .

ونظر ايجبو الى جوجولدر بجسمه الضخم وعضلاته القوية ولم يصدق ما قاله عن خوفه من الدماء ، واذا به يؤكد قوله .

ـ حقيقة ، صدقنى أنا لا أقوى على رؤيةمنظر الدماء .

وخرج ايجبو يهز رأسه قائلا :

ـ أين نوح ياسيمى ؟

ـ لقد خرج بعد أن نزلت وظننت انه ذهب وراءك .

ـ فليذهب الى الجحيم ... ولنمضى نحن الى المنزل .

ودخل ايجبو السيارة غاضبا ، فقابلته سيمى بمداعبته فى رقبته وهى تقول .

ـ ما الذى يغضبك يا حبيبى ؟

ـ ذلك الوغد الكافر ، لقد رسمنى مثل الغول .

ـ وماذا عن صورتى أنا ؟

ـ آه لقد كانت هناك معلقة ، لم أرها .

ومضى بسيارته تاركا نوح مع جوجولدر فى المرسم .

١٧

أحاطت به أذرع الظلام ، ولمعت من داخليته أضواء القربان ، وأخذت الطبول تدق فى رأسه معبرة عن بداية الطقوس ، لم تكن دقات الطبول عالية فى رأسه مثلما كانت فى ليلته الأولى مع سيمى ، ولم يشعر بذلك الخوف الذى غمره فى تلك الليلة الأولى حينما أخذت الأضواء تشع لامعة بقوة الدوافع المثيرة المنبثقة من أعماق جسد سيمى ، وقال حينما غمرته تلك الأضواء وأحاطت به انه سوف يصب فى كأسها حتى يفيض ... جذبها بين أحضانه وهو يقول فى نفسه لو أن فى هذا خطيئة فسوف أظل هكذا حتى يوم القيامة ... لم يكن يشعر بتلك الجاذبية القوية لأى امرأة أخرى .. الجاذبية التى تدخله فى أعماق أصوات تتردد فى أنسجة جسمه ...

- لست معى هذه الليلة يا ايجبو .
- أحقا ياسيمى ؟
- يبدو انك تفكر فى أحد ، يا ترى فيمن تفكر ؟

وكان ايجبو قد انتقل بتفكيره الى تلك الفتاة الغريبة التى كانت معه على شط النهر والتى أنسته فى تلك الليلة ذكرى ماحدث فى أول عطلة اسبوعية قضاها مع سيمى .. تذكر تلك الرسالة التى أرسلتها له تعزية فى وفاة سيكونى أحس منها بذلك العطف وبهرته تلك اللمسة لانسانية ، وأخذ يبحث فى داخلية نفسه أيها كان أكثر أثرا فيه ، تلك اللمسة الانسانية أم تلك الفترة التى قضاها معها مستلقيين فوق أوراق الشجر على شط النهر ... ان سيمى التى بين أحضانه الآن فيها شىء يلفه ويحيطه ويغمره بشكل مختلف ... ودارت رأسه .... وانتهى مستلقيا على ظهره يواصل التفكير والتأمل .

وقرابة الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمعت سيمى صوت حجر يلقى نحو النافذة فايقظته ، واتجه نحو النافذة ليرى بانديلى فيسأله :

، من هناك ؟

- أنا بانديلى .. انزل بسرعة .
- فى هذه الساعة المتأخرة من الليل .

مد يده الى مفتاح الدولاب الذى علقته سيمى فى سلسلة طويلة تتدلى

الى الأرض وأخذ يلبس استعدادا لمغادرة منزلها فسألته :

ـ ماذا يريد ؟

ـ لا أدرى لقد سمعت بنفسك .

ردت عليه سيمى غاضبة :

ـ أنه تدبير مسبق معه .

ـ ولبس ايجبو بسرعة ، وأسرع نحو الباب ليمضى فسأته :

ـ متى تعود ؟

ـ لست أدرى ؟ وكيف أعرف فى هذه الظروف ؟

وجرى ، وصعد والسيارة بجانب بانديلى ، وكان بداخل السيارة رجل تكوم فى جانب المقعد الخلفى كالقرد الجالس بجسمه الضخم ، يتأوه ويقول :

ـ لا أريد أن أغادر البلاد ... لا أريد أن أطرد من هذا البلد ...

وقد تميز بصوته هذا عن نوح الذى جلس فى سيارة ايجبو يوم أخذه من تحت شجرة المانجو . ونطق بانديلى قائلا :

ـ مات نوح ..

وتوقفت السيارة عند منزل أحد الأطباء من الاصدقاء ليعطى جوجولدر حقنة مهدئة ، وعندئذ أدرك ايجبو انه الشخص الذى قابله فى المرسم بعد ظهر ذلك اليوم حينما أوصل نوحا الى المرسم .

اقتربت السيارة من مرسم كولا حيث كانت الأنوار مضاءة وكولا بالداخل يضع اللمسات الأخيرة فى لوحته الأخيرة ، ووجدا هناك لازاروس مستلقيا على سرير سفارى فى طرف من المكان . ولما لمح ايجبو لازاروس قال :

ـ الأفضل أن تناديه الى الخارج لتخبره .

وخرج كولا فبادره بانديلى قائلا :

ـ لقد مات نوح .. جو يقول انه سقط من شرفة منزله .

وكان الدواء قد لعب برأس جو ، فقال بصوت متوتر مرتعش :

ـ لقد صحت فيه : قف .. قف ، اقسم اننى قلت له اننى لن ألمسه وأقسم اننى لم أكن أنوى لمسه .

فقال بانديلى :

ـ أرجوك يا ايجبو أن تحاول تهدئته .

فدخل ايجبو الى جانبه فى السيارة وأخذ يربت عليه . وسأل كولا ..

ـ هل أخذه جو معه من أجل غرضه الخبيث .

فأومأ بانديلي برأسه مؤكداً ذلك وقال :

ـ كنت نائماً فسمعته يدق بابى بعصبية ، ودخل وهو شديد الاضطراب ، فهمت منه أن نوح اصيب بالرعب حينما أخذ جولدر يلمسه بطريقته .

ـ ماهذا الذى تقولونه ؟

ـ ألا تعرف ؟

ـ وماهذا الذى يجب أن أعرفه ؟

ـ عن جو جولدر ... انه مصاب بشذوذ جنسى .

حينئذ اصيب ايجبو بنوع من الاشمئزاز . وأراد أن يقطع يده التى لمست جو جولدر ، وأخذ يمسحها بلا وعى فى الرطوبة التى تغطى ظهر السيارة ، وتمنى لو لم يلمس ذلك الشخص النجس ، وأخذ كل من بانديلى وكولا يراقبان ايجبو وهو يتصرف هكذا دون أن يعرفا مدى كراهيته التى يكنها له . وأخيرا قطع كولا الصمت بسؤاله :

ـ وماذا تفعل الآن ؟

فرد عليه بانديلى قائلا :

ـ لنخبر لازاروس

ـ هل رأيت الجثة ؟ هل رآها أحد الاطباء ؟

ـ انه ميت بالفعل .

وظهر لازاروس بوجهه الذى يشع منه ضوء فاتر من انغماس ضوء القمر وبعد أن سمع الحكاية ظل صامتا لحظات ثم سأل :

ـ هل أمسكوه وهو يسرق وضربوه حتى الموت ؟

نظر كولا الى بانديلى وتبادلا النظرات دون أن ينطق بانديلى بشىء ، وظل ايجبو مبتعدا ، وجلس على أحد المقاعد فى المرسم ينظر الى لوحات كولا الواحدة تلو الأخرى .

وقطع لازاروس الصمت قائلا :

ـ لقد هرب من قبل وأنقذته ، ربما ظن أننى سوف أكون حاضرا فى كل مرة لأنقذه

فرد عليه بانديلى قائلا :

ـ لم يضرب حتى الموت ولكنه سقط من شرفة أحد المنازل العالية .

فعلق لازاروس على ذلك بقوله .

ـ لم يستطع أن يقيس ارتفاع النافذة مثل اللص المحترف .

واستدار بانديلى واتجه نحو ايجبو فى مقعده ليوقفه ويصطحبه معهم ، وخرج الجميع من الاستوديو .

يجب أن نأخذ جوجولدر الى مكان ما كى يهدأ ويطمئن ، فاذا ما تكلم ربما يودى بنفسه .

ـ علينا أن نبلغ الشرطة وهنا سوف تكون المشكلة ..

ـ سوف أتحدث الى الطبيب ، فاذا كان جو مصابا بسبب الصدمة فلن تحقق معه الشرطة .

. ورفض ايجبو أن يركب معهم السيارة التى يوجد فيها جوجولدر .. وقال انه سيسير الأميال الأربعة عائدا الى منزل سيمى .

١٨

وتحدث ساجو قائلا :

ـ لو أن الرجل قالها بصراحة لوقع فى الخطأ ، ولكنه أطلق العنان لخياله كما يطلق العنان لفرس جامح .

ثم واصل قراءة كلمة المحرر بصوت عال ...

« والخلاصة أننا نريد أن نقول إن العقل الضيق لذلك النائب المحترم الذى يمثل منطقة "ليكو" قد ملأ الجدران العجيبة لدار البرلمان حتى انه انطلق بتلقائية دون تفكير »

وكانت فرصة للنقاش الذى يخرجهم من التفكير فى موضوع نوح الذى شغلهم مدة طويلة ...

ـ أعتقد أنك الذى كتبت هذا التعليق .

ـ طبعا ، الا تلاحظون ذلك من أسلوبى .

ـ اتهمته بالانحراف من أول وهلة .

ـ لم أقصد ذلك ، استمع يابانديلى أريد أن أسمع رأيك فى هذا ..

فرد بانديلى محاولا صرفه عنه .

ـ من فضلك .....

ـ وهو كذلك ، والآن ياكولا أخبرك بما حدث بالضبط : قابلت ذلك الرجل فى مقر أحد الأحزاب السياسية يحاول أن يتلطف مع مندوبى الصحف ، وقال لى : « انكم أيها الشباب تنتقدون دائما تنتقدون نقداً هداماً ، فلماذا لا تقدمون حلولا للمشاكل ، مقترحات ، أو مشروعات تساعد على تقدم البلاد بأى طريقة ، وعندئذ سوف ترون اذا كنا سنأخذ بها أم نرفضها »

ـ الهذا السبب تهاجمه ؟

ـ فقط لاتخلص منه ، ولقد قلت لهذا الزعيم المحترم المدعو كويومى ، وهو ممن يسجدون أمام أى وزير ويقبلون الأيدى والاعتاب . قلت له عليك أن تفعل شيئا بشأن نظام الصرف الصحى فمن المخجل ونحن فى هذه المرحلة من تاريخنا أن يخرج رجال النزح كل ليلة ليضخوا مياه الصرف ويحملوها فى تانكات ، على الأقل لماذا لا تستغل هذه الفضلات ؟. انظر

الى كل تلك المساحات القاحلة فى الشمال ، وقلت له يجب أن تنقل الفضلات بالسكك الحديدية الى الشمال لتلقى هناك فى الأراضى القاحلة لتخصب منطقة السردونا لتزيد من مساحة الأرض الصالحة للزراعة ، وتقلل من البطالة المنتشرة .

فرد عليه ايجبو قائلا .

ـ تبدو فكرة اقتصادية رائعة ، يابانديلى انك رجل اقتصادى فما رأيك ...

ـ لا داعى لسؤاله فقد قرر الصمت .

ـ انتظر أنا لم اتم كلامى ... اسمع هذه : اقترحت أيضا أن يرسل الشمال فائض الحمير عندهم ليحملوا تلك المواد من داخل المدن ونوفر الأيدى العاملة التى تعمل فيها لمشروعاتنا الصناعية التى تدخل فى برامج المجتمعات الجديدة .

فوجه له بانديلى اعتراضا على الاقتراح قائلا :

ـ سوف تعترض القبيلة التى تعمل فى النزح الليلى ولا تقبل احلال الحمير محلهم لانهم يعتبرونها مهنتهم الرئيسية .

ـ حسنا ، اذا كانوا يعشقون التعامل مع تلك المواد فيمكنهم أن ينقلوا الى الحقول التى تلقى فيها تلك المواد ليزرعوها . قلت للزعيم كويومى إن المقطورات التى تجمع فيها المواد ليلا يمكن أن تتجه مباشرة لتفرغ المواد فى عربات سكك حديدية مغلقة وتسير بها نحو الشمال لتخصيب التربة ، وأكدت له أن هذا المشروع سوف يؤدى الى مضاعفة المحاصيل النيجيرية خلال عام واحد .

وانتزع ايجبو الصحيفة من يده واخذ يبحث عن مكان التقرير وهو يقول :

ـ انتظر قليلا .. انتظر .. ربما كانت هذه خطبة الرجل منشورة بالنص .. انها هى ...

ـ سأقدمها له بنفسى ليراجعها فان له ذاكرة قوية ، فان لم يكن يعرف الاختزال فسوف يخفيها وراء ظهره بالطبع . تصور أن عندى بعضا من خطبه وسأستخدمها حينما تكون رغبتى فى توجيه الاتهامات قوية واعتقد أننى قد ذكرت له مايسمى ميتافيزيقية الخطة كى أكمل أمامه الصورة .

ووقعت عينا ايجبو على جزء من الخطبة ، فقال مندهشا :

ـ لقد وجدت هذه النقطة هنا ، ربما هى ماسماه كيمياء وطبيعة العقل .
ـ هل رأيت كيف أن الرجل قد ذهب بعيدا بخيالاته .
ـ واستمع الى هذه القطعة الأخرى التى اراهن أنها جزء من تقريرك ...
« ان عملية جمع فضلات الصرف الصحى ـ كما أعلن فخامة السيد كويومى ـ عملية غير انسانية ، وبينما كان العضو المحترم يتحدث فان عقله اصبح خصباً للغاية وتضخم المشروع فى رأسه وانبثقت الفكرة من عقله مليئة بالالوان والروائح .. » أليس هذا كلامك ؟
ـ وهل تخطىء فى التعرف على اسلوبى ، أتعلم أن ماتياس شخص نمام ، فقد نادانى رئيس التحرير يوما وقال لى : « ان ماتياس اخبره باننى مهتم بمثل هذه الموضوعات وسألنى اذا كنت أريد أن أتناوله بالكتابة .
واشترك كولا فى المناقشة قائلا :
ـ فى الحق لقد أعجبت جدا بفكرة الحمير ، الا انهم قد تكون لديهم حساسية من الروائح .
ـ المسألة بسيطة يمكن استعارة كمامات الوقاية من الغاز من الشرطة .
ـ من الخطر أن تترك كمامات الغاز فى يد الحمير ، ربما خرجوا فى مظاهرة فكيف تفرق المظاهرة اذن باستخدام الغاز المسيل للدموع ، فلن يكون له تأثير حينئذ .
ـ أنا أؤيد فكرة الحمير ، ولماذا تقتصر رحلتهم من داخل المدينة الى السكك الحديدية ، لماذا لا يحملون المادة على طول الطريق الى الشمال .
ـ وربما كانت فكرة النقل بالقطارات خيالية أيضا .
ـ هذا صحيح .
ـ هناك شىء آخر يجب أن تأخذه فى اعتبارك ، فكر فى منظر التنقل ، أو الحركة المتبادلة ، قوافل الماشية المتجهة نحو الجنوب ، وقوافل الحمير المحملة بالبراز المجفف المتجهة الى الشمال .
ضاق بانديلى ووقف وخرج وضرب الباب من خلفه ، وأخذ كل منهم ينظر للآخر ثم سأل ايجبو
ـ ما الذى يحدث فى داخلية هذا الرجل ؟
نظر الى سيمى وديهينوا وقال :
ـ ما رأى السيدات ؟ هل لديكم ماتضيفانه على ماقلناه ؟
وظلت ديهينوا تلعب بيدها فى مؤخرة رأسه ، وتحدثت ديهينوا قائلة :

- حديثكم هذا يكفى لان يدفع الرجل الى تسلق الحائط .
ضحك ساجو وقال :
- لن تصدق ما سأقوله لك كولا ، وأنت كذلك ياايجبو كنت ثملا فى احدى الليالى وبغباء وعدت هذه المرأة أن أحرق كتابى فى التنوير حينما نتزوج .
- بل انك أقسمت على ذلك .
- ومع ذلك فسوف أحنث فى قسمى هذا
- كيف بالله تفعل ذلك وتقبل الزواج منه .
نظر ساجو الى ديهينوا نظرة تشفى وقال:
- هل أخبرهم ؟
- اذا كنت تجرؤ على ذلك .
- وهو كذلك .
وبدأ يتحدث :
- فى يوم من الأيام ، فى لحظة من لحظات ......
وقبل أن يكمل كلامه جرت ديهينوا وقد ملأها الخجل وصعدت الى الطابق العلوى مشيعة بضحكات عالية من ساجو وقالوا :
- ماهو الثمن الذى تطلبه دليلة ، ماهو ثمن عذرية دليلة ؟
فبادرته سيمى بالسؤال
- هل ستتزوجان فعلا ؟
- لقد دخلت المصيدة ، وعلى كل حال أنا سعيد بها .
فاعتذر كولا وقال :
- حتى يكون ذلك حتى استعد بهديتى سوف اهديها زوجا من الاغلال لتربطك بها .
- أعدك فى مقابل ذلك أن أهديك مبولة لحجرة النوم .
ودخل بانديلى ثانية وقال لايجبو :
- قبل أن تمضى عندى رسالة هامة لك .
- هل يمكن أن تؤجل ؟
- .. من احدى تلميذاتى .
- منها ... هى ؟
- أجل .
- منذ متى والرسالة معك ؟

ـ الأفضل أن نتكلم فى الخارج .

ونسى ايجبو وجود سيمى معه ، وأسرع وراء بانديلى ، فانتقلت ديهينوا الى جوار سيمى فى المقعد الذى كان يجلس فيه ايجبو واخذت تنظر اليها نظرة شفقة وتعاطف بينما قال له بانديلى فى الخارج :

ـ اعرف مكانها الآن .

ـ أولا وقبل كل شىء يجب أن أعرف اسم تلك اللعينة ، ماسمها ؟

ـ اسمع يا ايجبو ، سوف اخبرك برسالتها فقط بالنص كما رجتنى أن أوصلها لك ، أعتقد أنها أصيبت بتصدع فى رأسها ، وربما تدرك انت بقية الرسالة .

ـ بالله عليك ، هل هى حامل ؟

ـ نعم .

ـ هكذا ...

ـ تعلم أن علاقتك مع سيمى مازالت قائمة .. رأتك معها فى احدى الحفلات .

ـ هل تصرفت تصرفا غبيا؟

ـ ارادت أن تتصرف ، وذهبت الى طبيب المستشفى ذلك الحقير المسمى دكتور لوموى ، أراد أن يستغل الموقف وحاول اصطحابها الى فراشه فلما رفضت رفض أن يجرى لها عملية الاجهاض ، ومن جنونها قررت أن تحتفظ بالطفل ، وبعد الولادة تعود لتكمل دراستها فى الجامعة .

ـ أين أجد ذلك الطبيب المجرم ؟

ـ قلت ان لك عندى رسالة لا أكثر .

ـ أين أجد ذلك المجرم اللعين ؟

ـ لماذا ترفع صوتك هكذا يا ايجبو؟

ـ أرجوك أخبرنى أين يسكن أو فلتبقى رسالتك معك .

ـ كيفما تشاء ، فلن أكمل الرسالة .

ـ لا أرجوك ياباندیلی أكمل .. أين هى ؟ هل ستفعل ذلك حقا ؟ هل ستعود حقا ؟

ـ قلت لك لا أعرف .

ـ انك تكذب على ياباندیلی

ـ أنا لا أعرف ، واذا عرفت فلن أخبرك ولك أن تصدق ذلك أو لا .

- وهو كذلك أكمل الرسالة .
- حينما تتأكد من موقفك فاخبرني وسوف أوصل لها قرارك ، المفروض أن أسر لك نقطة هامة هى أنك متحرر من أى التزام .. هذه هى بقية الرسالة ، وأرجو أن أكون قد اديتها .
ادار بانديلى ظهره ليمضى ولكن ايجبو استوقفه وقال :
- انتظر يابانديلى .. هذا يفسر اموراً كثيرة ، هل هذه النقطة من عندك أنت لكى تتدخل بيننا ؟
- لا تظن بى الظنون ، انها الرسالة كما هى
- وهو كذلك ، فلتخرج نفسك من الموضع ، ولتحدثنى عن الفتاة هل هى مخلوق غريب ؟ لا أعتقد انها من النوع المتوحش ... أليس كذلك ؟
- أريد أن يكون تدخلى بادنى حد ممكن ، فارجو أن تخبرنى بالرد وقتما تشاء ، ولا أكثر من ذلك .
وحينما مضى بانديلى لم يحاول ايجبو أن يستوقفه هذه المرة ، ظل واقفا مدة طويلة على الدرج ثم خرج من المنزل ليمشى فى الظلام . واتجه بانديلى الى الطابق العلوى وتابعه كولا بنظره حتى سمعوا صوت المياه تنساب فى الحمام فسأل كولا :

- هذا الرجل يقتل نفسه ، لست أدرى مابه ؟
فرد عليه ساجو :
- كل مايحتاجه هو فترة طويلة من الاختلاء الى نفسه
وعلت وجه سيمى مظاهر الحزن العميق المتزايد وحاولت ديهينوا أن تسرى عنها وتداعبها بأحاديث شتى
وطال بهم الجلوس ، لم يفكر أى منهم أن يدعو الجماعة للقيام ، افتتح مغرض سيكونى بعد الظهر على نخب من نبيذ النخيل ، والتيس المشوى الذى قدمه ايجبو ضحية فى هذه المناسبة ، واثناء حفل الافتتاح استل ايجبو السكين الحاد اللامع ليقطع رقبة التيس حينئذ قال بانديلى : « فيم حاجتك الى هذا التيس ؟ ألم تقدم اضحيتك ؟ وظل ايجبو يحمل السكين فى يده لفترة ويهم بها لقطع رقبة التيس ، والجميع واقفون يملأهم الشعور بالتوتر من منظر الدماء السائلة ، وبعد أن قطع رأس التيس لوح بالسكين نحو بانديلى فرش نقطتين من الدماء على قميصه ، وضحك الجميع وزال التوتر لدرجة أن بانديلى ابتسم ابتسامة عريضة فتذكر أن المناسبة من

أجل صديقهم الراحل سيكونى .

لم تكن اللوحة التى رسمها كولا واعطاها اسم ايزامارى قد جفت بعد فحملوها وعلقوها فى خلفية المسرح حيث سيغنى جوجولدر فى تلك الليلة وحضر كل المدعوين بما فيهم البروفسور اوجازور الذى سرعان ما غادر المكان بينما أتى اثنان من الخدم بصوانى النبيذ وامتلأ المكان بالمرح مع طعم النبيذ ورائحة الشواء . ثم تركهم ايجبو ومشى مسافة طويلة الى منزل بانديلى حيث سرح به خياله ونقله منظر الدماء الى مذبحة على شط النهر ، وادرك انه يستطيع أن يترك الفتاة هكذا خاصة بما عرفه عنها من ارادة قوية .. فاتجه الى منزلها .

وبينما هم فى منزل بانديلى ينتظرون الموعد ليخرجوا الى الحفل الموسيقى لمشاهدة جوجولدر فى مواجهة الاوضاء ، نزل بانديلى من الطابق العلوى يقول :

، الم يقارب ذلك الحفل الغريب على الانتهاء ؟

ـ هل تريد أن تطردنا من منزلك ياباندیلی ؟

ـ بل اننى ذاهب معكم قولوا لى اذا كنتم تفهمون .. لاحظت فى البرنامج أن جوجولدر سوف يغنى ترتيلة رثاء فى النصف الثانى من الحفل ، هل هذه فكرته للتكفير عن خطيئته ؟

فتكلم كولا مدافعا عنه قال بصوت رزين :

ـ لا ، فالبرنامج سبق اعداده منذ اشهر .

فرد بانديلى وهو يشعر بغصة فى حلقه :

ـ آه ، اذن فالفصل الآخر هو للايحاء والتشجيع .

قال كولا مداعبا :

ـ سوف تنهار وانت تسمع .

ـ لا يبدو اننا سنصفق جميعا ، لقد رسم جوجولدر علىّ منذ سنوات ولكننى لن أنهار ..

وبدا على بانديلى شعور بالغربة وسطهم ، وازدادت ملامح غموضه ، وفى المسرح ظهر مكتئبا وجلس فى الصف الثانى بعيدا عن المجموعة ، ثم جاءت سيمى فجلست الى جانبه ، بينما جلس ساجو وكولا وديهينوا على بعد مقاعد منهما ، اختار كولا هذا الموقع خصيصا حيث تجلس مونيكا وحماتها مسز فاسى وجعل مقعده الى جانب مونيكا مباشرة ، وفى الصف

الأول جلس الاستاذ أوجازور وزوجته وجاء آيو فاسي فجلس الى جوارهما .
ظل بانديلي طيلة الليلة متجهما صامتا مثل واحد من اعضاء مجلس الملك أوجبوني صار في وحدته ، وربما كان يسأل في نفسه لماذا احضرنا ذلك الشخص الجالس على المسرح ؟ وأى شىء أحضرنا لنشاهده ؟ هل اتى بنا ليخدعنا بموهبة زائفة ؟

وظل طيلة الوقت هكذا كانما الزمن قد توقف بالنسبة له ، بل شعر بأن الزمن يتأخر به ، وكذلك حاول كولا أن يتفهم القطع المعزوفة ويربطها بالزمن ـ وشعر هو الآخر بأنه يعيش لحظة احباط ، اذ كان ينقص تلك الليلة نوع من القوة الدافعة للأحداث لتأتى الواحدة بعد الأخرى على فترات زمنية منفصلة وتقف عند لحظات الابداع وخاصة حينما سمع المقطوعة التى تقول :

« اشعر احيانا بأنى طفل بلا أم »

وعند سماع هذه نظر كولا الى بانديلي وفكر في السقوط من هوة المجهول الى الفراغ في مدينة تخلو من الأموات والأحياء ، حتى اذا وقع الحاضر فوق الرءوس فجأة فسرعان ما يجد طريقة جديدة للحياة مثل مايحدث لايجبو دائما ومثلما يحدث لبانديلي في هذه اللحظة والمغني يقول :

« أشعر أحيانا بأنى طفل بلا أم

كان بالمسرح بعض الاعمدة ، وبعض أكياس الرمل والستائر الجانبية السوداء تهتز ، والضوء المزدوج المسلط على جوجولدر ومن خلفه ظلام دامس يعكس الفراغ الكامل ، والى الخارج تبدو اطراف الستائر السوداء الثقيلة على خشبة المسرح تحيط به كالاطار التى يحيط بالصور العائلية التذكارية ووقف جوجولدر يبحث عن عالم الآمال ، وذلك العالم المجهول الذى ليس له قرار ، فضاء كامل لرجل ينبثق كل لحن من داخليته ، جوجولدر الذى كشف عن روحه المشوهة التى تشع بالغموض وتندفع منها نافورات الاحزان التى تغمره منذ ضياعه الطويل في طفولته ، ولكن ذلك لا يكشفه ...

طويل طويل الطريق من المنزل .
والى المنزل أسير والطريق طويل .

كان يدرك وهو يغنى أنها ليست مسألة مسافة ، ووجد كولا شيئا يحيط

برجله ، واذا هى يد مونيكا مرتعشة تمسك به ، فأمسك بها مدركا أنها ليلة الانفصال وأن كل سيسير فى طريقه .

غلبه شعور لم يجد له تفسيرا ، والتفت نحو المدخل فرأى ايجبو واقفا ورأى على ملامحه شبابا مفقودا ضائعا .

كان ايجبو قد ذرع أرض الكلية ذهاباوجيئة بلا هدف أو مقصد يحاول استجماع ماتفرق من كيانه ، وازالة ما لفه من رعب سرى فى كل جسده وجمّد خصلات شعره ، وذكره ذلك بمنظر بانديلى وهو غاضب تندفع منه الانفعالات كرياح الهرمتان القوية فتأتى السحب ولكنها لا تسقط الماء الذى يهدىء من ثورة الرياح العاصفة ويتمنى لو تبتل الأرض أو تستحيل الى رمال ناعمة تبخرت من تحته كى يتخلص من جسده المتوتر مما به من شر ورعدة ، ويدق قلبه دقات قوية متصلة ولكنها بطيئة كأنها تنحت فى حجر صوان ... ولكن الأمطار لا تسقط فوقه ، والأرض مجرد سحب يركلها بقدمه ... وبلا شعور انجذب الى الأصوات التى تتردد أصداؤها وتملأ الليل بصوت رفيع متقطع فيه أنين كأنين الثور المذبوح ... واتجه ايجبو نحو الباب يتساءل عن ذلك الرجل الذى يصيح ويمزق استار عالم الفهم .

حفر الضوء المزدوج الساقط على المسرح حفرة يقف جوجولدر وسطها فى دائرة الفراغ يراها ايجبو وكأنها أنية الصباغة وسط المصبغة وقد تركتها الصباغات ومضين بعد أن علقن الاقمشة المصبوغة بالسواد وقد غطين قدر الصباغة بأعواد البامبو ، لكن الطفل سقط من بين هذه الاعواد وسط الحفرة يصرخ ويئن وتتساقط دموعه سوداء بلون مياه الصباغة . يبحث جوجولدر دائما عن السواد .. كانت من حوله الامطار السوداء تتساقط من السماوات الصغيرة ، وفرقعات الماء يغلى فى أوانى الصباغة السوداء .. ويردد ايجبو فى نفسه لقد لعبت هناك وسط النسوة العجائز وهن يصبغن ثيابهن بالسواد يملأهن الحزن وينوحن بأصوات تخرج من حلق محشرج . ويصدر جوجولدر الصوت كما تصور الاصوات من الفقاعات التى تصل الى سطح القدر من الماء الذى يغلى بداخله فتتفجر بالسواد ، وعيون أولوكون الغاضبة مثل الفقاعات تصدر انغامها منتظمة ناطقة باسم ايجبو .. ايجبو .. كدقات الطبول .

ظل ايجبو هكذا فى خيالاته حتى اضيئت الأنوار مصحوبة بالتصفيق والتهليل معلنة الاستراحة .

تحدثت مسز فاسى بصوت يجمع بين تعبير التكبر والضحك الرخيم معلقة على موقف مونيكا اثناء الفترة الأولى من الحفل :

ـ كانت مرعوبة : ألم أقل لك أن الفتيات الانجليزيات يتصفن بالغباء ؟ ما الذى يخيفها ؟ لقد بكيت أنا تأثرا .

ولمحت بانديلى يقف بعيدا عن سيمى ويومىء لها بتحية رسمية دهشت منها ولذا صرفت نظرها عنه وهى غاضبة من هذا التصرف ، أما ساجو فقد كان يشق الزحام ليصل الى مائدة المشروبات ، وقابل أوجازور فتبادلا النظرات لحظة وأكدا سابق تعارفهما واندفع نحوهما فاسى قائلا:

ـ سوف احضر لكم المشروبات يا بروفسور ماذا تفضل ؟

فرد ساجونا قائلا :

ـ دعنى أقوم بالمهمة فاننى مدين للاستاذ ببعض المشروبات .

وتركهما الاستاذ وانضم الى زوجته كارولين التى تطالع بعض اللوحات فى المرسم .

وأخذ ساجو كأسين من الشراب أعطى إحداهما لسيمى والأخرى لبانديلى الذى كان ينظر متأملا أعمال النحت التى خلفها سيكونى ، بينما سيمى خائفة وقد ارتسمت عليها علامات البؤس ، فأخذت الكاس من ساجو وامسكت بيده وضغطتها بين يديها وهو يناولها الكاس .

لاحظت مونيكا ذلك المنظر من بعيد فقالت لأم فاسى :

ـ يبدو على بانديلى الغضب ، لابد أن هناك شيئا اغضبه .

ـ هل لاحظت ذلك ؟ لقد أومأ لى الآن بطريقة غريبة لست أدرى ماذا به ؟

أدرك كولا مايتحدثون عنه فقال مفسرا ذلك :

ـ المسألة أن أحد الاصدقاء مضى وترك فتاته فى يديه ، وبانديلى لا يسعد بذلك الموقف .

فعلقت مسز فاسى على ذلك بقولها :

ـ الرجال !!.. وحوش ..

وسألت مونى

ـ الن ينضم الينا ؟

ازداد شعور كولا بالحرج لموقف سيمى ، فقد لاحظ الجميع انها منبوذة وأن بانديلى يحاول الابتعاد عنها وسمع الكثير من الحاضرين يتهامسون

عليها فنظر الى ام فاسى وقال :
- اعتقد انه من الافضل أن أدعو سيمى لتنضم الينا ، اذا لم تعترض مسز فاسى ..
- على أى شىء اعترض ؟.. هل هى تلك الفتاة الجميلة التى تقف الى جوار بانديلى .
- نعم .. هى بالذات .
- آه انها سيمى التى يرتمى عشرات الرجال خارج هذا المكان تحت اقدامها .
ثم عادت فطرحت سؤالا :
- اليس ذلك الرجل الذى تركها صديق آيو ؟
- انه ايجبو ، الذى يقف هناك بجوار الباب .
فردت مونيكا قائلة :
- انه ليس من اصدقاء آيو ياماما . ارجوك لا تقولى عن كل شخص انه صديق آيو ، لقد حضر هذا الشخص مع بانديلى فقط للعشاء عندنا مرة .
وبينما كولا لا يتحرك بين الجموع لكى يصطحب سيمى اليهم كان يفكر فيما اذا كان تحركها اليهم أمرا مقبولا ، وبدلا من أن يتجه اليها اتجه الى ايجبو ووجد نفسه أمام شخص ملىء بالنفور والتوحش ، وتابع نظراته القوية نحو المجموعة التى تحيط بالدكتور لوموى وتشاركه ضحكاته وثرثراته حيث سمع حديثا يدور :
- أتقصد انها كتبت بالفعل تقول انها تريد العودة .
فسألت كارولينا
- بحالتها تلك ؟
فرد عليها لوموى:
- فى أشهرها الأخيرة من الحمل .
- لماذا تندهش ؟ الاخلاقيات لا تعنى شيئا عند تلك الفتاة
فعلقت كارولنيا قائلة .
- والغريب أنها تبدو فتاة هادئة محترمة
فرد دكتور لوموى متهكما .
- هاهاى .. الفتيات الهادئات اسرع الى ذلك من غيرهن ، عرفتها بمجرد أن جاءت الى عيادتى ، كادت أن توقعنى فى الشباك

فقال له فاسى وهو ملىء بالشك :
- بعض هؤلاء الفتيات يصلن الى درجة اليأس ، ولابد أن تكون حريصا معهن والا فإنهن سيجربن كل المحاولات اليائسة .
- انهن يعرفن طريقهن ، وقد توقعت انها ستأتى الى الكلية عند بدء الدراسة وتجد خصرها نحيلا مثل خصر ابنتى الصغيرة .
- كم اشعر بالاسف من أجلهن .
- لا تضيع عواطفك على امثال هؤلاء الفتيات ، عليهن أن يتعلمن كيف يدفعن ثمن ما يجرين وراءه من متع مؤقتة .
كادت عينا ايجبو تخرجان من رأسه وكاد لسانه يتحول الى مطرقة حداد حينما قالت كارولينا :
- لقد هبط مستوى الاخلاقيات هذه الأيام بصورة واضحة .
- غرق قرننا الحالى فى الفساد ، ونحن ننتظر أن يظهر الطالب المسئول ثم تفكر فيما ستفعله معه .
- أقسم لكم أنكم لن تتعرفوا عليه ، لا تؤاخذانى فى هذا الكلام ،
قال الدكتور لوموى ذلك وهو ينظر خلفه دون أن يدرى أن ايجبو يقف وراءه صامتا لا يحرك فمه والغصة فى حلقه والجفاف فى لسانه وعيناه جاحظتان لا تتحركان واقترب منهم دون أن يعرف أن فاسى الذى كان يخطابه لوموى يسأل :
- ماذا بك ؟ هل هناك شىء فى عينيك ؟
كان ايجبو ينتظر لوموى ليفتح عينيه ويراه ، وشعر لوموى بخطر مميت يحدق به أدركه بعد أن تكلم فاسى وآثر أن يبقى صامتا يحتمى فى هذا الصمت باغماض العين ، ساعدته غريزته حين أنتظر ايجبو وارتبكت كارولينا فى كلامها عن مساعدة الرجل الذي يتحدثون عنه .
لم يكن دكتور لوموى غبيا فحاول أن يحول الموقف ويشخصه تشخيصا جديدا آملا فى امكانية تجنب الأزمة المتوقعة ، وهو يرجو أن تؤدى الاعتذارات مفعولها الشخصى لأنه لم يكن يعرف الرجل الذى صب عليه كل تلك الشتائم .
سمع صوتا رقيقا يأتى من خلفه يتحدث الى البرفسور أوجوازور الذى أدرك أن بانديلى موجود ، فسأله :
- وماذا كنت تفعل فى هذا الموقف يا استاذ ؟

وتدخل فاسى موجها كلامه الى بانديلى قائلا :
ـ هالو بانديلى ، لم أكن أعلم انك هنا .
فافسح له البروفسور اوجوازور مكانا له فى مجموعتهم قائلا له .
ـ تعال وانضم الينا نحن نناقش موضوع احدى تلميذاتك . فسألته كارولين :
هل هى تلميذتك ؟
فتجاهل بانديلى سؤالها الى البروفسور :
ـ كنت اسألك يابروفسور ماذا تفعل لو كنت تعرف أباها ؟
وبهذا السؤال لم يترك بانديلى فرصة لاى خطأ يقعون فيه ثانية . وكان ايجبو يتابع النقاش منذ بدايته ولذا كان يعارض فى تدخل بانديلى ، ونظر فى عينى الدكتور لوموى التى لم يستطيع ان يفتحهما ثانية كى يتجنب اصابتها بالورم اذا اغضب احدا بكلامه الخارج عن حد النزوق ، وقال البروفسور ردا على السؤال :
ـ اتقصد ذلك الطالب المسئول عن حمل الفتاة ؟
ـ نعم هذا ماأقصده .
ـ اتأكد من انه قد فصل من الكلية ، فهذا اقل مايستحقه .
ـ هكذا يكون حلك للموضوع .
وقال اوجوازور بصوت مرتفع وقد اغضبه التعليق المتهكم .
ـ لايمكن للكلية ان تسىء سمعتها بسلوك شاب مستهتر يمثل جيل الشباب الفاسد الاخلاق .
رفع دكتور لوموى رأسه متنهدا وابتعد عن مكان ايجبو وقال :
ـ اوافق على هذا الرأى فمثال هؤلاء يلطخون شرف اسرهم بدون داع وهذا الجانب السىء فى الموضوع .
فقال له بانديلى .
ـ انك كطبيب كان لابد ان تصف الموت كدواء قبل تلطيخ الشرف
واعترض اوجوازور قائلا :
ـ انظر ...
فقاطعه بانديلى قائلا :
ـ انا اسأل الدكتور ، الموت قبل تلطيخ الشرف أليست هذه هى الفكرة ؟
اتجعلهم يتوجهون الى الدجالين لاسقاط الحمل ؟

- لا افهم ماتقول

- الا تفهم حقا ؟ ولكنك معتاد على مثل هذه المشاكل حتى فيما بين من يأتونك لاول مرة .

- ارجو الا تعتقد يا بانديلى ان الجامعة اصبحت مركزا للخدمة الاجتماعية .

نظر اليه بانديلى وعقله يدور بتفكير عميق ، ونظر إلى الافراد الموجودين فى تلك الدائرة ونزلت عليه سكينة وهدوء ، اخذ ينظر اليهم مشفقا ، وكان اشفاقه عليهم غالبا على صرامته ، وانتفخت اوداجه ورفع رأسه وقال لهم :

- ارجو ان تعيشوا جميعا عمرا طويلا حتى تدفنوا بناتكم احياء .

وكانت لحظة انتهاء الاستراحة ودق جرس العودة الى المقاعد ، وبينما هم يتجهون الى مقاعدهم توقفوا لرؤية سيمى تقف بجوار تمثال المصارع الذى نحته الراحل سيكونى وقد امتلأ وجهها بتعبيرات الحيرة وراقبها ايجبو وهى تتجه نحوه وفى عينيها عمق المحيطات الهادئة مليئة بالحزن كغريق يقول : لقد اخترت الغرق .

انتهت

رقم الايداع : ٧٨٠٥ / ٨٦

الترقيم الدولى : ٥ - ٢٧٦ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

روايات الهلال تقدم :

خشب الورد

كوميديا مصرية

تأليف

علي سالم

تصدر : ١٥ فبراير ١٩٨٧



هــذه الــروايــة

"المفسرون"

هذه هى الرواية التى فاز كاتبها وولى سوينكا بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٦ ..

سوينكا أول كاتب أفريقى ينال هذه الجائزة العريقة .. والمفسرون هى أفضل الروايات الافريقية الحديثة التى استحق كاتبها الجائزة عن جدارة ..

تدور الرواية فى عالم أفريقى متميز ، بمدينة نيجيرية من خلال علاقة قوية تربط بين أربعة أصدقاء . مدرس جامعى ومهندس وصحفى وفنان تشكيلى وواحد من أبناء الزعماء التقليديين .. يمثل الأربعة شريحة من المثقفين الأفارقة ومايختلج فى نفوسهم من آمال وآلام .. وما يملأ عقول بعضهم من صراعات فكرية وما يواجهون من مشاكل اجتماعية ..

"المفسرون" رواية يجب أن تقرأها فى هذه الترجمة الدقيقة .

(عدد ممتاز)

١٠٠ قرش

REWAYAT Al — HILAL
NO — 457 JANUARY — 1987